مكتبة نوميديا

دراسة

علي حسين

لماذا نقرأ الكتب المملة؟

لماذا نقرأ
الكتب المملة؟

دراسة

اسم المؤلف: علي حسين

Author: Ali Husseln

عنوان الكتاب: لماذا نقرأ الكتب المملة؟

Title: Why do we read boring books?

الناشر: دار المدى

P.C.: Al-Mada

الطبعة الأولى: 2024

First Edition: 2024

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al-Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 780 808 0800 - +964 (0) 770 2799 999

+964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 706 15017 +961 175 2617

+961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 +963 11 232 2275

+963 11 232 2289 ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أية مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

علي حسين

لماذا نقرأ الكتب المملة؟

• أعتقد أن الملل هو مطلع كل فعل أصيل، إن الملل يفسح المجال لانشغالات جديدة. بغياب الملل، سيغيب الإبداع، إن لم تشعر بالملل، فإنك مستمتع بغباء وضعك.

سلافوي جيجك

• هناك جرائم أسوأ من حرق الكتب إحداها هي عدم قراءتها.

جوزيف برودسكي

• حاول أن تتذكر لو سمحت، هل يقرأ الآن أحد بروست أو رومان رولان؟ من سيشتري مثل هذه الكتب ويدفع مبالغ كبيرة؟ ماذا يطلب أغلب القراء؟ أنت أفضل من يعلم ذلك جيداً. لا حل إلا بتغيير الكتب مادام القراء يبحثون عن الكتب الخفيفة.

سوزوكي ناتشوكاو من روايته
«القطة التي أنقذت الكتب»

المقدمة

الانتصار على الكتب التي أصابتنا بالملل

(لقد تعلمت أنه لا يمكنك أن تكره كتاباً ما
حتى تجربه! فلتفعل ذلك)

• إميلي برونتي

منذ أن تصفحت أول كتاب في حياتي، وحتى كتابة هذه السطور، وأنا أعيش علاقة حب دائمة مع الكتب، ما إن أدخل مكتبة حتى أشعر بنشوة غريبة لحظة النظر إلى الرفوف المزدحمة بالكتب، وغالباً ما كانت الأغلفة تقذف بي إلى عالم مجهول، بينما كنت أرغب بكل كياني أن أغور في أعماق هذه الكتب، وحين أتمكن من الحصول على كتب جديدة، يبدأ قلق آخر، البحث عن عناوين جديدة أخرى، كنت أبحث في رفوف المكتبات مرهوباً بالأسماء: هذا تولستوي وذاك إيمانويل كانط، هنا يقف جان جاك روسو إلى جانب هنري برغسون، من بعيد ينظر إليهم سارتر ساخراً، فيما فكتور هيغو لا تحلو له الصحبة إلى مع فلوبير. في زاوية ما يقبع الجاحظ، وهناك يندب أبو حيان التوحيدي حظه، فيما يقدم لي عبد الرحمن منيف نصائح عن الحياة. كنت مثل طفل ضائع وسط غابة كبيرة، يتطفل النظر في وجوه الآخرين، شعور بالسعادة يغمرني، وأنا أمارس لعبة بعث الموتى من قبورهم.

يشير الفيلسوف الروماني سينيكا إلى أن الحياة الأكثر سعادة هي أن تعيش مع الكتب. آمن الفلاسفة القدماء بأن الكتب باستطاعتها أن تمدنا

بالسعادة، وتتيح لنا التحكم بالسعادة، وتتيح لنا الكتب التحكم بأهوائنا وتصحيح الأفكار المغلوطة، فالكتاب يقودنا إلى علاقة متوازنة مع الحياة.

أنا أقرأ لأنني أحب القراءة، فأكون في أسعد حالاتي عندما أعيد قراءة كتاب له ذكريات في نفسي. تقول دونالين ميلر مؤلفة «الهامسون في الكتب»: «إن القراءة تُجبرك على أن تكون هادئاً في عالم لم يَعد يسمح بذلك». تعودت أن أعيش لحظات من السعادة وأنا أمسك كتاباً في يدي.. هل تشعر بالسعادة مثلي وأنت تختلي بأصدقاء من عينة طه حسين وألبيركامو وسارتر وهرمان ميلفل وجين أوستن ونيتشه وسيمون دي بوفوار وفؤاد التكرلي. أنا أشعر أن معرفتي بهؤلاء ومئات غيرهم فتحت لي نوافذ كبيرة على العالم، وتجدني دائماً ما أتماهى معهم.. يكتب رولان بارت في كتابه «شذرات من خطاب محب» -ترجمة علي نجيب إبراهيم- «أما أنا القارئ، فيمكنني أن أتماهى مع فرتر -بطل رواية غوته آلام فرتر-، وقد فعل هذا آلاف المعجبين، على مر التاريخ، وكأنهم فرتر في مكابداته، وانتحاره، ولباسه وتعطره ومتابعاته». قبل وفاته بأشهر سيعلن بارت تماهيَه الكامل مع رواية فلوبير مدام بوفاري ويضيف: «إن الكثير منا بوفاريون». كانت قراءات الشاب جان بول سارتر أشبه بالمغامرات وهو يرويها لنا في سيرته الذاتية «الكلمات» - ترجمة محمد مندور، فهو يخبرنا أن الطفل سارتر غاص في مغامرات الشخصيات إلى حد خوفه من فكرة أن يهيم بحثاً عنها فلا يعود من هناك: «إني أخشى أن أسقط رأسي في عالم أسطوري وأن أهيم فيه على وجهي بلا توقف، في رفقة هوراس، ودو شاربوفاري، بلا أمل في أن أهتدي إلى شارع لوغوف». ولهذا يؤكد سارتر أنه «لا مفر لأحد من الخيال الروائي، وإلا فليلق عن يمينه بالكتاب» -ما الأدب ترجمة محمد غنيمي هلال-. إن البورتريه الذي يقدمه لنا سارتر عن فلوبير في كتابه الضخم أبله العائلة، نجده فيه قارئاً يطارد ويقتفي أطلال ماضيه بإعادة قراءة النصوص وتمزيق أوصالها.

أثناء عملي في المكتبة كنت أواجه بعض القراء الذين يبدون تذمرهم من بعض الكتب فأجد أحدهم يقول لي: أريد أن أقرأ هذا الكتاب لكن البعض نصحني بتركه لأنه ممل.

كنت كثيراً ما أسمع مثل هذه العبارة، حين يتصفّح قارئ كتاب راس

الحال لكارل ماركس أو يشير بيده إلى رواية مارسيل بروست «بحث عن الزمن المفقود»، وهناك قراء يتضجرون من حجم الكتاب: كيف يمكنني أن أقرأ كتاباً بستمائة صفحة؟، فيما البعض يصر على أن الوقت لا يسمح بقراءة هذه النوعية من الكتب.. وهذه الآراء للأسف دائماً ما تقترن القراءة بمواقع التواصل الاجتماعي التي أصبحت تحتل عقولنا في السنوات الأخيرة

بالتأكيد هناك اليوم الكثير من الناس يجدون أن القراءة نشاطاً مملاً، لأنهم اعتادوا مستوى من التفاعل يحصلون عليه من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، فهذه المنصات لديها القدرة على تقديم ترفيه لا نهاية له ومعلومات لا نهاية لها، وهي متاحة بين أيدينا على مدى 24 ساعة يومياً، ونستطيع الحصول عليها دون جهد.

وعلى الرغم من أننا نعرف أن للكتب فوائد لا تحصى، لكنها للأسف تجلس اليوم في المقاعد الخلفية في قائمة التفضيلات لدينا

هل هناك كتب مملة؟ بالتأكيد هناك الكثير ما زالوا يجدون القراءة مملة ولا يملكون القدرة على إنهاء الكتاب، كما أن هناك من ينظر إلى القراءة على أنها عمل روتيني، ومثل هذه النوعية من القراءة ستنتهي بنا إلى أن نصبح قراء سيئين.

يشير مارسيل بروست إلى أن الكتب القديمة تحث على الحنين إلى الماضي، لأن بعض الذكريات تضيع في ظل ظروف الحياة اليومية، لكننا سنستعيدها في الكتب التي قرأناها خلال تلك السنوات: «إنها التقاويم الوحيدة التي احتفظنا بها، للأيام التي انقضت»، وعلى حد تعبير حنا أرندت أن القراءة تحاول إحياء حياة نرغب في إحيائها».

والآن دعونا نتساءل: كيف يمكن للحروف السوداء الصغيرة على صفحة بيضاء أن تنتج كل هذه التموجات الهائلة في القلب والعقل والروح؟ لماذا نفقد أنفسنا في الكتب؟ رأى غاليليو أن القراءة وسيلة للوصول إلى قوى خارقة. بعد خمسمئة عام، أشاد نظيره عالم الفلك الأمريكي كارل ساغان بالكتب باعتبارها «دليلاً على أن البشر بإمكانهم عمل السحر». بالنسبة لكافكا، كانت الكتب مثل «الفأس التي تكسر البحر

المتجمد فينا». كتبت هابر لي تأملها عن سبب القراءة: «الكتاب هو قلب ينبض في صدر آخر».

في هذا الكتاب أحاول أن أشير إلى الأسباب التي جعلت من بعض الكتب مملة بالنسبة لي، وبالتأكيد السبب لا يتعلق بالكتاب وإنما بالقارئ السيئ الذي هو «أنا»، ولهذا فإنني أحاول في هذه الصفحات أن آخذك في جولة أتمنى أن تكون مفيدة وممتعة لنشرع معاً في ممارسة قراءة صحية، ممارسة حصيفة ومبدعة، وبعيدة عن القراءات السيئة التي كان الفارس دون كيخوته يحشو بها رأسه.

-1-

كتاب اكتشفت معه أنني أبله

في كل مرة يسألني بعض الأصدقاء عن الكتب التي وجدت صعوبة في حل ألغازها، وقد كتبت في مقدمة كتابي «في صحبة الكتب» أن هناك كتباً أصابتني بالحيرة ولا تزال، منها على سبيل المثال يوليسيس رائعة جيمس جويس:. البحث عن الزمن المفقود لمارسيل بروست، وفي مرة من المرات عاندت نفسي فاشتريت كتاب «أصول الرياضيات» لبرتراند راسل، واكتشفت من الصفحات الأولى أنني أمثل دور الأبله بجدارة مع كتاب يقال إن عشرة أشخاص فقط استطاعوا أن يحلوا لغزه، والأمر أيضاً تكرر مع كتاب هايدغر الشهير «الوجود والزمان» عندما قررت أن أخوض معه التجربة في المرة الأولى، وكنت قد جربت حظي مع كتاب «النسبية» لأينشتاين، وكالعادة فشلت معه فعثرت بالمصادفة على كتاب بعنوان «أينشتاين والنسبية» للكاتب المصري مصطفى محمود وهو كتاب بسيط وممتع، يَعرف كاتبه كيف يجذب القارئ. بعد سنوات قرأت كتباً كثيرة عن أينشتاين والنظرية النسبية، لعل أشهرها كتاب برتراند راسل ألف باء النسبية وكتاب أينشتاين كما عرفت لجون بروكمان، وأينشتاين والنظرية النسبية لمحمد عبد الرحمن مرحبا، والسيرة الممتعة التي كتبها والتر إيزاكسون لصاحب النظرية النسبية، وكتاب ميشيو كاكو «كون أينشتاين» وكتب أخرى كثيرة، وأعدت قراءة كتاب مصطفى محمود ثانية فاكتشفت أنه حاول أن يمزج أفكار أينشتاين ببعض الشطحات المثالية والغيبية، ووجدت أنه يشكك في النظرية النسبية حيث يؤكد أن النظرية نفسها نسبية. إلا أن الموضوع الذي أثار اهتمامي حتى هذه اللحظة

هو موضوعة الزمان التي تعد اليوم من أكبر الموضوعات التي تقلق الروائيين والشعراء، وكنت أقرأ في كتاب «النسبية وطبيعة الزمكان» لفيسيلين بتكوف فأثارت اهتمامي عبارة كتبها أينشتاين يقول فيها: «إن صعوبات الحاضر في علومه تجبر الفيزيائي على معالجة موضوعات فلسفية أكبر درجة مما كان الوضع عليه مع الأجيال الأسبق من ذلك». ولهذا نجد أينشتاين يؤكد أن الفلسفة تحولت إلى علم منهجي يمكن أن نبحث به معظم المشكلات.. ومن مراجعتنا لحياة أينشتاين نكتشف اهتمامه بمختلف فلاسفة القرن التاسع عشر، وكان للفيلسوف الإنكليزي الشهير «ف.ب.برادلي» التأثير الكبير عليه، وخصوصاً كتابه الشهير «المظهر والواقع»، وهو الكتاب نفسه الذي شغف به الشاعر الإنكليزي «ت.س.إليوت» فقرر أن يدرس فلسفة برادلي ويقدم رسالة الدكتوراه عن هذا الفيلسوف ونظريته عن الزمن، وهي النظرية التي انعكست فيما بعد في قصيدته الشهيرة «الأرض اليباب» حسب ترجمة عبد الواحد لؤلؤة أو الأرض الخراب حسب ترجمة توفيق صايغ، أو أرض الضياع مثلما أصر المترجم المصري نبيل راغب، في هذه القصيدة نجد انشغال إليوت بموضوع نسبية الزمن والمكان والشخصيات التي نجدها في حالة تغير دائم. الماضي يتغلغل في الحاضر، والأشخاص في الوقت نفسه موجودون في الماضي البعيد وفي الحاضر وفي المستقبل، والموتى يولدون من جديد، موجودون ويعملون في أماكن مختلفة ومجالات مختلفة.. وقصيدة «الأرض اليباب» تربط صورة الحياة في أوروبا في العشرينيات من القرن الماضي بالعصور الوسطى. فالمكان في مستهل القصيدة هو مدينة متخيلة تصبح فيما بعد لندن ثم القدس ثم الإسكندرية ثم أثينا، وفي نهاية القصيدة نجد أوروبا وقد تحولت إلى صحراء، والشخصيات تأتي من الزمن الإغريقي لتعيش بيننا كشخصيات من الحاضر. ورغم أن معظم النقاد يؤكدون تأثير الفلسفة المثالية على إليوت، فإن الشاعر نفسه يعترف بتأثير نظرية أينشتاين عليه، ويتذكر كيف أنه حضر ذات يوم محاضرة لصاحب النظرية النسبية وتحاور معه حول الطبيعة النسبية للزمن والتبدلات التي تحدث في المكان وعلى الناس، وهو الأمر الذي أكد عليه إليوت في «الأرض اليباب» حيث نجد أنفسنا أمام أناس متعددين في أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة.. في

نفس الوقت يستخدم إليوت نسبية الزمن كأساس يوضح من خلاله المصير المشترك للناس الذين يعيشون مختلف الحقب، ويتواجدون في مختلف البلدان، ويمحو عن قصد الحدود بين الأمس واليوم، واليوم والغد، ويخبرنا إليوت أن أينشتاين لم يكن وحده الذي أثر فيه بموضوع الزمن، فهو يعترف بتأثير عمل جيمس جويس «يوليسيس»، بل كان يدعو جويس بـ «المعلم»، ويجب أن نأخذ في الاعتبار أن يوليسيس بدأ نشرها عام 1914 وظهرت كاملة عام 1922، وهو نفس العام الذي أصدر فيه إليوت قصيدته «الأرض اليباب» وفي يومياته يخبرنا إليوت أنه كان يطلب من جويس أن يرسل إليه مسوّدات رواية «يوليسيس» قبل دفعها للنشر، وسيكتب إليوت مقدمة للرواية بعنوان «النظام والأسطورة في يوليسيس» اختتمها بالعبارة المؤثرة التالية: «إنني أعتبر هذا الكتاب أهم تعبير عن عصرنا الحالي، وأنه لكتاب نحن جميعاً مدينون له، وليس من أحد يمتلك القدرة على الهرب منه»، كما أن أينشتاين نشر أول كتاب له عن «النسبية الخاصة» عام 1905، وهو الكتاب الذي شغف به جيمس جويس وكان يضعه بالقرب منه. في «يوليسيس» يؤكد جويس باستمرار أن الزمن مفهوم نسبي، وأن الحاضر والماضي وجودهما ليس في أذهان الشخصيات فقط، بل أيضاً في صور ثابتة.

يكتب أينشتاين في دفتر يومياته: «عندما لا يكون لدي مشكلة خاصة أشغل بها عقلي، أحب أن أقرأ الروايات التي تصوغ براهين حياتية، وهذا لا يهدف إلى شيء، بل هو فرصة فقط للاستغراق في التفكير الممتع، ومعرفة أسرار النفس البشرية».

ظلت النسبية ولا تزال تشغل الناس في معظم بقاع العالم، فالجميع يعتبرها أشبه بلغز يقف الإنسان أمامه حائراً، ويشعر مثلما شعرت بأنه عاجز.. والطريف أن هناك حادثة تروى عن العالم الفلكي البريطاني آرثر إدنغتون الذي رافق أينشتاين في معظم تجاربه، أنه طلب منه ذات يوم أن يعلق على الشائعة القائلة إن هناك ثلاثة أشخاص فقط في العالم (اثنان منهم هما إدنغتون وأينشتاين) يفهمون النظرية النسبية بصورة تامة. وبعد أن فكر طويلاً أجاب إدنغتون: «إنني أتساءل عمن يكون الشخص الثالث؟»..

منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيني على غلاف كتاب النسبية، وأنا

أسأل نفسي دوماً، عن سر الهالة التي تحيط باسم أينشتاين حتى تحول إلى أسطورة من أساطير القرن العشرين. ولا تزال صورته الشهيرة تلك التي يُخرج بها لسانه، كأنه يسخر من كل ما قيل وكُتب عنه تجذب ملايين المعجبين وتتحول إلى أيقونة لا تختلف عن صور جيفارا. وقد جاء عنه في الموسوعة البريطانية أنه «تم الاعتراف به، وهو على قيد الحياة، كواحد من بين أكثر العقول إبداعاً في تاريخ البشرية. وقدم أينشتاين في الخمس عشر سنة الأولى من القرن العشرين سلسلة من النظريات أكدت لأول مرة تساوي الكتلة والطاقة وطرحت أفكاراً جديدة تماماً بشأن الفضاء، والزمن، والجاذبية».

في المختبر العلمي التابع لجامعة بريستون الأميركية يوجد في أحد الرفوف وعاء زجاجي قديم مملوء بسائل أشبه بعصير التفاح تعوم فيه قطعة مأخوذة من جسم إنسان، إنها جزء من مخ إنسان أدهش البشرية، فقد كان الدكتور توماس هارفي، وهو اختصاصي بالأمراض المتعلقة بأسباب الموت، لديه طريقه حالمة لفهم مسألة الحياة والموت، ولهذا قرر صبيحة يوم الثامن عشر من نيسان عام 1955، تقطيع دماغ رجل عجوز ليتمكن من تحليله واكتشاف الفروقات بينه وبين أدمغة البشر العاديين، وقد واصل الدكتور هارفي على مدى ثلاثة وأربعين عاماً يفحص في هذا المخ وعمل حارساً له، ينتقل به من مكان إلى آخر هرباً من فضول وسائل الإعلام، لكن بعد كل هذه السنوات لم يعثر على شيء غريب. كانت قطعة المخ التي احتفظ بها وأشبعها دراسة وتحليلاً، هي مخ لرجل كان يسخر من الذين ينشغلون بتفسير قدراته العبقرية العجيبة، ويقول للجميع: «ليست لدي قدرات خارقة أبداً، إن كل ما في الأمر هو أني أكثر من الآخرين ميلاً إلى الريبة والتشكيك وحب الاستطلاع». كان صاحب المخ المسروق هو ألبرت أينشتاين الذي لو كان حياً لسخر من محاولة توماس هارفي الذي ظل يصر على أن ينسب إليه عبقرية غير عادية. ولد أينشتاين في الرابع عشر من إذار عام 1879 لأب يعمل مهندساً كهربائياً، كان يعيش حالة القلق الدائم لأن ابنه البالغ من العمر تسع سنوات بطيء الفهم، لغته لا تزال قريبة من لغة الأطفال الرضع.. وذات يوم يسأل الأب معلم ابنه عن المهنة التي يصلح لها ألبرت، فكان جواب المعلم

صادماً: «لن ينجح في أية مهنة».. وتفاقمت حالته في المرحلة الثانوية التي دخلها فقد اكتشف الأساتذة أن مشكلته كانت «ذاكرته الضعيفة ولا سيما بالنسبة للكلمات والنصوص» ميشيو كاكو.. كون أينشتاين ترجمة شهاب ياسين - وقد أخبره مدرس اللغة أن أداءه السيئ لن يجعله يصل إلى شيء، وكان مدرسون آخرون يعتقدون أن وجوده في المدرسة لن يضيف له شيئاً بسبب اختلال قدراته العقلية.

جاء أول حافز حقيقي في حياته من طالب فقير اعتاد تناول الطعام مع أينشتاين، فقد أحضر له هذا الطالب ذات يوم سلسلة كتب علمية مصورة، يقول أينشتاين: «قرأت تلك السلسلة باهتمام بالغ». وقد ساعد هذا الطالب أينشتاين على اكتشاف عجائب الرياضيات، وفي ذلك الوقت اكتشف الفلسفة وهو في عمر الرابعة عشرة حين أهداه عمه كتاب إيمانويل كانط الشهير «نقد العقل المحض»، ويكتب عمه فيما بعد: «يبدو أن أعمال كانط التي لا يفهمها البشر العاديون، كانت واضحة بالنسبة إليه» -أينشتاين حياته وعالمه، والتر إيزاكسون، ترجمة هاشم أحمد محمد-. بعد سنوات نجد أينشتاين الشاب يتفرغ لدراسة أعمال كانط الفلسفية، وظل حتى وفاته يرى أن كانط الفيلسوف الوحيد القادر على التحدث إلى علماء الطبيعة بشيء ذي فائدة. يكتب أينشتاين: «ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن العلوم الطبيعية اعتمدت بشكل أو بآخر على ما قدمه كانط في فلسفته».

في الخامسة عشرة من عمره يرسل إلى خاله مقالاً عن تأثير الفلسفة على العلوم، وكانت هذه أول مقالة يكتبها، وكتب على غلاف المظروف عبارة لكي يقرأها خاله: «لن أنزعج إذا لم تقرأ المادة مطلقاً».

بعد ذلك بخمس سنوات، كان أينشتاين البالغ من العمر تسعة عشر عاماً شاباً عاطلاً، فإدارة المعهد الذي تخرج فيه بتفوق رفضت تعيينه مدرساً معيداً، حيث اعتبره الأساتذة مغروراً وقال له أحدهم: «إنك شخص ذكي لكن يشوبك عيب واحد وهو أنك لا تقبل توجيهاً من أحد»، وأمام هذه الأزمة الجديدة لم يجد مخرجاً غير إعطاء دروس خصوصية. عام 1902 اضطره العوز لأن ينشر الإعلان التالي في إحدى الصحف المحلية الصادرة في برن: «مدرس بإمكانه تقديم دروس خصوصية في الرياضيات والفيزياء

للطلبة، ميزته أنه يقدم دروسه بكل أمانة وإخلاص، حاصل على دبلوم من معهد البوليتكنيك، وبإمكانه إعطاء دروس مجانية على سبيل التجربة». وبفشل في هذه التجربة حيث لم يلتحق بدروسه الخصوصية سوى طفلين، كان كل منهما يدفع فرنكين مقابل كل درس. يبدأ الفقر بمطاردته حيث تسوء أحواله المالية لدرجة أنه كان ينام لأيام دون أن يتناول الطعام، الأمر الذي دفع أحد أصدقاء والده للتوسط بتعيينه في وظيفة بمكتب براءات الاختراع، كانت مهمته فحص هذه البراءة لتقديمها إلى المختصين، ووجد في هذا العمل متعة مكنته من التعرف على أفكار المخترعين الصغار.

ونجده ذات يوم يسأل صديقه ميشيل بيسو وهما يصيدان السمك في إحدى البحيرات: لو تخيلنا أننا نستطيع أن نطير على شعاع من الضوء بسرعة 186 ألف ميل في الثانية، هل سيبدو هذا الشعاع في هذه الحالة ساكناً، وحين استغرب الصديق هذا السؤال العبثي، قال له أينشتاين: إن الأطفال يطرحون أحياناً أسئلة وقحة وساذجة فيتدخل الكبار لإسكاتهم بإجابات تقليدية قد تكون عارية عن الصحة. في بداية عام 1905 أخبر أينشتاين العديد من أصدقائه بأنه على وشك حل لغز الكون، وبعدها بأشهر يقدم بحثاً اعتبر النواة الأولى للنظرية النسبية متحدياً أفكار الإنسان السائدة عن الزمن وعن الفضاء وعن المادة والطاقة. وضمت أسس هذه النظرية موضوعين أساسيين: الأول هو نظرية النسبية القائلة إن جميع الحركات نسبية. وهناك مثل مألوف لهذه النظرية في القطار المتحرك أو السفينة المتحركة. فالشخص الجالس في قطار ذي نوافذ مغطاة بأغطية قاتمة، وبه قليل من الضوضاء، لا تكون عنده أية فكرة عن السرعة، ولا عن اتجاه سير القطار، وقد لا يشعر إطلاقاً بأن القطار يتحرك، والشخص الموجود في سفينة مقفلة النوافذ، يكون في نفس الموقف، لا نشعر بالحركة إلا بمصطلحات نسبية أي بالنسبة لأجسام أخرى، وعلى نطاق أوسع، فإن الحركة الأمامية للأرض لا يمكن الإحساس بها إن لم تكن هناك أجرام سماوية لعمل مقارنة. أما الموضوع الثاني لأينشتاين، فهو أن سرعة الضوء مستقلة عن حركة مصدره، فسرعة الضوء البالغة 186000 ميل/ في الثانية ثابتة دائماً في أي مكان على سطح الأرض ولا تتأثر بالمكان أو الزمن أو الاتجاه. فمثلاً، في قطار متحرك، يسير الضوء بالسرعة نفسها

بسرعة الضوء يسير بها خارج القطار. وما من قوة تؤثر عليه فتجعله أسرع أو أبطأ، وزيادة على ذلك، ما من شيء يسير بسرعة أكبر من سرعة الضوء برغم أن الإلكترونيات تقترب كثيراً من هذه السرعة، والواقع أن الضوء هو العامل الوحيد الثابت وغير المتغير في الطبيعة كلها.

وعلى عكس تعاليم نيوتن، أكد أينشتاين أنه ليس هناك شيء يسمى «حركة مطلقة» وأن فكرة الحركة المطلقة لجسم في الفضاء عديمة المعنى. فالحركة هي الحالة الطبيعية لجميع الأشياء، لا يوجد في أي مكان على سطح الأرض أو في الكون شيء ما في حالة سكون تام أو سكون مطلق، فالحركة مستمرة في جميع أنحاء عالمنا غير الساكن.

كان أينشتاين قد أبلغ صديقه بيسو أن الأحداث الحاصلة في أماكن مختلفة وفي لحظة واحدة لإنسان معين، ليست حادثة في اللحظة نفسها لإنسان آخر. فمثلاً إذا حكم بأن حادثين وقعا معاً في وقت واحد لإنسان على الأرض وآخر في قطار أو في طائرة، فالحقيقة أنهما لم يقعا في اللحظة نفسها. وبتطبيق هذه النظرية على الكون، فإن حادثاً وقع على نجم بعيد، كانفجار مثلاً، وشاهده أحد سكان الأرض، فإن ذلك الانفجار لم يحدث في الوقت نفسه الذي شوهد فيه على الأرض، بل على العكس برغم أن سرعة الضوء 186000 ميل/ ثانية فإن حدثاً وقع على نجم بعيد جداً، قد يكون حدث قبل وصول خبره إلى الأرض بسنوات. والنجم الذي يرى اليوم هو بلا شك النجم نفسه الذي رؤي منذ زمن بعيد، مع أنه ربما لم يعد له وجود في لحظة الرصد.

في مقدمة كتابه «النظرية النسبية» -ترجمه إلى العربية رمسيس شحاته- يطمئن أينشتاين قارئ كتابه بأنه حاول ألاّ يترك القارئ الذي لا يعرف أسرار الفيزياء أن يشعر بالغموض وأن يتيه بين سطور الكتاب، ولهذا كما يقول حاول معالجة الموضوع «بطريقة حانية عمادها التيسير والرفق». يقال دائماً إن الكتب الهضيمة قد تكون مهمة لجميع القراء، لكنها بالتأكيد ليست واضحة أو ممتعة لبعض القراء. بعض هذه الكتب مثل كتاب «النسبية»، يتطلب من القارئ أن يقرأ كتباً تسهل له الدخول إلى عالم أينشتاين، كي يتمكن من حل ألغاز هذا الرجل الغريب الأطوار التي يُخرج بها لسانه لنا،

تشير بالتأكيد إلى أنه يسخر من كل ما قيل من شائعات مضحكة، وتنبهنا إلى أن «كل معرفة بالواقع تبدأ من التجربة وتنتهي بها». ولعل الفهم الحقيقي لنظرية أينشتاين هو الذي أوصل العلماء إلى إطلاق تلسكوب جيمس ويب الذي سيعزز نظرتنا إلى الكون من خلال تجربة المراقبة التي اعتبرها أينشتاين أساسية لفهمنا.. قال أحد العلماء الذين أشرفوا على إطلاق تلسكوب جيمس ويب «إنه أمر يفوق خيالي أن أكون على قيد الحياة عندما نتمكن من رؤية حافة الثقوب السوداء، وحافة الكون، وتحقيق الحلم الذي تمناه أينشتاين قبل مئة عام».

في كتابه «النسبية الخاصة والعامة» يقسم لنا أينشتاين نظريته إلى قسمين: «النسبية الخاصة» التي صاغها أينشتاين في عام 1905، و«النسبية العامة» التي ظهرت في عام 1916. تركز النسبية الخاصة على تأثيرات الحركة المنتظمة على كلٍّ من المكان والزمان. أما النسبية العامة فتتضمن التأثيرات الإضافية للعجلة والجاذبية.

في الحادي عشر من نيسان عام 1955 يوقع أينشتاين مع مجموعة من المفكرين منهم برتراند راسل بياناً يطالبون فيه التحكم في الأسلحة النووية، في اليوم التالي يشعر بآلام في صدره مما اضطر الأطباء إلى إعطائه مسكنات، يقترح طبيبه الخاص أن ينقل إلى المستشفى من أجل إصلاح شرايينه، رفض وهو يقول للطبيب «إن إطالة العمر بطريقة صناعية أمر لا طعم له، لقد قمت بواجبي وآن أوان الرحيل، وسوف أرحل بطريقة جميلة».

مساء السابع عشر من نيسان يطلب من مساعدته أن تحضر له أوراقه وأقامه الرصاص، أخذ يكتب بعجل ، قال لابنه وهو يطلب منه أن يستريح: «آه لو كنت أعلم قدرا سمعته 1955 أكبر من الرياضيات». صباح الإثنين الثامن عشر من نيسان عام الممرضة يتمتم ببعض الكلمات، بعدها أغمض عينيه، ليعلن خبر وفاة العالم الذي حير البشرية عن عمر يناهز السادسة والسبعين، وبجانب فراشه كانت صفحات كتبها بقلم رصاص لبعض المعادلات الرياضية.

-2-

شقاءُ الإنسان من دون العقل

كان يقال إن إيمانويل كانط لم يقرأ أي كتاب مرتين، باستثناء كتاب «بحث في الفهم الإنساني» لديفيد هيوم -ترجم الكتاب إلى العربية بأكثر من ترجمة أبرزها ترجمة موسى وهبه بعنوان بحث في الفاهمة البشرية-، وقد قال عنه إنه أيقظه من غفوته. عندما صدر كتاب هيوم عام 1748 كان كانط يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً. عاش حياة منظمة وشديدة الصرامة، كان يحتفظ بالكتب في مكانين اثنين، غرفة الطعام، حيث خصص بها مساحة لتخزين بعض الكتب التي يقرأها أثناء تناوله قدح الشاي في الخامسة صباحاً، أما المكان الثاني فكان خزانة خشبية كبيرة، تحتل جداراً كبيراً في غرفة المكتب، في أوقات الظهيرة يتمدد على كرسي ليقرأ، وكان مهتماً بقراءة الصحف كل يوم، مع قراءة كتب في الرحلات والعلوم الطبيعية والطب. الخزانة مليئة بالكتب الفلسفية والعلمية ونسخة من رواية دون كيخوته مترجمة إلى الألمانية، ونسخة قديمة من كتاب «المبادئ» لإسحاق نيوتن. وفي غرفة النوم يضع كتب روسو وديفيد هيوم قرب سريره، حيث يقرأ ساعة قبل النوم، وفي الأثناء يسجل في أوراق بعض الملاحظات.

في العشرين من عمري بدأت أتلمس الطريق إلى فلسفة إيمانويل كانط، عندما حصلت على نسخة من كتاب زكريا إبراهيم كانت أو الفلسفة النقدية، وهو الكتاب الأول من سلسلة عبقريات فلسفية، وكنت أجد كتب زكريا إبراهيم مؤثرة جداً، لم تكن لي فكرة مسبقة عن كانط، سوى أنني تعرفت على اسمه للمرة الأولى من خلال مقال نشرته مجلة العربي بعنوان

«إمانويل كانط» كتبه محمد فتحي الشنيطي، ربما ذكرت سابقاً ولعي بكتب الفلسفة، إلا أن السيد كانط لم يجد له مكاناً ضمن اهتمامي، رغم أن كتبه موجودة في المكتبة، التي أعمل فيها ونادراً ما يتجرأ أحد الزبائن ويطلب نسخة منها. مجلدات ضخمة الحجم بعناوين غريبة «نقد العقل المجرد»، «نقد العقل العملي»، أحياناً أقول لنفسي كلما أنظر إلى هذه المجلدات، هل سأتمكن يوماً من قراءتها، وهل سأستمتع بكتابات كانط؟، وبالطبع فإنني وضعت هذا الافتراض قبل أن أقرأ كلمة لهذا الفيلسوف. ذات يوم سأمد يدي إلى الرف لأتناول نسخة من كتاب «نقد العقل المجرد»، جلست في زاوية من المكتبة أتلصص على الزبائن وأنا أقلب صفحات المجلد، أقرأ في المقدمة التي كتبها المترجم أحمد الشيباني عسى أن أعرف سرّاً من أسرار هذا الفيلسوف، وجدت المترجم يخبرني أن كانط استخدم كلمة مجرد لأنه: «يرى في كتابه هذا أن العقل هو، في نشاطه الرئيسي ونزوعه الجوهري، مجرد من الحس، ومتحرر من الحساسية» -نقد العقل المجرد، طبعة دار اليقظة العربية 1965- وقبل أن أتيه في دوامة الحس والحساسية انتبهت إلى صوت صاحب المكتبة يطلب مني أن ألبي طلب أحد الزبائن. كنت أمني النفس أن أفهم ماذا يريد السيد كانط من كتابه الضخم هذا، والآن ربما زكريا إبراهيم يأخذ بيدي، ويطمأنني أن لا شيء يدعو للخوف، من هذا الفيلسوف الذي يصفه مقال مجلة العربي بأنه رجل غريب الأطوار.

في المكتبة كنت أرى بعض الزبائن يطلقون أوصافاً على بعض الكتب، منها صفة عظيمة والبعض الآخر يراها ممتعة، فيما البعض يقع في حب مؤلف إلى حد البحث عن جميع كتبه، وقارئ يحاول أن يجمع طبعات نادرة من مؤلفات كاتبه المفضل. وكنت أسال ما الذي يجعل هذا المؤلف عظيماً؟ فقد كانت كتب «كانط»، برغم قلة مبيعاتها، كتباً مبجلة عند الزبائن الذين يهتمون بالفلسفة والأدب، أيقنت حينها أن الجميع بالتأكيد قد اطلعوا عليها، إلى أن أخبرني ذات يوم الروائي الراحل فؤاد التكرلي، وكان من زبائن المكتبة، أن بعض الكتب تحتل مكانتها المتميزة ليس لأن الجميع قرأها وفهمها، أو أنها كتب ممتعة، بل لأنها مارست تأثيراً على مسيرة الفكر البشري، فالكاتب العظيم ليس مهماً أن يكون ممتعاً. وسيؤكد زكريا إبراهيم

أن كتب «كانط» رغم صعوبتها هي الفلسفة ذاتها لأنها تحمل في صفحاتها «تساؤلات واستفهامات»، أما عن كتابه الذي تورطت به يوماً «نقد العقل المجرد أو المحض» فها هو زكريا إبراهيم يؤكد شكوكي حيث يقول إنه جاء: «حافلاً بالاصطلاحات، وشتى ضروب التكرار، حتى وقع في ظن الكثيرين أنه أعسر كتاب فلسفي ظهر في العصور الحديثة» -زكريا إبراهيم، كانط الفلسفة النقدية-.

كان صاحب الكتاب الشهير «قصة الفلسفة»، وول ديورانت، يحذر قراء إيمانويل كانط من السير إليه بشكل مباشر، فهو كما يصفه «عقل لا يمكن حلّ ألغازه، ولهذا فإن الطريق إليه يجب أن يمر أولاً عبر الكتب التي كتبت عنه»، وأن «يكون آخر ما نقرأه هو ما كتبه كانط نفسه» -قصة الحضارة، ترجمة أحمد الشيباني-. يُذكر أن شوبنهاور كان يردد أن فلسفته «استلهمت استلهاماً ثميناً كتابات كانط»، وظل طوال حياته مغرماً بكتاب «نقد العقل المجرد»، وصفه بأنه أعظم كتاب في الفكر الألماني، فيما بعد سيعتبر نفسه الوريث الشرعي لفلسفة كانط، وأنه وحده الذي يملك الحق بتصحيحها وتقديمها وتكملتها -نقد الفلسفة الكانطية، ترجمة عبد الحميد لشهب-

كان الابن الرابع لعائلة تتكون من تسعة أطفال، مات ثلاثة منهم وهم صغار، عاشت العائلة في جو ديني متشدد. ولد إيمانويل كانط في الساعة الخامسة صباحاً من يوم الثاني والعشرين من نيسان عام 1724، في مدينة كونيغسبرغ التي كانت جزءاً من ألمانيا، تأسست في نفس السنة التي ولد فيها كانط من تجمع ثلاث مناطق سكنية، عاش في مدينته كونيغسبرغ حياة هادئة، ولم يكن يتوقع يوماً أن هذه المدينة الصغيرة ستهب عليها ويلات الحروب التي كان يحذر منها، وأنها بعد أن كانت تخضع للسيادة الألمانية، تصبح بعد نهاية الحرب العالمية الثانية تحت السيطرة الروسية، ويتغير اسمها من كونيغسبرغ إلى كالينينغراد حيث قامت روسيا بإخلاء المدينة من السكان الألمان، ورغم تفكك الاتحاد السوفييتي، وظهور دويلات في البلطيق، بقيت كالينينغراد روسية وقدمت ألمانيا عرضاً مغرياً عام 2001 بشراء مسقط رأس أعظم فلاسفتها، مقابل، إعفاء روسيا من الديون المستحقة وقتها، والتي تجاوزت 25 مليار يورو، جوبه العرض برفض روسي. كان والد كانط

«يوهان جورج» يعمل سراجاً، وطالما استخدم الأحزمة في تأديب أطفاله، مات عندما كان كانط في الثانية والعشرين من عمره، أما أمه «حنا ريجينا» فقد توفيت وهو في الثالثة عشرة من عمره، كانت امرأة شديدة التدين تمنت أن يصبح ابنها كاهناً، ولم تكن تدري أن هذا الطفل الخجول سيوجه فيما بعد أشرس نقد للكنيسة، ويطلق عبارته الشهيرة «إنّ ديناً يعلن الحرب على العقل سوف يُصبح مع مرور الزمن غير قادر على الصمود أمامه» -كانط، الدين في حدود العقل، ترجمة فتحي المسكيني-.

عاش طفولة بسيطة، كان الأب والأم يتبعان الطائفة التقوية، وهي جماعة بروتستانتية رفضت تعاليم لوثر، ما إن بلغ الثامنة من عمره حتى قررت الأم أن يتزود ابنها بثقافة دينية، فأدخلته مدرسة «الفردريكية»، التي كانت تنشئ الأطفال على المبادئ «التقوية»، في المدرسة تعلم اللغة اللاتينية وأتقنها، بسبب الفقر عملت أخواته في وظائف منزلية، أما شقيقه الأكبر فقد تمرد على «تقوية» العائلة وأصبح قسيساً من جماعة لوثر، وصف بأنه كان طالباً هادئاً، اشتكى بعض المعلمين من عدم قدرته على الحفظ، مما دفع أمه أن تكلف أحد أقاربها لمساعدته في التعلم، في المقابل كان مهتماً بقراءة الكتب العلمية، وسعى للحصول على كتب نيوتن وغاليليو. في الجامعة التي دخلها عام 1746 قرر أن يتخصص بدراسة اللاهوت ليحقق أمنية عائلته، لكنه سيترك اللاهوت ويتجه لدراسة الرياضيات والفلسفة، تعلق بفلسفة ليبنتز المتوفّى عام 1716، الذي كان يرى أن العالم يتكون من عقول أولية تسمى «موندات» أي الوحدات المتناهية في الصغر، وكان كتابه «المونادولوجيا» -ترجمة عبد الغفار مكاوي- الذي صدر عام 1714 أشهر أعماله وأكثرها دلالة على مذهبه. كذلك اهتم كانط بدراسة مؤلفات نيوتن، عام 1746 تقدمَ برسالة جامعية حاول فيها التوفيق بين فلسفة ديكارت وليبنتز، وهي نفس السنة التي توفّي بها والده فاضطر أن يعمل مدرساً في الريف عند الأسر الغنية ليعيل شقيقاته، أمضى تسع سنوات في مهنة المعلم، قال فيما بعد إنه ربما كان أسوأ معلم عرفه العالم. في هذه الفترة كان منشغلاً في كتابه الأول «التاريخ العام للطبيعة ونظرية السماء» الذي استطاع أن ينشره عام 1755 على نفقة أحد الأغنياء، والمثير أن كانط رفض أن يضع اسمه على الكتاب خوفاً

من تعرضه لهجوم الكنيسة. يعود إلى مدينته كونيغسبرغ ليكمل دراسته وينال شهادة الدكتوراه عن رسالته التي كانت بعنوان: «المبادئ الأولى للمعرفة الميتافيزيقية» يحصل على وظيفة محاضر في الجامعة من دون راتب، حيث يتعين عليه أن يكسب مالاً مما يدفعه الطلبة لقاء سماعهم لمحاضراته، وبعد فترة وجدت الكلية أن قاعة المحاضرات التي يلقي فيها كانط دروسه تمتلئ بالطلبة، حتى إن البعض ينتظر واقفاً في الخارج، وهو الأمر الذي حسن من وضعه المالي. استمر في مهنة المحاضر خمسة عشر عاماً، عين عام 1770 أستاذاً للمنطق والميتافيزيقيا في جامعة كونيغسبرغ، وفي عام 1780 أصبح عضواً في مجلس الشيوخ الأكاديمي، وبعد أعوام يتم اختياره لعضوية الأكاديمية الملكية للعلوم في برلين. يتم تعيينه عميداً لكلية الآداب، وفي عام 1786 يتولى منصب مدير الجامعة، يبقى في المنصب عشر سنوات وبسبب مشاغله وبحوثه يقدم في شباط من عام 1796 طلباً بإعفائه من المنصب يقول فيه: «إن ضعفي بسبب شيخوختي يضطرني إلى أن أعلن عجزي عن القيام بهذه المهمة. في الثالث والعشرين من تموز عام 1796 يلقي آخر محاضرة له في الجامعة وكانت عن المنطق. يقيم الطلبة احتفالاً بمناسبة تقاعده، حيث نظموا موكباً كبيراً تتقدمه فرقة موسيقية وعدد من الأساتذة، سار الموكب من الجامعة إلى بيت كانط.

عاش الفيلسوف الألماني الشهير حياة بسيطة، يستيقظ كل يوم في الخامسة صباحاً، ينام لمدة سبع ساعات، يقضي ثلاث ساعات من الخامسة إلى الثامنة صباحاً في القراءة والكتابة. يذهب إلى الجامعة في الوقت المحدد، يعود الظهر إلى البيت، في الخامسة عصراً يمارس رياضته المفضلة المشي، ومن الطريف أنه أثناء المشي لا يتكلم مع أحد ويرد السلام بإشارة من يده، فقد كان يعتقد أن الفم يجب أن يبقى مغلقاً أثناء المشي وأن التنفس يكون من الأنف فقط.. يكتب فريدريك غرو في كتابه «فلسفة المشي» -ترجمة سعيد بوكرامي- أن كانط لم يغير مساره اليومي إلا مرتين في حياته، مرة للحصول على نسخة مبكرة من كتاب إميل لجان جاك روسو، ومرة عندما ذهب لمتابعة أخبار الإعلان عن الثورة الفرنسية. يفلسف أهمية الرياضة في حياة الإنسان، ويرى أن المشي لمسافات طويلة يجب أن يتحول إلى قانون

يومي يرافق الإنسان، بشرط أن تسير وحدك دون أن يحدثك صديق أو تجيبه في حديث غير مجدٍ.

ظهرت ثلاثية كانط النقدية في وقت متأخر من حياته: نقد العقل الخالص أو المجرد عام 1781، نقد العقل العملي عام 1788، نقد ملكة الحكم عام 1790. فيما صدرت كتبه الأخرى في نفس الفترة، كتاب تأسيس ميتافيزيقيا الأخلاق عام 1785، الدين في حدود العقل المجرد عام 1793، وعلى الرغم من تدهور صحته في سنواته الأخيرة فإنه لم يتوقف عن التأليف، حيث أصدر عام 1795 كتاب مشروع للسلام الدائم وكتاب ميتافيزيقيا الأخلاق عام 1797، وكان آخر كتاب ظهر له «تأملات في التربية» عام 1803، قبل وفاته بعام حيث توفي في الثاني عشر من شباط عام 1804. وأجريت له مراسيم دفن شارك فيها كبار مسؤولي المدينة مع أساتذة الجامعة والحشد من الطلبة. كان كانط قد كتب وصية سلمها لشقيقته عن أسلوب الجنازة التي يرغب فيها، فقد أراد أن تكون في الخامسة صباحاً، وهو الوقت الذي كان يستيقظ فيه كل يوم، وأن يحضرها عدد قليل من الأصدقاء، وأن تسير في نفس الشارع الذي كان يتنزه به مساء، إلا أن المسؤولين في المدينة قرروا أن تقام له جنازة مهيبة وأن تسير جنازته إلى الكاتدرائية حيث تجمع الآلاف من طلبته ومن سكان مدينته، بعد ذلك تم دفنه في رواق الجامعة التي قضى فيها معظم حياته.

في معظم كتاباته كان إيمانويل كانط يعبر عن إيمانه بالاستخدام الحر للعقل لفحص كل شيء، مهما كان تقليدياً أو مقدساً، كانت الفكرة التي تشغل تفكيره هي التوفيق بين الأخلاق والدين من جهة والمعرفة العلمية من جهة أخرى، وكان يسعى لرسم صورة موحدة. يكتب في مقدمة نقد العقل الخالص: «إن معرفتنا تنبع من مصدرين عقليين أساسيين: الأول هو القدرة على تقبل الانطباعات، والثاني هو القدرة على معرفة الشيء بهذه الانطباعات أو التمثلات. وبالأول يُعطى لنا الشيء، وبالثاني يُفكَّر في الشيء.. لا يجوز تفضيل قدرة منهما على الأخرى، فبدون الإحساس لن يُقدم أي شيء لنا، وبدون فهم لن يُفكَّر بأي شيء. إن الأفكار التي بلا محتوى فارغة، والحدوس التي بلا مفاهيم عمياء».

يلخص لنا كانط في كتاب «نقد العقل الخالص» جميع اهتمامات العقل التأملية والعملية من خلال ثلاثة أسئلة:

1. ما الذي يمكنني معرفته؟
2. ما الذي يجب علي القيام به؟
3. ما الذي قد آمله؟

قد يتساءل البعض بعد كل هذه السنوات هل تمكنت من حل ألغاز هذا الفيلسوف الذي توصف كتاباته بالغامضة والمعقدة؟ في الحقيقة خلال تجوالي في كتب الفلسفة أيقنت أن بعض الفلاسفة ومنهم كانط جعلوني أتنصل من كثير من المفاهيم التي كنت مقتنعاً بها، لأبدلها بأفكار ومفاهيم أوسع. في أوائل العشرين من عمري كنت تائهاً بين مفاهيم كثيرة، لكن بعض الكتب استطاعت أن توسع مداركي، وأن تحررني من الأفكار المستهلكة.

ليس نقد العقل المجرد الذي تصفحته للمرة الأولى قبل أكثر من أربعين عاماً مجرد كتاب فلسفي ضخم، إنه عمل صعب بالنسبة للمختصين وغير المختصين. إنه كتاب يتطلب تركيزاً فكرياً قوياً، وقدرة على التحمل والصبر، لكن لا يمكن لأي مهتم بالفلسفة أن يعفي نفسه من الاطلاع عليه، إنه يلاحقنا عندما يطرح السؤال الأزلي: «ما الذي بوسع الإنسان معرفته؟».

توصف فلسفة كانط بأنها شبيهة بثورة كوبرنيكوس في الفيزياء عندما أخبرنا أن الأرض لم تعد مركز الكون، وإنما الشمس،، جاء كانط ليطلب منا أن نغير نظرتنا فيما يتعلق بالمعرفة «إذا أردنا معرفة حدود عالمنا، يجب علينا أن نتحقق من حدود قدرتنا الذاتية على المعرفة»، فهو بدلاً من أن يحاول تفسير المفاهيم العقلية على أساس التجربة، قام بتفسير التجربة على أساس المفاهيم العقلية، وهكذا ووفقاً للثورة «الكانطية»، أصبح من واجب الأشياء والحقائق الموضوعية أن تدور حول العقل لكي تتحول إلى معرفة، بدلاً من أن يدور العقل حول الأشياء والحقائق الموضوعية لكي يحصل على المعرفة. وقد تصور كانط أنه بهذا الكتاب إنما يصحح خطأ تاريخياً في ميدان المعرفة، أشبه بالخطأ الذي قام كوبرنيكوس بتصحيحه في علم الفلك. قام كانط بتثوير كل المفاهيم المعروفة حول الزمان والمكان والمادة وحرية الإرادة ووجود الخالق. مؤكداً: «إن الجزم بالمفاهيم السائدة،

بكلمة نعم أو لا، يعتبر مصيدة عقلية، وسعى إلى إنقاذ القوانين العلمية للطبيعة، وعلى الأخص علم الفيزياء من الشك، وذلك عن طريق إثبات أن الارتباطات الضرورية لقوانين الفيزياء تقوم على التصور السببي الضروري للعقل البشري. لقد اضطر كانط لإنقاذ الحقيقة والمصداقية العلمية، إلى جعل القوانين العلمية تعتمد على العقل وتصوراته، وإلى القول بأن النظام الذي تبرهن عليه قوانين الفيزياء ليس في الطبيعة بل هو آتٍ من التصورات الكلية والضرورية للعقل الإنساني. حيث اكتشف أن الطبيعة لا تعطي العقل البشري قوانينها، لكن العكس هو الصحيح، فالعقل هو الذي يعطي الطبيعة قوانينه الخاصة، من خلال تصوراته الضرورية التي تنظم جميع المواد الحسية، وهذه هي التصورات التي تشكل وتنظم وتنشئ جميع تجاربنا ومعرفتنا بالطبيعة، ونذكر عبارة كانط الشهيرة «العقل مشروع الطبيعة»، وهكذا يتضح أن قوانين الطبيعة تعتمد على تصورات العقل البشري. ومع ظهور كانط أصبح النظام العالمي تابعاً للعقل كما قال برتراند راسل، وأن المعرفة هي نتاج نشاط العقل البشري.

عند قراءتنا المتأنية والمتعبة لكتب كانط سنكون قد وضعنا أيدينا على أهم مغزى للتحول الذي أحدثه صاحب ثلاثية العقل، فهو تحول عن العالم الخارجي للطبيعة المستقلة إلى العالم الداخلي لنشاط وقدرات العقل كمفتاح لما نجربه ونختبره، وما نعرفه، وأن أي شيء نختبره أو نعرفه يرجع إلى العقل نفسه وإلى التصورات التي يستخدمها العقل في فهم الأشياء، وهذا التحول الكانطي فتح آفاقاً جديدة للفلسفة والعلوم والدراسات الإنسانية.

في الثانية والعشرين من عمره سيكتب هذا الرجل الذي ظل عازباً طوال حياته: «لقد رسمت لنفسي الطريق الذي سأسير عليه في حياتي، ولن يمنعني شيء من متابعة السير والمضي قدماً».

يكتب جيل دولوز أن كانط يعلمنا أن الفلسفة: «علم العلاقة بين كل المعارف والغايات الجوهرية للعقل البشري» – فلسفة كانط النقدية، ترجمة أسامة الحاج.

-3-

عندما تعيش مع كتاب تخاف منه

أقف في المكتبة المكتظة بالعناوين، أدير مناقشةً مع أحد الزبائن حول كتاب «أصل الأنواع» لتشارلز داروين، يسألني عن ثمن الكتاب، وهل توجد نسخة ملخصة منه، لم يتقبل الزبون مبرراتي بقراءة الكتاب الذي لم أقرأه أنا في تلك الفترة، كانت تنتابني نوبة من الحماس عندما يطلب مني زبون أن أختار له كتاباً ما، كنت ألح بأن قراءة الكتاب الأصلي أفضل من قراءة الملخص، قال لي وهو يلقي نظرة على الملخص الموجود على ظهر الكتاب: أحتاج كتاباً يشرح لي مجلد داروين الضخم هذا. ثم أضاف: أحب قراءة ملخصات الكتب ثم أضاف: «لا أملك الوقت اللازم لقراءة كتب كهذه»، وأشار بيده إلى بعض الكتب المجلدة.

طوال سنوات عملي في المكتبة لم أسمع قارئاً يقول إنه قرأ كتاب «أصل الأنواع» من الجلد إلى الجلد، كان المقربون من داروين يشكون من ضخامة كتابه، وفي رسالة يوجهها له صديقه توماس هنري هكسلي يخبره فيها أن كتاب أصل الأنواع: «من أصعب الكتب استيعاباً»، ومع ذلك فهو كتاب تتلاقفه الأيدي منذ أن صدرت طبعته الأولى في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام 1859 وكانت عدد النسخ «1250» نسخة، لم يكن الناشر متأكداً من إقبال القراء على مثل هذه النوعية من الكتب، إلا أن النسخ بيعت جميعها في اليوم الأول.

ثمة مفاجآت أخرى تنتظر تشارلز داروين، فسيكتشف أن كتابه قسم القراء بين مؤيد لنظرية التطور، وبين من اعتبر المؤلف زنديقاً يجب الاقتصاص

منه. يكتب إلى أحد معارفه: «لا عجب أن يكون مصير كتابي هذا كمصير غيره من الكتب التي يساء فهمها».

قال لي ذات يوم الروائي الراحل غالب هلسا إن بعض الكتب ترغمك على تصفحها وقراءة بعض صفحاتها، بالنسبة إلى «أصل الأنـواع» لا تكمن قوته بحجج داروين العلمية، وإنما بالجدال والشائعات التي لا تزال ترافق الكتاب.

في مقالته حول جمع الكتب يشير الفيلسوف الألماني والتر بنيامين إلى أن معظم محبي الكتب قد قرأوا في أفضل الأحوال 10 في المئة من مكتباتهم، ويؤكد بنيامين أن الروائي الفرنسي الحائز على نوبل أناتول فرانس كان يملك مكتبة ضخمة وذات يوم طرح عليه السؤال المعتاد: هل قرأت كل هذه الكتب سيد فرانس، فكان جوابه: «ليس عُشرها لا أفترض أنك تستخدم أواني الخزف كل يوم» -مكتبة هتلر الشخصية، ترجمة سارة جمال-.

كان جبرا إبراهيم جبرا يقول إن فن جمع الكتب يُصبح ناضجاً بمرور السنين، فنحن في بداياتنا نختار كتباً من كل نوع وشكل، ومع مرور الوقت لن يسمح لأي كتاب بالدخول دون قرار حاسم بقراءته. في صباي كنت أقدر الكتب لأسباب معينة، اللغط الذي يدور عنها في المكتبة، الغلاف الأنيق، اسم الكاتب الذي تلهج به ألسن الزبائن. أصبحت حيازة الكتب غاية في حد ذاتها بالنسبة لي، كان هناك تسارع تنمو فيه مكتبتي البيتية بشكل تدريجي، حيث امتلأت خزانة صغيرة، بعدها تراكمت الكتب في أكوام موزعة في أرجاء الغرفة، ذات نهار سيأخذني والدي إلى محل نجارة في أحد شوارع البتاوين، تحدث أبي مع النجار عن مكتبة خشبية بأرفف، وكنت أنا غارقاً في تخيل شكل المكتبة التي سأصبح من خلالها صاحب مكتبة خاصة.

في طريق العودة قلتُ لوالدي بحماس صبياني: «سيأتي اليوم الذي أملك فيه كتباً أكثر من المكتبة التي أعمل فيها».

تطلّع إليّ وهو يبتسم من سذاجتي: نعَم! سنحول البيت من أجلك إلى مكتبة.

في هذه السنوات لم تكن قراءاتي غير مراقبة من شقيقي الأكبر، أتذكر

عندما قال لي قريبي صاحب المكتبة إن كتاب أصل الأنواع لا ينفع لصبي بعمري، آنذاك كنت أتوجس خيفة من بعض الكتب، ولا أجرؤ على تصفحها أثناء العمل. وكان أمراً غريباً أنني لم أحصل على إجابات بخصوص الكتب التي يجب ألاّ أقترب منها، لكني أتذكر في يوم من الأيام، ذهبت إلى الكشك الواقع مقابل نصب الحرية، وكان يملكه الراحل حسن عذافة، قبل أن ينتقل إلى الجهة المقابلة ويفتتح مكتبة النهضة العربية، كان الكشك أشبه بمغارة علي بابا، كان مليئاً بالنفائس، ولأن صاحب الكشك صديق لعائلتي فقد استغرب عندما أعطيته ثلاث أوراق من فئة ربع الدينار وطلبت منه نسخة من كتاب «أصل الأنواع»، سألني هل أرسلك قاسم؟ يقصد صاحب المكتبة، أشرت بالإيجاب، وكانت كذبة قبضت ثمنها ربع دينار أعاده لي من ثمن الكتاب ظناً منه أن الكتاب سيباع إلى أحد الزبائن. أخذت الكتاب بعد أن وضعه لي في كيس وذهبت مباشرة إلى البيت، وجدت نفسي في حيرة، لأني لا أستطيع أن أقرأ «أصل الأنواع» خارج نطاق الغرفة التي أنام فيها، خوفاً من أن أضبط متلبساً بالجرم الشنيع، قراءة كتاب يدعي صاحبه أنّ الإنسان أصله قرد، وهو جدال لا يزال مستمراً كلما شاهد البعض كتاب أصل الأنواع معروضاً على رفوف المكتبات، بالطبع كنت آنذاك من هذا النوع من القراء، تملكني الفضول لمعرفة أصل الإنسان، ولهذا عندما سنحت لي الفرصة أن أختلي بكتاب داروين، لم أهتم للمقدمة الطويلة التي كتبها المترجم إسماعيل مظهر وكانت بعنوان «المذاهب القديمة في النشوء»، ووجدت فيما كتبه من أن: «مذهب النشوء والارتقاء قديم يرجع تاريخه إلى آلاف من السنين، وقد نرى أثره في الخرافات الدينية التي وضعها حكماء بابل وآشور ومصر، فكانوا يقولون إن أثر الكواكب واشتراك بعضها مع بعض كانا السبب في نشوء الأحياء في الأرض»، لم يكن هذا الكلام يهمني، فأنا أبحث عن إجابة لسؤال: هل صحيح أن الإنسان أصله قرد؟ بعدها وجدت نفسي غريباً وأنا أقرأ المصطلحات العلمية التي امتلأت بها الصفحات الأولى من أصل الأنواع، قلبت المجلد الذي تجاوزت صفحاته الـ «800» صفحة، وأيقنت أن مغامرتي في فهم الكتاب ذهبت أدراج الرياح، لم أدرك حينها أن الكتاب كتب بلغة علمية لكنها سلسة. كانت عيناي تتوقفان على جملة أحاول تفسيرها، أو إحصاءات

علمية. الإعجاب بالكتب المملة أو الصعبة لا يجعل منك قارئاً سيئاً، العكس هو الصحيح، لأن هذه الكتب تشعرك بالتحدي. يكتب ديفيد كوامن: «علينا ألاّ نغفل الحقيقة في أنه ولمئة عام وأكثر، قليل من القراء تمكنوا من هضم كتاب أصل الأنواع» -داروين متردداً- وبالتأكيد كنت واحداً من هؤلاء القراء الذين سيكتشفون بعد سنوات من القراءة أنهم أمام أثر فكري عظيم. فكما أن القراءة الأولى لكتاب داروين كانت محبطة، فإن القارئ سيكتشف فيما بعد أن بإمكانه التعامل مع كتاب لم يحبه في بداية الأمر، وأن الصعوبات التي نواجهها مع بعض الكتب تدعونا لأن نتكبد عناء قراءة الكتاب كاملاً مرة ومرتين. يكتب جورج أورويل الذي عمل في بداية حياته بائعاً للكتب: «كان في متجرنا مخزون لافت على نحو استثنائي، ومع ذلك أشك ما إذا كان عشرة بالمئة من زبائننا قد عرفوا كتاباً جيداً من آخر رديء، وكان المتفاخرون أكثر شيوعاً» -لماذا أكتب، ترجمة علي مدن- بالتأكيد كنت في ذلك الوقت من الذين يتفاخرون باقتنائهم أكبر عدد من الكتب، ومن العشرة بالمئة الذين لا يفرقون بين كتاب رديء وآخر جيد، بدليل أنني شعرت بالندم لكوني خسرت مبلغاً من المال، وعشت لحظات من الخوف من أجل كتاب غامض كتبه رجل يبدو في صورته المنشورة مع الكتاب أقرب إلى رجال الدين.

يكتب سلامة موسى الذي أصبح فيما بعد دليلي إلى عالم السيد تشارلز داروين أن ما قام به صاحب كتاب «أصل الأنواع» يعد من أهم المغامرات الفكرية في تاريخ العالم، فهذا الرجل الذي يبدو في الصورة بملامح إنسان حذر وخجول، برأسه الأصلع ولحيته الكاملة، والذي أوصى بأن يدفن في كنيسة وستمنستر، الرجل صاحب الوجه الذي يبدو خاملاً، يضعه تاريخ العلم بمنزلة واحدة مع كوبرنيكوس الذي نبه البشر إلى حقيقة أننا لا نشغل وضعاً محورياً في الكون. فجاء داروين لينقل علم الفلك إلى البيولوجيا.

كتب داروين ذات يوم في أحد دفاتر ملاحظاته: كثيراً ما يتحدث الناس عن الحدث الرائع لظهور «الإنسان العاقل»، لم ينبهر كثيراً بيزوغ «الإنسان العاقل»، ويبين لنا في رسائله ويومياته أنه منذ بداية تأملاته حول كتاب «أصل الأنواع» كان ينكر المكانة المتميزة التي خصها البشر لأنفسهم، وكان يسعى لوضع الإنسان في معترك الصراع والتغير.

عندما صدر كتاب «أصل الأنواع» للمرة الأولى، لم يكن صاحب دار النشر يتوقع أن هذا الكتاب الذي تبدو على ملامح صاحبه حالة من الشرود، ستباع جميع نسخه، وأن أصحاب المكتبات ظلوا يلحون بأن تُطبع نسخ جديدة، لتتم إعادة طبعه ثلاث مرات في نفس السنة وتصل مبيعاته في السنة الأولى إلى أكثر من عشرة آلاف نسخة، الجميع يقرأ الكتاب أو يتصفحه ثم يسأل نفسه: هل حقاً يريد منا صاحب هذا الكتاب الغريب أن نؤمن أننا جئنا من سلالة القرود؟

كان تشارلز داروين المولود في الثاني عشر من شباط عام 1809، طفلاً بليداً، في السيرة الذاتية التي كتبها بنفسه يقول: «لا بد أنني كنت فتًى ساذجًا للغاية في بداية عهدي بالمدرسة وذهابي إليها» -تشارلز داروين: حياته وخطاباته، ترجمة الزهراء سامي-. توفيت والدته وهو في الثامنة من عمره: «من الغريب أني لا أستطيع أن أتذكر أيَّ شيء عنها سوى الفراش الذي ماتت عليه، وردائها الأسود المخملي، ومنضدة عملها ذات التصميم الغريب».

في المدرسة يشتكى الأساتذة منه لأنه لا يستوعب الدروس، كانت شقيقته الصغرى أكثر نباهة منه، قال له والده ذات يوم: «أنت لا تهتم بشيء غير الكلاب والصيد واقتناص الفئران، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى أسرتك». إلا أن الصبي لم يهتم لكلام الأساتذة ولا لرأي والده، فهو مشغول البال بالحيوانات والنباتات يسجل الملاحظات في دفتر صغير ويكتب في يومياته: «أعتقد أنني متفوق على زملائي في المدرسة من حيث ملاحظة الأشياء التي يخطئها الانتباه بسهولة، ومن حيث ملاحظتها بعناية كبيرة».

أراد الأب أن يصبح أبناؤه أطباء مثله، فأرسل داروين مع شقيقه إلى جامعة أدنبرة لدراسة الطب، وبعد سنتين قرر الأساتذة أنه لا يصلح لهذه المهنة فترك الطب، حاول بعدها دراسة القانون لكن المدرسين وجدوه لا يستوعب الدروس جيداً، وفي النهاية نجح في الحصول على شهادة في اللاهوت من جامعة كمبريدج. كان ينتظر وظيفة قس في أحد الأرياف، عندما جاءه عرض مفاجئ حيث دعُي للسفر على متن السفينة «البيجل» التي تقوم بمهمة المسح القومي في المياه الإقليمية. ولم يكن اختيار داروين مرتبطاً بشغفه في دراسة أحوال النبات والحيوان، لكن قائد السفينة كان يبحث

عن شخص يرافقه في السفر بعد أن تركه مساعد القبطان، كانت مهمة قائد السفينة أن يضع خريطة للمياه الساحلية، لكنه كان مولعاً بالبحث عن تفسير ديني للخلق، وبما أن داروين درس اللاهوت فقد قرر قائد السفينة دعوته لمرافقته. قضى داروين على متن السفينة خمسة أعوام من عام 1831 إلى عام 1836، كانت رحلة البيجل التي وثقها داروين فيما بعد بكتاب -رحلة البيجل، ترجمة مجدي المليجي- أشبه بمغامرة استطاع من خلالها أن يجمع كميات من العيّنات انشغل معها لسنوات، عثر على مجموعة نفيسة من النباتات البحرية، نجا من زلزال في تشيلي، واكتشف أنواعاً من الدلافين، وطوّر نظرية حول تكوين الشُعب المرجانية، وفي سن السابعة والعشرين من عمره عاد إلى بلدته.. الشيء الوحيد الذي لم يفكر به وهو على متن السفينة كان نظرية النشوء والارتقاء.. فقد كانت هذه النظرية قد طُرحت قبل خمسين عاماً، فقد كتبها جده الدكتور أرازموس وهو مهتم بعلوم الطبيعة ويكتب الشعر وله قصيدة بعنوان «معبود الطبيعة» يناقش فيها موضوع التطور لكنها لم تثر اهتمام الحفيد، إلا أن الصدفة تلعب دورها حين يقرأ داروين مقاله لهربرت سبنسر عن التطور، فيقرر أن يرسل له رسالة إعجاب، إلا أن الفيلسوف الشهير أهملها ولم يرد عليها، ثم وقع في يد داروين كتاب توماس مالتوس «مقالة في مبدأ السكن» التي أكد فيها أن الزيادة في الطعام والمؤونة لا يمكن أن تتماشى أبداً مع النمو السكاني لأسباب رياضية، وهو ما أثار انتباه داروين الذي وجد خلال رحلته أن جميع الحيوانات تتنافس على الموارد، وأولئك الذين يمتلكون التفوق الفطري سيزدهرون ويمررون ذلك التفوق إلى سلالتهم، بهذه الوسيلة ستتحسن الأنواع. قال داروين وهو يرمي كتاب مالتوس جانباً: «إنها فكرة بسيطة جداً، كم كنت غبياً لأنني لم أفكر فيها». واقتنع داروين أخيراً بأن الأنواع لم تكن دائماً كما كانت منذ الخلق ولكنها خضعت للتغيّر.

وعلى مدى خمس سنوات، من كانون الأول عام 1831 إلى تشرين الأول من عام 1836، ظل داروين بعيداً عن المنزل حيث كانت السفينة تجوب جميع أنحاء العالم. كان يشعر بدوار البحر، لذلك أمضى معظم وقته على الأرض، وخاصة في أميركا الجنوبية. كان مراقباً ماهراً لجميع أنواع الظواهر

الطبيعية والناس وعاداتهم، والنباتات والحيوانات والأحفوريات. جمع الآلاف من العينات وأرسلها إلى المنزل، وكانت كلها مصنفة بعناية. كان يحتفظ بكراسة يسجل فيها ملاحظاته، نشر محتوياتها بعد عودته إلى بلاده. نال كتابه الأول «رحلة على السفينة البيجل» الذي صدر عام 1893 شعبية واسعة، وما يزال يمثل رواية كلاسيكية عن واحدة من أهم الرحلات العلمية التي تمّ القيام بها على الإطلاق.

أمضى داروين السنوات القليلة التالية في العمل على العديد من الأشياء التي جمعها في بعثته، وألف ثلاثة كتب. كما تزوج من ابنة عمه إيما ويدجوود، وانتقل إلى منزل كبير في ريف كينت. سيتحول فيما بعد إلى متحف، عانى في السنوات الأخيرة من عمره من مرض غامض وكان كثير الشكوى من الأمراض، لكنه كان غزير الإنتاج من الكتب والمقالات. في هذا المنزل تلقى هدية عبارة عن مجلد كبير بعنوان «رأس المال»، مع إهداء من كاتب اسمه «كارل ماركس» يقدم نفسه كأحد المعجبين المخلصين، فيرسل داروين رسالة قصيرة إلى ماركس يشكره فيها على الهديه ويعتذر عن عدم قدرته على قراءة كتب من هذا النوع.

يشرح تشارلز داروين العناصر الرئيسية لنظريته في القسم الأول من كتاب «أصل الأنواع»، حيث نجده يناقش الاعتراضات التي يمكن أن تثور ضد نظريته. أما في الأقسام الأخرى من الكتاب، فإنه يخصصها للحديث عن الجيولوجيا والتوزع الجغرافي للنباتات والحيوانات والحقائق ذات الصلة بعلم الأجنّة.

أما الأساس الذي يبني عليه داروين فرضيته تلك، فيتعلق برصد التغيرات التي طرأت على النباتات والحيوانات الأليفة، لا سيما منها تلك التي يتحكم بها الإنسان. ويقارن داروين ذلك، أي الفروقات في الأنواع الناتجة عن «الانتخاب الصناعي»، بالتغيرات الحاصلة في الطبيعة من دون تدخل الإنسان، أي الناتجة عن «الانتخاب الطبيعي» ليخلص إلى أنه: «حيثما هناك حياة، ثمة تغير وتطور مستمران ناتجان أساساً من الصراع من أجل البقاء، حيث إن الانتخاب الطبيعي يتفحص كل يوم وكل ساعة وفي كل أنحاء العالم، أبسط التغيرات رافضاً السيئ منها ومضيفاً الجيد إليها، عاملاً بصمت

ومن دون إحساس على تحسين كل خلية حية»، -أصل الأنواع، ترجمة مجدي المليجي- وهو يؤكد أننا في الحياة اليومية: «لا نلاحظ أياً من هذه التغيرات البطيئة أثناء عملها، بل ستلاحظ حين تحفرها يد الزمن على مر العصور».

أحتفظ في مكتبتي بأكثر من نسخة من كتاب «أصل الأنواع» آخرها الترجمة المتميزة التي قام بها المترجم القدير مجدي المليجي الذي ترجم أيضاً موسوعة داروين بأجزائها الثلاثة «نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي» وكتاب «التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوانات»، و«سرد أحداث رحلة البيجل»، لكن لا تزال النسخة الأولى التي عانيت وأنا أدخلها إلى غرفة نومي تمثل لي ذكريات جميلة عن مغامراتي مع الكتب، وفي بعض الأحيان أتأمل صورة الرجل الذي غرد خارج السرب، فأدرك أن المعركة حوله وحول كتابه «أصل الأنواع» قائمة. فكثيرون حتى بين من يقولون إنهم يوافقون على نظريته عن التطور وإنهم معجبون بكتابه «أصل الأنواع»، يرفضون الأفكار الجريئة التي كتبها حول «الانتخاب الطبيعي» وينظرون إليها بنوع من الرية، ولهذا فإن النقاش حول داروين ونظريته لم يته حتى هذه اللحظة، ويثبت كل يوم أن صاحب اللحية الكثة البيضاء استطاع أن يغير الطريقة التي ننظر بها إلى العالم وكيف نفهم أنفسنا.

-4-

عزيزي تولستوي.. ماذا فعلت بقارئ مراهق؟

منذ أكثر من أربعين عاماً مضت، كنت أجلس في الفسحة الأمامية لبيتنا الكائن آنذاك في شارع النضال، أحمل بيدي الجزء الأول من رواية «الحرب والسلم» الصادرة عن دار اليقظة السورية، في تلك السنوات كان هناك الكثير من الكتب التي لم أقرأها، ولكن لدي أمل في أن أقضي معها أوقاتاً ممتعة ذات يوم، كنت قد قرأت كتاب «تربية سلامة موسى» وفيه يقدم لنا نصائحه للقراءة التي يجب أن تكون نافعة: «فالمعرفة قوة والجهل عجز، فلنقرأ إذن كي نعرف ونزداد علماً بالأشياء، كي نزداد بذلك إدراكًا للحياة وإحساساً بها». كان سلامة موسى يحرضني وأنا ألتهم كتبه أن تكون لي مكتبتي الخاصة، وأن أعتبر الكتب ضرورة من ضرورات الحياة: «فالكتب هي أثاث الذهن ينقلب فيها ويرتاح إليها ويستفيد منها ويستنير بمعارفها» -تربية سلامة موسى-، وعندما عملت في المكتبة التي يملكها أحد أقاربي لم أتمسك بنصيحته التي قالها لي وهو يشير إلى بعض المجلدات بأن لا أقرأها حتى أنضج، فمثل هذه النصائح لم تكن تهمني، كنت أقرأ في سن مبكرة، لا أعرف كيف يمكن أن يضع أحدٌ شروطاً لما يجب أو لا يجب قراءته، لدي اقتناع بفكرة أنه يجب علي قراءة ما يقع بيدي من كتب، في البيت كانت والدتي تراقب تكدس الكتب في الغرفة التي أتقاسمها مع شقيقي الأصغر، لم تكن تهتم كثيراً بالنقود التي أحصل عليها من عملي وأدفعها فوراً لشراء كتب جديدة، ولكن لديها محرمات أبرزها أن لا تؤثر هذه الكتب على دراستي. بدأتُ قراءاتي الأدبية عن طريق سلسلة «كتابي»

التي كان المرحوم حلمي مراد يقدم من خلالها ملخصات لروائع الأدب العالمي، في الوقت نفسه أطمح إلى الحصول على الروايات بترجماتها الكاملة، اشتريت «جين آير» ومعها «أحدب نوتردام» وحرصت على اقتناء أوليفر تويست وأعمال قصصية لتشيخوف، وأمني النفس بالحصول على الطبعة الكاملة لرواية البؤساء، التي كانت معروضة في المكتبة بمجلداتها الخمسة وبثمنها المخيف في ذلك الوقت ستة دنانير، فقد صرفت بعض الدنانير على شراء الحرب والسلم.

أتصفح الجزء الأول من رواية تولستوي، وأتذكر ما قرأته في كتاب سلامة موسى «هؤلاء علموني» من أن تولستوي هرب من المنزل الذي قضى فيه كل حياته تقريباً. لماذا هرب؟ يقول سلامة موسى لأنه شعر بأن الحياة ضاقت عليه في المنزل. التفتُّ حولي وتخيلت نفسي هارباً من البيت مثل العجوز الذي تجاوز الثمانين عاماً. كان تولستوي قد رحل من ياستايا بوليانا في الرابعة والنصف من فجر يوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول سنة 1910، كان يبلغ آنذاك الثانية والثمانين، استيقظ سكان بطرسبورغ وموسكو على أنباء تقول إن أديبهم العظيم تسلل سراً من منزله باتجاه غير معروف تاركاً لعائلته رسالة يقول فيها إنه يغادر إلى الأبد، بعد يوم ستنشر الصحف الخبر التالي: «رحل ليف تولستوي بالأمس في الخامسة صباحاً، وكان الظلام مسيطراً جاء ليف تولستوي إلى غرفة حوذي العربة وأمره بتجهيز الخيول، وصعدا إلى العربة وتوجها إلى محطة توكينو» -بافل باسينسكي، الهروب من الجنة، ترجمة نزار عيون السود-، بعد أن عرفت زوجته صوفيا أندرييفنا بهروبه قررت الانتحار، وراحت تتحب طوال اليوم، اندفعت لتلقي بنفسها من النافذة وهي تصرخ: «سأعثر عليه، سأركض من المنزل، سأركض إلى المحطة، آه لو أنني أعرف أين هو» -يوميات صوفيا تولستايا، ترجمة عبد الله حبه-

بعد أيام قليلة تتلقى العائلة برقية جاء فيها: «أصيب ليف نيقولايفتش بالمرض بمحطة أستابوفو»، سافر الجميع بالقطار، تتذكر ابنته ألكسندرا في كتابها الحياة مع الأب أنه طلب منها أن تسجل من بعده ما يقول: «لكن كان هذا مستحيلاً، لأنه كان ينطق بكلمات متقطعة، غير مفهومة، وعندما

طلب قراءة ما كتبناه، ضعنا ولم نعد نعرف ماذا نقرأ. وهو كان يرجو ويطلب: اقرأوا، اقرأوا».

أمضيت ساعة أقرأ في الصفحات الأولى من رواية الحرب والسلم، وجدت نفسي غارقاً في دوامة ابتدأت ببرقية أرسلتها آنا بافلوفنا ولم تتوقف عند الأمير بازيل وحديثه عن «الدجال» نابليون الذي تصوره الرواية في صورة الوغد. يكتب تولستوي: «يمثل نابليون للمؤرخين الروس، ويا للعجب مصدراً للحماس والإعجاب. يرونه عظيماً، وهو ذلك الأداة التاريخية المتناهية التفاهة، الذي لم يظهر أي قدر من الكرامة الإنسانية في أي مكان حتى في المنفى».

يقال إن تولستوي كان يكتب صفحات الحرب والسلم ببطء، لكنه كان دقيقاً سريعاً عند كتابته «آنا كارنينا»، وسيخبرني فؤاد التكرلي بعد سنوات أن قراءة الحرب والسلم أتعبته، فهي عمل أشبه بالملحمة، شخصيات تدخل وتخرج وأحداث تتواصل، كان تولستوي يقول عن روايته إنها ليست رواية، وليست قصيدة، وليست سرداً تاريخياً كذلك. تخيل لو أنني قلت هذه الجملة وأنا أنتهي من المجلدات الأربعة للرواية، سأتهم بالجهل. في تلك السنوات كنت أقرأ لكي أعرف مضمون الكتاب، لا يعنيني موقف الكاتب، وعندما أخوض نقاشاً مع بعض الأصدقاء أتكلم عن الروايات التي قرأتها لأنني قادر على شرح حكاياتها، فكل حديثي عن الكتب يخلو من الإحاطة بعناصر الكتاب، فلم أكن مهتماً بعلاقة الرواية بمؤلفها ومحيطها.

في السادس من تموز عام 1863 يكتب تولستوي رسالة إلى أحد أقاربه يخبره فيها بأنه يستعد لكتابة قصة تتعلق بتاريخ روسيا، كانت زوجته صوفيا تشاهده وقد وضع أمامه عشرات الكتب التاريخية: «لم أشعر من قبل قط كما أشعر الآن باستعدادي الذهني والخلقي للعمل والجدارة به. وعندي ما أقوم به قصة تتعلق بالفترة (1810–1820) هذا العمل الذي شغلني منذ بداية الخريف»، كان تولستوي قد تفرغ لأكثر من سنتين لقراءة عشرات الكتب عن تاريخ نابليون، والإسكندر الأول، وقد وجد نفسه مغطى بأكوام الورق والخرائط: «امتلأ ذهني باحتمال القيام بعمل عظيم، كتابة قصة نفسية عن الإسكندر ونابليون، عن كل خسة حاشيتيهما وحماقتهم

وكلامهم الفارغ وخياناتهم»، شغلته كتابة الحرب والسلم خمس سنوات، وأبعدته عن كل عمل آخر، وتتذكر زوجته صوفيا أن تولستوي كان كلما يخرج من غرفته بعد أن يكون قد كتب صفحات من الرواية يقول لها: «إن قليلاً من دم حياتي انصب في المحبرة». عملت زوجته سكرتيرة له منذ بداية كتابة الرواية حتى نهايتها، تتصارع مع المسوّدات التي كان يغيرها بين الحين والآخر، في يومياتها تكتب: «إني أقضي وقتي بأجمعه مستنسخة قصة ليون، وهذا فرح عظيم لي، وكلما أستنسخ شيئاً أعيش في عالم كامل من الأفكار والانطباعات الجديدة». وبعد شهرين تكتب: «ظل ليون يكتب هذا الشتاء بأسره، وكان طوال هذه المدة منشغلاً تطفر الدموع من عينيه، ويغلي قلبه، أعتقد أن قصته هذه ستكون عظيمة».. يطلب من زوجته أن تنسخ رواية الحرب والسلم كاملة بخطها، الذي كان يصفه بالأنيق والناصع.

موضوع الحرب والسلم، هو مصير البشرية التي تتخبط في نشوة الحرب العجيبة وفوضويتها. أما المشاهد التاريخية فيستخدمها تولستوي كسند توضيحي من أجل تعزيز مواقف الشخصيات. إن الحرب والسلم تتناول حياة أسرتين، أسرة روستوف التي أفقرتها الظروف، وآل بولكونسكي الذين يقفون على قمة المجتمع ثراءً، ويقدم لنا تولستوي فكرتين عن الحب، الأولى على لسان أندرو: «من الممكن أن تحب قريبك فهذا هو الحب الإنساني، أما أن تحب عدوك، فهذا هو الحب الإلهي»، أما بيير فإنه مشغول بسؤال آخر: «ما الخير، وما الشر؟ وما ذا ينبغي على المرء أن يحب؟ وماذا ينبغي عليه أن يكره، من أجل أي شيء يعيش المرء».

ليس في الرواية بطل واحد، وإنما هناك أناس مثل كوتوزوف والأمير أندريا وبلاتون كاراتاييف، بل نابوليون نفسه، حيث يستحوذون على القارئ، البعض يثير العطف والبعض الآخر يثير الغضب، فها هو نابليون في الرواية ليس أكثر من «أداة لا معنى لها في يد التاريخ». وفي المقابل هناك الجنرال كوتوزوف الذي أراد أن يرمز به إلى الأرض الروسية، يعرف كيف يصبر ويتكلم ومتى يصمت ومتى يدفع بنابليون أن يهزم نفسه بنفسه. والأمير أندريا المتطلع إلى المجد العسكري، وهناك ناتاشا التي ترمز إلى الحيوية،

ووسط هؤلاء نجد بلاتون، الذي يحمل في أعماقه كل تلك الأفكار الخيرة والعظيمة التي أراد تولستوي أن يبثه بين الناس.

بين فترات الاستراحة يحدث زوجته عن أبطاله كما لو أنهم يعيشون معه في نفس المدينة يكتب في يومياته: «إنني أكتب وأشطب. كل شيء واضح. لكن ضخامة المهمة الملقاة عليّ تبعث على الخوف» -ترجم يوسف نبيل اليوميات وصدرت بستة أجزاء-. كانت قائمة قراءته في ذلك الوقت تتضمن البؤساء لفكتور هيغو التي وصفها بأنها رواية ملحمية عاصفة. ثم كانط وهيغل الذي سخر من إعجابه بنابليون، ثم شوبنهاور الذي فهمه: «لم من أحد كتب قط شيئاً أعمق وأكثر صحة، عن ألم الإنسان بكل رغبته في الحياة»، يكتب في إحدى رسائله إلى تشرتكوف: «أتعرف ماذا كان صيفي؟ حماسة لاهوادة فيها أمام شوبنهاور وسلسلة من الأفراح الفكرية لم أشعر بمثلها قط»، فكر أن يترجم كتاب «العالم إرادة وتمثلاً» إلى الروسية، اشترى لوحة شخصية للفيلسوف الألماني المتشائم وضعها في مكتبه، يعترف أن الأفكار الفلسفية التي تدور في الحرب والسلم تنبعث من أفكار شوبنهاور أعاد قراءة روسو، والاطلاع على ترجمة جديدة من الإنيادة لفيرجل كان حلمه أن يكتب عملاً شبيهاً بالإلياذة: «أشعر بي محلقاً من الفرح لفكرة أنني قادر أن أكتب عملاً عظيماً».

نشر الجزء الأول من الحرب والسلم في خريف عام 1865 في مجلة الرسول الروسي، وكانت الأعداد التي تنشر فصول الرواية تنفد من المكتبات حال وصولها، في المقابل ينزعج دستويفسكي من وصف الرواية بأنها عمل عبقري ومقارنتها بأعمال بوشكين، أما تورجنيف فقال إن في الحرب والسلم عشرات الصفحات المدهشة، وكتب في إحدى رسائله: «تولستوي عملاق بين زملائه في الأدب»، لكنه لم يتحمل فلسفته في الرواية: «عندما يأخذ عصامي من صنف تولستوي بالتفلسف فذلك بؤس حقيقي» -رسالة تورجنيف إلى أنتكوف نشرت ضمن كتاب هنري ترويا تولستوي ترجمة خليل الخوري-

ولد ليف نيكولايفيتش تولستوي في التاسع من أيلول سنة 1828 في ياسنايا بوليانا، لعائلة إقطاعية روسية، تملك المال والمكانة الاجتماعية،

بعد وفاة الأب ينتقل الأبناء للعيش في مدينة قازان، في تلك المدينة سيكمل دراسته، وسيقرر في السادسة عشرة من عمره أن يختار طريق حياته دراسة القانون، لكن الانطباعات الأولى التي تركها في نفوس أساتذته كانت غير مشجعة، فظاهرة اللامبالاة كانت تلازمه، وقد اعترف في يومياته بأنه «كسول جداً»، في تلك الفترة عرف عنه حبه للهو وعدم اهتمامه بالدراسة، وقد كان يقول لرفاقه: «ماذا سنأخذ معنا إلى البيت مما تعلمناه في الجامعة؟ نحن لا نصلح لأي شيء، من سيحتاجنا؟!»، في نهاية السنة الدراسية الثانية يقرر ترك الجامعة فقد وجد نفسه أشبه بـ: «إنسان تائه في مستنقع يسحب أقدامه بجهد كبير». وضع تولستوي برنامجاً واسعاً لحياته حيث دراسة اللغات الإغريقية واللاتينية والإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية إضافة إلى التعمق بدراسة اللغة الروسية، كذلك دراسة التاريخ والجغرافيا والرياضيات والطب والزراعة والرسم والموسيقى وغيرها. وقد حقق الكثير من ذلك البرنامج، يكتب في يومياته: «قراءة من العاشرة إلى الحادية عشرة، ثم تمشية حتى الثانية عشرة، وكتابة من الثانية عشرة للثانية، ثم قراءة حتى الرابعة، وكتابة من الرابعة للسادسة، وقراءة من السابعة»، وفي الوقت الذي كان الأساتذة يعتقدون أن اللهو والمجون يقفان حائلاً أمام دراسته، كان ليف تولستوي يصر على أن الدراسة تعيقه عن السير في الطريق الذي خطه لنفسه. في التاسعة عشرة من عمره يكتب في دفتر يومياته: «اليوم الثالث من إذار عام 1947 من الساعة الثامنة إلى العاشرة صباحاً قراءة فاوست.. من الساعة العاشرة إلى الثانية عشرة ظهراً قراءة جان جاك روسو.. من الساعة الثانية عشرة حتى الرابعة عصراً قراءة معجم القوانين.. من الرابعة إلى السادسة مساء قراءة القانون الروماني.. من السادسة إلى السابعة مساء قراءة القانون المدني، من السابعة حتى الثامنة مراجعة دروس اللغة الإنكليزية». في الثامنة عشرة من عمره كان قد هام حباً وإعجاباً بجان جاك روسو، حيث قرر أن يعكف على دراسة أعماله الكاملة. كان تولستوي قارئاً نهماً، يلتهم كل ما يقع تحت يده من الكتب بغض النظر عن الظروف المحيطة به.

عندما بلغ تولستوي سنّ الرشد قررت عمته أن تمنحه نصيبه في إرث

عائلته، وكان له مطلب واحد أن يكون مسقط رأسه ياسنايا بوليانا من نصيبه، وقد استجاب أخوته لطلبه هذا، في تلك السنوات أخذت تلح عليه فكرة أنه مسؤول عن مصير الفلاحين الذين يعملون في أرضه. وقد كتب في إحدى رسائله إلى عمته: «إنني أحسّ بنفسي القدرة على أن أكون مالكاً صالحاً، ولكي أكون كذلك فلا أحتاج إلى شهادة دكتوراه ولا إلى المناصب التي تمنينها لي».

يلتحق ضابطاً في الجيش القيصري، يشارك في الحرب التي أعلنتها روسيا على تركيا وسيسجل هذه المرحلة من حياته في «قصص من سيباستوبول»، يكتب في دفتر يومياته: «المناصب العسكرية ليست لي، وكلما تخلصت منها بسرعة لأكرس نفسي للأدب بشكل كامل كان ذلك أفضل». العام 1856 يقرر السفر إلى أوروبا وكانت وجهته الأولى فرنسا، هناك حيث يرقد المعلم جان جاك روسو، تدهشه باريس بجمالها ولياليها الصاخبة، ومتاحفها الفنية، وبالحرية التي يتمتع فيها الناس، لكنه سيسخر من عبادة الفرنسيين لنابليون. عام 1857 يعود إلى ياسنايا بوليانا فقد قرر أن يصبح معلماً في القرية. وهذا التحول ناجم عن قناعته بأن: «الهدف الأساسي يكمن في تعليم الشعب. فالأمل الوحيد لطلب المعرفة هو صهر جميع الطبقات في سوح العلم»، وقد اتخذ من مونتاني وروسو قدوة له في عمله: «كم أود أن أتخلى عن وجودي كسيد، لأتحول إلى فلاح، فأشيد في أطراف القرية كوخاً وأتزوج من فلاحة شابة، وأعمل مثلهم: أحرث وأحصد وأقوم بكل شيء آخر».

1862 يعلن زواجه من صوفيا ونراه يكتب في يومياته: «لا أعتقد أن مستقبل حياتي مع زوجة يضارع ما يبدو لي الآن مع صوفيا.. المستقبل السعيد الهادىء الخالي من المخاوف».

يعيش أزمة نفسية، أعلن أنه مستعد أن يتخلى عن شهرته وماله وحياته إذا تطلب الأمر تقديم خدمة لبني البشر، يرتدي ملابس الفلاحين، وسوف يتوقف عن ممارسة الطقوس المسيحية، فقد أخذ ينكر على القساوسة تعصبهم وعلى القيصر طغيانه.. يكتب في إحدى رسائله لصديق: «لعلك غير مصدق، ولكن لك أن تتصور مدى عزلتي أو مدى زراية الناس بشخصي أو هوان أمري عليهم»، كانت مأساة تولستوي أن دعوته لمثل عليا لم تلقَ

استحساناً عند المقربين منه، ولم يجد مفراً سوى الهروب. يعلن عن وفاته في العشرين من تشرين الثاني عام 1910.

انتهيت خلال ثلاثة أسابيع من قراءة الحرب والسلم، واجهت خلالها صفحات عصية على الفهم. كانت الرواية طويلة جداً، بعد سنوات وانشغالي بالعمل سألت نفسي: هل أستطيع قراءة الحرب والسلم من جديد، هل أملك الوقت الذي يتوزع بين العمل في الصحافة والمكتبة وقراءة الكتب الصادرة حديثاً؟ قلت انتظر، كانت سلسلة أعمال تولستوي تصدر عن وزارة الثقافة السورية بترجمة سامي الدروبي الذي قرر أن يقدم تولستوي كاملاً إلى قراء العربية مثلما فعل مع دستويفسكي، وصلت نسخ معدودة من الأعمال الكاملة إلى مكتبات بغداد، كانت الحرب والسلم في جزأين فقط، فقد رحل سامي الدروبي في أوائل عام 1976 وكان قد انتهى من الصفحات الأخيرة من الجزء الثاني، سيكمل ترجمة الأجزاء المتبقية صباح الجهيم. خلال السنوات الفاصلة بين قراءتي الأولى لرواية الحرب والسلام، والقراءة الثانية كنت أجمع ما يصدر من الكتب عن تولستوي وحياته الغريبة وفنه، وقد خرجت بفائدة من هذه الملاحقة للأديب الروسي، لقد منحتني فرصة كي ألملم شتات ذهني عند القراءة الثانية للرواية، فبعد صدمة القراءة الأولى أدركت أن مغامرتي مع هذا النوع من الروايات كانت مجرد نزهة عبثية، وأن نفوري من الحرب والسلم كان نوعاً من أنواع الجهل، فهذه الرواية التي صمدت أمام اختبار الزمن، لا يمكن لها أن تخضع لتقييم قارئ مراهق. اقتربت من قراءة الرواية من جديد وأنا أسعى لسد النقص في معارفي وتقبُّل أنني لم أقرأها في المرة الأولى قراءة جيدة. يكتب ستيفان تسفايج أن قراءة مثل هذه الرواية لا يتم مرة واحدة، لأن قراءتها هو «عمل لمدى العمر» -تولستوي، ترجمة فؤاد أيوب-. عمل نتمرن عليه، إنها «مثل ركوب الدراجة. حيث تكون هناك أوقات يكون فيها ركوب الدراجة بشكل متكرر ويبدو كأنه غريزة ثانية» -فيف غروسموب، دروس مستفادة من الأدب الروسي، ترجمة مأمون الزائدي- إعادة قراءة الحرب والسلم ربما تعلمنا كيف يمكن أن نكون قراء جيدين. يقال إن تولستوي كان قارئاً ممتازاً، لا نعرف كم امتلك من الكتب، لكنه كان يتحدث ويقرأ بأكثر من عشر لغات.

بعد عقود على قراءة الحرب والسلم ماذا تعلمت من هذه الرواية؟ بالتأكيد الكثير، حتى في حالة الملل التي أصابتني، وحتى من مطولاته عن التاريخ والبشر والفكر، حيث تمكن هذا الروائي العبقري أن يهز الكثير من قناعاتي، وأن يعلمني أن الثقافة الحقيقية دواء صحي للشفاء من الغرور البشري، وكشاف ضوء ساطع ضد الاستبداد والدكتاتورية والتسلط.

هل يمكن تلخيص الحرب والسلم؟ يجيب الناقد الشهير هارولد بلوم: «إنها مهمة صعبة، لأننا أمام ملحمة أشبه بالإلياذة، قصة أناس بعينهم، وهي تشبه الإنياذة بأنها حكاية أمة حفظت في كتاب واحد، من لدن رجل واحد لم يكن يعرف أنه كان هوميروس وفرجيل واحداً بعد الآخر. لقد أراد تولستوي أن يضع قصة الحياة الأزلية في مواجهة الفوضى».

-5-

إن كلّ ما يعرفه الإنسان..
يمكن قوله في ثلاث كلمات

كان في الخامسة والعشرين من عمره، يجلس في إحدى زوايا حديقة عامة يجادل أحد الأصدقاء لكنه وقف فجأة وهو يشير بإصبعه ويقول بصوت عال: «هذه شجرة! أعرف حقيقة أن هذه شجرة!». سيتحول المشهد إلى موقف محرج عندما أدرك الرجلان أن المارة قد توقفوا وأخذوا يحدقون بهما. انتبه لودفيغ فتغنشتاين والتفت إلى المارة قائلاً، «لا تقلقوا، لسنا مجانين... نحن فقط نمارس الفلسفة».

حكاية فتغنشتاين الغريبة مع الشجرة تقترب من حكايتي معه، في منتصف السبعينيات يقع بيدي كتاب بعنوان «لدفيج فتجنشتين» تأليف عزمي إسلام، وهو الكتاب رقم «19» في سلسلة نوابغ الفكر الغربي التي كانت تصدر عن دار المعارف المصرية آنذاك. كان الاسم غريباً ومثيراً في نفس الوقت، دفعني الفضول لاقتناء الكتاب، وعندما وصلت إلى البيت كنت متلهفاً لمعرفة أسرار المدعو «فتجنشتين»، في ذلك الوقت أدرجت لنفسي، نظاماً للقراءة كانت كتب الفلسفة جزءاً من هذا النظام، أغوص في تاريخ أصحابها، أتمتع بما يتيسر لي فهمه، وأصارع أحياناً كتباً ملغزة بالمصطلحات، وكنت أجد بعض الأصدقاء لا يقرأون كتب الفلسفة، لأنها مملة حسب تعبيرهم، لا يمكن متابعة قراءتها، وتتعارض لغتها مع متعة القراءة التي يبحثون عنها، في بعض الأحيان أوافقهم الرأي، خصوصاً عندما أجد نفسي مع كتب محيرة مثل هذا الكتاب الذي يخبرني مؤلفه عزمي إسلام أن صاحبنا «فتجنشتين»

من جماعة الفلسفة للفلسفة، وليس للفضوليين من أمثالي، فقد كان يصر على أن عمل الفيلسوف هو أن يكون فيلسوفاً للفيلسوف. كانت هذه الجمل أشبه بالأحجية بالنسبة لي، بعدها يوصيني مؤلف الكتاب أن أكون حذراً وأنا أدخل عالم فتغنشتاين الغريب الأطوار الذي ترك مدينته بعد أن تأثر عميقاً بكتابات تولستوي عن الأخلاق والدين، فقرر السكن في الريف.

كان فتغنشتاين يطرح دائماً سؤال: ما هي الجدوى من دراسة الفلسفة؟، فهو يرى أن الفلسفة تتحول إلى عبء عندما تُمكننا من الحديث: «عن بعض المسائل العويصة».

في خريف العام 1922 يصدر فتغنشتاين كتابه «رسالة منطقية فلسفية»، وقد كان مقتنعاً بأن النتائج التي وصل إليها كانت صادقة، وأن المشكلات الكبرى في الفلسفة قد تم حلها. يكتب في المقدمة: «إن الأفكار التي سيقت هنا يستحيل الشك في صدقها، ولهذا فإنني أعتقد أن كل ما هو أساسي في مشكلات الفلسفة قد تم حله نهائياً» -رسالة منطقية فلسفية، ترجمة عزمي إسلام- كان هذا الكتاب هو تجربتي الثانية مع فتغنشتاين، ولمدة أسبوعين التزمت نظاماً خاصاً، أقرأ صفحات من «رسالة منطقية فلسفية» وأذهب للبحث عن فتغنشتاين في بطون كتب الفلسفة، كنت أقرأ بتمهل وأحياناً بملل حتى أصل إلى نهاية الصفحة، وعندما انتهيت منه اكتشفت أنني لم أفهم الكتاب جيداً، وأنني فشلت تماماً بالاتصال به، ويبدو أن الكتاب كان أعلى من قدرتي على الفهم آنذاك. بعد سنوات أعود إلى كتاب فتغنشتاين وأدرك أنني عندما قرأته للمرة الأولى كنت غير ناضج، وأكتشف في القراءة الثانية أنني سوف استمتع بمغامرات فتغنشتاين الفكرية، وأن تحذير الفيلسوف زكي نجيب محمود في المقدمة التي كتبها للترجمة العربية كان صائباً، حيث كتب: «من لا يجد في نفسه الرغبة الأكيدة المؤرقة المقلقة، في أن يتزود بعلم أوضح وأعمق عن العلاقة بين الفكر من ناحية والأشياء الواقعة من ناحية أخرى، فليس هذا كتاباً موجهاً إليه»، بينما كان فتغنشتاين ينبهني أن كتابه ليس: «كتاباً مدرسياً يريد من خلاله أن يقدم شرحاً لأفكاره، إنه ليحقق الغاية منه، لو أمتع قارئاً واحداً قرأه وفهمه» كان فتغنشتاين بالنسبة لي فيلسوفاً إشكالياً، لكنه مثير للحماس، جعلني أشعر أن القراءة له وعنه

ستكون مغامرة مثيرة، ولا تزال هذه المغامرة تثير حماسي حتى اليوم، كل ما عدت إلى كتبه.

اعتقد فتغنشتاين بعد أن أصدر كتابه «رسالة منطقية للفلسفة» أن المشكلات الكبرى في الفلسفة قد تم حلها، لكنه بعد سنوات وبالتحديد عام 1929 سيكشف عن خطأ بعض تصوراته وأن عليه أن يعيد النظر في موقفه الفلسفي وأن يبدأ من جديد وهذا ما فعله، فقد عاد مرة أخرى إلى كمبريدج ليمارس عمله الفلسفي من جديد، وهذه المرة سيكون مزوداً بسؤال جديد عن الفلسفة واللغة، معلناً أن السنوات التي قضاها في تدريس الأطفال منحته تصوراً جديداً للفلسفة، ولهذا نجده في كتابه «تحقيقات فلسفية» يؤكد أن بعض أفكاره في الرسالة المنطقية كانت أفكاراً خاطئة: «لقد أتيحت لي منذ أربع سنوات مضت أن أعيد قراءة كتابي الأول رسالة منطقية فلسفية لكي أشرح ما فيه من أفكار إلى شخص ما. وقد بدا لي فجأة أنني يجب أن أطبع هذه الأفكار القديمة والأفكار الجديدة معاً، لأن هذه الأفكار الأخيرة لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً إلا إذا تمت المقابلة بينها وبين طريقتي القديمة في التفكير.. فمنذ أن بدأت أعود للاشتغال بالفلسفة مرة ثانية، اضطررت أن أتبين أخطاء جسيمة فيما كتبته في الكتاب الأول» -لدفيج فتجنشتين، تأليف عزمي إسلام-

يعود فتغنشتاين ولكن هذه المرة ليطالب الفلاسفة بنسيان تاريخ الفلسفة والالتفات إلى الأشكال المعقدة لحياتنا من أجل أن يدركوا ما هو الإنسان؟

في تاريخ الفلسفة، ليس هناك من فيلسوف اختلف حوله الناس مثل فتغنشتاين، الذي ظل مجهولاً لسنوات طويلة، ولا يتداول اسمه إلا النخبة من المهتمين بالفلسفة واللغة، وبقدر ما كان عبقرياً في تأسيس فلسفة جديدة بقدر هدمه لنفس الفلسفة التي بدأها، كان فتغنشتاين يتذكر دوماً مقولة نيتشه: «أصل نفسك حرباً لا هوادة فيها ولا تهتم بالخسائر والأرباح، فهذا من شأن الحقيقة لا من شأنك أنت. وإذا أردت الراحة فاعتقد وإن أردت أن تكون من حواريي الحقيقة فاسأل».

ولد لودفيغ فتغنشتاين في فيينا في السادس والعشرين من نيسان

عام 1889، كان الأصغر بين تسعة أبناء لكارل فتغنشتاين أحد كبار رجال الصناعة، يملك مصاهر للحديد، أما أمه التي تنحدر من عائلة فلاحية إقطاعية فقد كانت تعشق الموسيقى، كان بيتهم يضم سبع آلات بيانو، جميع أفراد العائلة يعزفون بمهارة، ومن أجل شقيقه الأكبر سوف يؤلف الموسيقي الشهير موريس رافيل مقطوعته الشهيرة «بوليرو»، وكان الموسيقار براهامز صديقاً حميماً لوالده، وفي بيتهم تلتقي نخبة من الرسامين والموسيقيين والأدباء. ومثل أشقائه تلقى فتغنشتاين تعليمه الأولي في المنزل، ولم يرتد المدرسة إلا في الرابعة عشرة من عمره، لم يكن تلميذاً نبيهاً، لكنه استطاع أن يحصل على الثانوية. كان آنذاك مأخوذاً بالآلات الصناعية، التحق بجامعة برلين التقنية، بعد ذلك بسنتين يسافر إلى مانشستر حيث عمل في مجال صناعة المحركات ومراوح الطائرات، في هذه الفترة يعثر على كتب شوبنهاور، بدأت الرياضيات وعلم المنطق يستهويانه، يعود إلى فينا حيث يقوم بزيارة إلى منزل عالم الرياضيات والمنطق غوتلوب فريغه الذي كان يحاول في عزلته عن العالم فك لغز قوانين المنطق العامة، وقد لاحظ فريغه موهبة فتغنشتاين، فنصحه بالسفر إلى كمبريدج لمواصلة تحصيله الدراسي، وأوصاه أن يتلمذ على أبرز اسمين لامعين في مجال الفلسفة آنذاك وهما وايتهد وبرتراند راسل. لكن راسل اعتقد في بداية الأمر أن هذا المهندس الشاب الذي أرسله فريغه مجرد ثرثار: «بعد المحاضرة جاءني ألماني متهور ليتخاصم معي.. في الواقع النقاش معه ليس إلا مضيعة للوقت» -برتراند راسل، سيرة حياة.. آلان وود، ترجمة رمسيس عوض- بعد أسابيع سيتغير موقف راسل ليعترف بأن فتغنشتاين عبقري معتبراً أفكار هذا التلميذ أفضل من أفكاره هو، بل ذهب أكثر من ذلك حيث طلب من فتغنشتاين أن يراجع كتابه «مبادئ الرياضيات» أملاً في أن يتعلم الكثير من هذا النمساوي الغريب الأطوار الذي يصغره بسبعة عشر عاماً. عندما علم الأب أن ابنه ترك الهندسة واتجه للفلسفة غضب غضباً شديداً، فقد كان يجد في الفلسفة مهنة غير نافعة للعائلة، الأمر الذي زاد من أمراض فتغنشتاين النفسية.

في الجامعة يبدأ بكتابة الصفحات الأولى «من رسالة منطقية فلسفية» في دفتر صغير، كانت غايته من الكتاب هو إيجاد حلّ لمشكلته مع الفلسفة، التي

اصر على أن الجوهري فيه هو علاقة اللغة بحل مسائل الفلسفة والمنطق، فالجمل المجردة من المعنى وحدها تصف وقائع وأحداثاً تجري في العالم، لكن على أي شيء يتركز العالم ذاته، نسيجاً وحضوراً، هذا هو ما يبقى التعبير عنه مستحيلاً: «إذا كان لابدّ من أن أجيب على سؤال: ما الأخضر الذي يطرحه شخص لا يعرف عن الأخضر شيئاً فلا يمكنني إلا أن أقول، هو هذا وأنا أشير إلى شيء أخضر، بإمكاننا أن نشير بالبنان إلى هذا الواقع الخارج عن اللغة وأن نبرهنه لكننا لا نستطيع التعبير عنه» -رسالة منطقية فلسفية ترجمة عزمي إسلام-، يُسمي فتغنشتاين هذا الواقع بالمجازي، والخطأ الأكبر شيوعاً هو إرادة التعبير عن هذا المجازي الذي لا يوصف، لذا يضع مقابل هذا الوهم قاعدة تقول: «ينبغي إخفاء ما لا نستطيع قوله».

اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام 1914 أعطى فتغنشتاين أملاً لتحقيق رغبته في الموت، تطوع في الجيش على الرغم من وضعه الصحي، يكتب في دفتر يومياته: «ذهبت إلى الحرب على أمل أن يحميني الموت في المعارك من فكرة الانتحار»، شارك في الحرب بكل قواه، ونراه يمجدها في قصيدة قصيرة، يكتب إلى أستاذه برتراند راسل، رسالة يسخر فيها من دعواته للسلم، يتم أسره من قبل القوات الإيطالية في تشرين عام 1918، ولم يفرج عنه إلا في آب عام 1919، وفي الأسر اتخذ قراره بالتخلي عن كل عمل جامعي،، بعد إطلاق سراحه يعود إلى أسرته في فيينا، محملاً بأفكار شوبنهاور المحبطة، يتفرغ للانتهاء من كتابه «رسالة منطقية فلسفية»، يحاول نشر مخطوطة كتابه، حيث يبعث بالمخطوطة إلى فريغه الذي يسخبره بأنه لم يفهم ما الذي يقصده بكتابه «رسالة منطقية فلسفية»، بعدها تصله رسالة من برتراند راسل يخبره أنه قرأ المخطوطة، ولم يعر انتباهه سوى موضوع المنطق. شعر فتغنشتاين بالإحباط، وحاول بمساعدة صديقة الشاعر الألماني ريلكه أن يجد ناشراً في فيينا، وبعد عدة محاولات ظهر الكتاب ضمن منشورات مجلة ألمانية وكان مليئاً بالأخطاء المطبعية، مما أصاب فتغنشتاين بالأسى والإحباط، لكن راسل سينقذه عندما يقنع ناشراً بإعادة طبعه حيث صدر الكتاب بنسخة ألمانية وإنكليزية عام 1922. أمضى ست سنوات في وظيفة معلم في إحدى القرى، قطعها عام 1926 بشكل مفاجيء،

ليعود إلى فيينا حيث احتفت به «الجمعية الفلسفية في فيينا»، وكان أعضاء الجمعية ينتظرون حضور فيلسوفهم المحتفى به، فقد كانت «جماعة فيينا» تنادي بتأسيس فلسفة جديدة للمعرفة اسمها «الوضعية المنطقية»، التي تؤكد على اللجوء فقط للوقائع «الوضعية»، والبرهان الصارم «المنطق»، وكان كتاب فتغنشتاين بالنسبة لهم بمنزلة آلة حربية ضد كل الفلسفات التأملية والخطابات الأيديولوجية، والحشو الفلسفي غير الضروري، لكن الفيلسوف سيخيّب أملهم حيث ذهب ليعمل بستانياً في أحد الأديرة قرب فيينا. عام 1929 تقرر جامعة كمبريدج إعادته إليها، هناك استطاع بسهولة أن يؤثر بأساتذته من جديد وقد وصف راسل «رسالة منطقية فلسفية» بأنها عمل شخص عبقري، قام بعدها بتكليف بعض طلبته بترجمتها إلى الإنكليزية لتصدر في كتاب، كتب المقدمة له راسل، شرح فيها فلسفة فتغنشتاين مع تسليط الضوء على المصطلحات التي ضمتها الرسالة. مع حصوله على شهادة الدكتوراه حصل على منحة محاضر، ظل فتغنشتاين في كمبريدج حتى عام 1936 ثم رحل إلى النرويج تفرغ لمدة عام في تأليف كتابه الثاني «بحوث فلسفية» -ترجمه إلى العربية عزمي إسلام، وهناك ترجمة أخرى بعنوان تحقيقات فلسفية، ترجمة عبد الرزاق بنور- يقوم عام 1935 بزيارة إلى الاتحاد السوفيتي، ويقضي هناك مدة قصيرة، ليعود إلى كمبريدج ليخلف الفيلسوف جورج إدوارد مور على كرسي الفلسفة، ولما نشبت الحرب العالمية الثانية شارك فيها، فعمل في أحد المعامل الطبية، استفاد من دراسته للهندسة ليطور آلات مختبرية لقياس ضغط الدم. يعود للتدريس من جديد. عام 1947 يستقر في مزرعة بالريف الإيرلندي حيث عاش في وحدة تامة، وهناك أكمل الجزء الثاني من كتابه تحقيقات فلسفية.

اكتشف عام 1949 إصابته بمرض السرطان، يعود إلى أكسفورد. يُعلن عن وفاته في 29 أيار عام 1951، وكانت آخر عبارة قالها لممرضته: «قولي لهم إنني قد عشت حياة رائعة».

لماذا العودة إلى فيلسوف صعب مثل فتغنشتاين؟ ونحن نريد من الفلسفة أن تحُسن تفكيرنا في الحياة، لأن الفلسفة نفسها لم تتمكن من تجاوزه برغم صعوبة كتاباته التي لا تزال تطبع وتتلقفها الجامعات، فقد ساهمت كتاباته

في ظهور تخصص جديد اصطلح عليه بالفلسفة التحليلية، التي اعتبرت أهم مدرسة فلسفية في النصف الثاني من القرن العشرين. فانطلاقاً مما قاله فتغنشتاين، يتوجب فهم الفلسفة وتحليلها دائماً كمشاكل للتعبير اللغوي، ذلك أن طريقة تعرف الناس على العالم تتاثر دائماً بلغتهم، فاللغة دائماً حمالة أوجه.

إن قصة حياة فتغنشتاين وفلسفته عبارة عن شغف عقلٍ سعى إلى البحث عن مكانة في هذا العالم، وإذ عدنا اليوم للحديث عنه، فبمقدورنا أن نقول الكثير عن الأهمية التاريخية لهذا الفيلسوف المميز.

«يجب عدم الإفصاح عما لا يمكننا قوله»، هذه هي الجملة الشهيرة التي أطلقها فتغنشتاين في كتابه «رسالة منطقية فلسفية»، كانت بمنزلة دعوة إلى الصمت، يجب التوقف عن الثرثرة وعن الحديث عن الفراغ. لكن، ماذا يمكننا قوله؟ التفلسف هو الاستفسار الوحيد عن أسئلة كثيرة: هل الإنسان حر؟، هل للحياة معنى؟، ما هو الخير؟ أسئلة قد تطول وتطول، ولا سيما وصف عدد من الخلافات والمجادلات حول هذه الأسئلة، وبالتالي فإن القضية كلها تكمن في مسألة التعبير عن الرأي، فلكل فيلسوف فلسفته، لكن عندما نصل إلى هذه النتيجة نكتشف أننا لم نحرز أي تقدم، يمكننا اعتبار أن ما يجب فعله هو التفاهم حول الكلمات: ماذا يعني حر، ماذا تعني كلمة معنى؟ ما الذي نعنيه بالجميل؟ هكذا نعود نصغي إلى فتغنشتاين الذي يعلمنا أنه من الضروري أن تتناسب الكلمات التي نستخدمها مع الأشياء.

يوصينا فتغنشتاين أن نقترب من الفلسفة ليس من أجل إيجاد إجابة للأسئلة التي تشغلنا، بل من أجل الأسئلة نفسها، لأن هذه الأسئلة توسع تصورنا لما هو ممكن، وتثري خيالنا الفكري. لقد أنتج فتغنشتاين صرحين فلسفيين بارزين «رسالة منطقية فلسفية» و«تحقيقات فلسفية» كفلا له أن يدخل نادي كبار الفلاسفة، الأمر الذي جعل برتراند راسل يقول عنه إنه أعظم عقلية في القرن العشرين.

-6-

عندما أنقذني آدم سميث من حيرتي

لم أكن قد بلغت الثامنة عشرة من عمري عندما اطلعت للمرة الأولى على كتب تتعلق بالاقتصاد. كانت تجربتي الأولى مع كتاب صدر آنذاك بعنوان «الاقتصاد السياسي» كتبه أوسكار لانكه وترجمه محمد سلمان حسن، كان الكتاب الذي جربت حظي فيه قد صدر الجزء الأول منه على ما أتذكر عن دار الطليعة اللبنانية، في ذلك الحين كنت متعلقاً بسيرة ماركس.. وكنت أتحول إلى طفل حين أعثر على كتاب لصاحب اللحية الكثة، أو أسمع حديثاً عنه، فما بالك بكتاب يتناول الاقتصاد عند ماركس وجماعته. في يوم من الأيام وأنا منهمك بحل ألغاز كتاب «الاقتصاد السياسي» الذي لم أفهم منه سوى جمل بسيطة، دخل إلى المكتبة أستاذي ثامر مهدي وكان يشيع روح المرح في كل مكان يدخله، وما إن شاهدني منهمكاً في القراءة حتى اختطف الكتاب من يدي وهو يقول بعد أن قرأ العنوان: تقرأ لأوسكار لانكه؟.. قلت له إنني أريد أن أجرب قراءة كتب الاقتصاد.. ابتسم وهو يقول لي: هل من المعقول أنك تريد أن تفهم الاقتصاد السياسي وأنت تضع رجلاً على رجل وتتحدث مع الزبائن.. هذه الكتب لا تقرأ إلا في هدوء تام فهي ليست رواية للمتعة، إنها محاضرات في الفكر والاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع... بعد سنوات قليلة تشاء الصدف وأثناء عملي في مجلة الثقافة التي كان يرأس تحريرها المعلم الكبير صلاح خالص، أن ألتقي بالدكتور محمد سلمان حسن.. لم أكن قد تعرفت عليه من قبل، وذات يوم سأجد شخصاً أنيقاً يجلس في مكتب الدكتور صلاح الذي قدمني له، ثم ما إن نطق الدكتور خالص باسم ضيفه

وبدافع الاستعراض الثقافي الذي كان يلازمني آنذاك، قلت له بتردد إنني أقرأ حالياً بكتاب أوسكار لانكه «الاقتصاد السياسي»، فيما الواقع يقول إنني وضعته على الرف إلى جانب كتب ماركس وأنجلز، ابتسم وسألني بكل طيبة: «أين وصلت فيه؟» كان السؤال محرجاً، وأنا الذي لم أقم إلا بقراءة صفحات قليلة منه والاطلاع على الفهرست، انتبه الرجل لحيرتي، ولكي يبعد عني الحرج أضاف أنه كتاب صعب وتخصصي، ثم أخذ يحدثنا أنا والدكتور صلاح عن علاقته بأوسكار لانكه صاحب المؤلفات الشهيرة بالنظرية الاقتصادية الاشتراكية والحاصل على نوبل في الاقتصاد، وكيف ارتبط معه بعلاقة عائلية حتى إن عائلة لانكه طلبت من محمد سلمان حسن أن يكمل الجزء الأخير من موسوعة الاقتصاد السياسي وأخبروه بأنها وصية لانكه قبل أن يرحل.. بعد هذا الحديث عن لانكه وكتابه عدت ثانية لأستعرض معلوماتي فقلت للراحل إنني جربت أن أقرأ رأس المال لكارل ماركس في ترجمة أنطوان حمصي، لكنني عزفت عن المحاولة بعد عشر صفحات يتيمة، وحاولت أن أجد ضالتي في كتاب الفيلسوف البنيوي لوي التوسير «قراءة رأس المال» الذي ترجمه السوري تيسير شيخ الأرض، ولكني فشلت أيضاً فقررت أن أترك ماركس حالياً، ابتسم المرحوم محمد سلمان حسن وهو يستمع إلى شاب يخلط بين الأسماء ويحاول استعراض معلوماته، ثم التفت إلى الدكتور صلاح ليقول له: «تلميذك هذا يريدنا في ساعة واحدة أن نتحدث عن ماركس ولانكه وألتوسير، ثم نهض والتفت إلي وأنا أسير خلفه ليقول: كتاب ألتوسير ممتع لكنه يحاول أن يلوي عنق ماركس ولهذا سأحاول في المرة القادمة أن أجلب لك معي كتاباً يبسط لك الأفكار، لا يعقدها.

كان محمد سلمان حسن الذي يجهل اسمه الآن الكثير من مثقفينا للأسف، قامة كبيرة، رفض ثلاثة عروض لمنصب وزاري قدمته له ثلاث حكومات متتالية، لم يكن سهلاً على طالب عراقي في بداية الخمسينيات من القرن الماضي ينتمي إلى حركة اليسار يقف في وجه الحكومة، يصر ويعاند بالرغم من سحب جواز سفره وفصله من البعثة الدراسية، في أن يكمل تحصيله العلمي لينال دكتوراه في الاقتصاد من أعرق جامعات العالم «أكسفورد» ويصبح بعدها واحداً من أبرز العقول الاقتصادية في

العالم، ولتضعه الظروف مرة أخرى في مواجهة مهمة شاقة، وهي مكان بارز في الطاقم الذي سيهندس السياسة الاقتصادية للجمهورية العراقية الفتية عام 1958.

كان من جيل الحب والعطاء لا جيل القسوة والفظاظة والطمع. كان الكتاب عالمه ودنياه. أي كتاب يمكن العثور عليه، ولم يتقن محمد سلمان العربية فحسب بل الإنكليزية والفرنسية والألمانية أيضاً. وكان يقتصد في شراء أي شيء إلاّ الكتب.. ومضى يدرب نفسه كيف يصبح شيئاً عظيماً.. فكان النجاح حليفه وكانت الوظيفة والمناصب تسعى إليه لا يسعى إليها، يعود إلى الجامعة التي شهدته طالباً فقير الهيئة ليصبح أحد أعمدتها.. ترك عشرات الدراسات والبحوث والمقالات، إضافة إلى ترجماته وكتبه، ومحاضراته في المحافل الوطنية والدولية وكتاباته حول جوانب مختلفة من الاقتصاد العراقي.

سأنتظر الزيارة القادمة للدكتور محمد حسن سلمان على أمل الحصول على الكتاب الذي وعدني به، وقد أوفى الراحل بوعده وأحضر معه كتاباً متوسط الحجم بعنوان «قادة الفكر الاقتصادي» -ترجمة راشد البراوي- وفيه استعراض لأبرز النظريات الاقتصادية في العالم من آدم سميث إلى جون كينز.. وهذا الأخير أعني «كينز» كنت أسمع باسمه للمرة الأولى. ما إن قرأت الصفحات الأولى من الكتاب وكانت عن آدم سميث حتى استهوتني هذه الشخصية العجيبة، التي كانت توصف بأنها صاحبة صوت غليظ أجش. كان آدم سميث فيلسوفاً متوحداً شارد الذهن. وكانت حياته وحدة من الغموض والفوضى الشاملة. الكتب والأوراق مكدسة في كل مكان في مكتبه. ومنذ طفولته كانت لديه عادة الحديث مع نفسه، ويبتسم مُغرقاً في حوارات مع رفقة غير مرئيين، وتكثر القصص الغريبة عن حياته، فمرة يسقط في حفرة دباغة الجلود بينما كان يتحاور مع صديق، وذات صباح وضع الخبز والزبد في إبريق الشاي، ثم تذوّق الشاي بعدها ليقول إنه أسوأ فنجان شاي تذوقه في حياته، ومرّة خرج للمشي بملابس النوم مستغرقاً في أحلام اليقظة مُنتبهاً بعد عدة أميال خارج المدينة، وقد صرح صديقه الفيلسوف التجريبي ديفيد هيوم أنه كان أكثر من عرفهم في حياته شروداً.

قالت مارغريت دوغلاس التي كانت حاملاً لجارتها: «يبدو أن هذا الطفل سيكون شؤماً على العائلة، فقد تُوفي والده في اليوم التالي الذي أخبرته فيه بحملي، وماتت والدتي بعد سماعها خبر الحمل بخمسة أيام، وأخاف أن أموت وأنا أولده، ولهذا سأسعى للتخلص منه»، كان زوجها المحامي ومسؤول الكمارك السابق قد توفي في كانون الثاني عام 1723، ولم تكن المرأة تدرك أن ابنها سيُحدِث ثورة في العالم، وأنه سيصبح أشبه بمعول يهدم كل ما قيل قبله عن الاقتصاد والعدالة الاجتماعية.

ولد آدم سميث في الخامس من حزيران عام 1723،، أصرت أمّه على تسجيل اسمه في سجلات المدينة باسم أبيه «آدم سميث»، لا نعلم إلا القليل عن طفولته، فكتّاب سيرته، يخبروننا بأن آدم سميث كان بطيئاً في الفهم فاضطرّت أمه أن تستشير عمها الكاهن الذي أوصى أن يأخذ دروساً في الكنيسة، ومن الأحداث المهمة التي أثرت على حياته، أنه تعرض للخطف وهو في سن الثالثة على يد مجموعة من الغجر، وبقي عندهم فترة من الزمن حتى تمكن خاله أن يعيده إلى أمه، بعد أن تعلم القراءة في الكنيسة دخل المدرسة ولاحظ المعلمون أنه لا يرغب في الدروس بقدر شغفه بقضاء وقت أطول في المكتبة، دخل جامعة أكسفورد من خلال منحة دراسية، وخلال سنوات الجامعة تمكن من دراسة النصوص الكلاسيكية في الأدب والفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع، لكنه فجأة يترك الجامعة ليتفرغ للكتابة والقراءة وبفضل الصلات التي تربطه بالفيلسوف الإنكليزي فرانسيس هاتشون الذي درس على يديه في الجامعة، استطاع أن يحصل على وظيفة محاضر في الأدب وفلسفة القانون، وقد حظيت محاضراته باهتمام ومهدت الطريق للانتقال إلى حياة مهنية جديدة، ففي عام 1751 عاد إلى الجامعة لإكمال دراسته ليعين بعدها أستاذاً للمنطق وفلسفة الأخلاق والبلاغة في جامعة جلاسكو. وفي تلك الفترة انتشرت أفكاره حول علاقة الاقتصاد بالأخلاق بعد أن نشر كتابه الأول «نظرية المشاعر الأخلاقية» الذي نشره عام 1759، كان حينها في الخامسة والثلاثين من عمره، وقد أراد من خلال كتابه هذا أن يبين لنا أن أفكارنا وأفعالنا الأخلاقية ليست إلا نتاجاً لطبيعتنا باعتبارنا كائنات اجتماعية، وفي الكتاب يحدّد آدم سميث القواعد الأساسية للاهتمام بالنفس

والعدل اللذين يحتاجهما المجتمع للبقاء، ويشرح الأفعال الإضافية الحميدة التي تمكنه من الازدهار حيث يرى أننا جميعاً نهتم بمصالحنا الشخصية، لكن مطلوب منا أيضاً أن نعرف كيفية العيش مع الآخرين دون الإضرار بهم، لأن هذا هو الحد الأدنى الضروري لبقاء المجتمع، وفي قضية العدل يرى سميث أننا إذا أردنا بقاء المجتمع، فلا بد أن تكون هناك قواعد للحيلولة دون إيذاء أفراده بعضهم بعضاً، ويتمثل العدل ضمن مفهوم سميث في الكيفية التي يدافع بها المجتمع عن نفسه ضد أي ضرر، وفي موقفه من الثروة نجد أن آراء سميث ربما تصدم الذين يعتقدون أنه منظر للرأسمالية، فهو يؤكد أن وسائل الراحة المادية التي يمكن شراؤها بالمال ما هي إلا تفاهات، فليس بمقدور الغني أن يتناول من الطعام مقدار ما يتجاوز قدرة الآخرين على الأكل، وربما ينعم العامل في كوخه بنوم أهنأ من نوم الملك في قصره العظيم. فالثروة تعجز عن إنقاذنا من الشعور بالخوف أو الحزن أو الموت، بعدها يحدد سميث طبيعة الإنسان الفاضل، فهو يرى أن هذا الشخص يجسد صفات: الاهتمام بالنفس والعدل وعمل الخير وهناك أيضاً صفة رابعة هي صفة ضبط النفس. بعد سبعة عشر عاماً وبالتحديد عام 1776، يكتب سميث في مؤلفه الضخم ثروة الأمم: «إذا زال العدل، فلا شك أن النسيج العظيم الهائل للمجتمع البشري.. سيتفتت إلى ذرات في لحظة واحدة».

كان آدم سميث أول من صاغ الفهم الجديد للمجتمع المدني بصورة دقيقة، ولعل سعيه إلى دمج النشاط الاقتصادي وعمليات التسوق في فهم تشريح الحياة المتمدنة مَعلم مهم في مسار تطور فكر التنوير، فعمله الذي انصرف إلى ملاحظة انحلال الرأسمالية التجارية واتساع الأسواق، والظهور المبكر للإنتاج الصناعي الضخم، كان قفزة نوعية قياساً إلى أعمال أسلافه ومعاصريه، فكتابه «ثروة الأمم»، وهو أحد النصوص الكلاسيكية للاقتصاد والفلسفة السياسية، قد نشر في العام 1776 ويقع في صلب النظريات الحديثة للمجتمع المدني، إضافة إلى أنه قدّم لنا في هذا الكتاب، نظريته الأساسية في الاقتصاد التي لخصها بنقطتين أساسيتين يؤكد في الأولى أننا لا نعيش في المجتمع بفضل كرم القصاب أو الخباز، أو المزارع حتى وإن كان هؤلاء يوفرون لنا الطعام الذي نعيش من خلاله، بل إننا نعيش بفضل نظرة هؤلاء إلى

مصالحهم الخاصة، تماماً كما أننا نحن بدورنا لا نقدّم الخدمات التي نوفرها مهنتنا للآخرين إلا بالنظر إلى مصالحنا المرتجاة من تلك الخدمات سواء كانت مادية أو غير ذلك». ويقول سميث «نحن عندما نسعى إلى الحصول على خدمات الآخرين من أصحاب المصالح والمهن، كما عندما نقدّم خدماتنا إلى الآخرين، لا نتوجه إلى ما لديهم من حس إنساني، بل لإدراكهم مصالحهم الشخصية. وبالتالي، فإننا حين نسعى للحصول على إنتاجهم، لا نخاطبهم انطلاقاً من رغبتنا في أن يتفهموا حاجاتنا، بل انطلاقاً من توجهه إلى مصالحهم الشخصية». أما التأكيد الثاني فهو ذاك الذي يقول إن الفرد: «في سعيه إلى تحقيق مصالحه الخاصة، غالباً ما يحقق مصالح الجماعة في شكل أكثر فاعلية مما يمكنه أن يفعل حين يعمل باسم المصلحة العامة. وأنا (آدم سميث) لم أصادف في حياتي أي عمل خيري من لدن أولئك الذين لا يكفون عن الإعلان عن أنهم إنما يعلمون من أجل المصلحة العامة».

والحقيقة أن آدم سميث وهو يقدم لنا أفكاره عن الاقتصاد في هذا الكتاب الضخم أراد أن يؤكد مفهوماً واحداً، هو أن العمل هو الأصل وهو الذي يؤدي إلى تراكم الثروات وازدهار الأمم.

لم يكن سميث أكثر صراحة في أي موضع آخر من كتاب «ثروة الأمم» الذي يتعلق في موضوعة عدم المساواة في المساومة بين أصحاب العمل والعمال، وفي معارضته لفكرة المتاجرة القائلة بأن الأجور المنخفضة تجبر العمال على أن يعملوا أكثر، وبذا يزيدون في رخاء إنكلترا، فيبدي ملاحظته على النقطة الأولى قائلاً: «يرغب العمال في الحصول على أكثر ما يمكن، ويرغب السادة في إعطاء أقل ما يمكن.. فوطّد العمال العزم على الاتحاد ليرفعوا أجور العمل واتحد أصحاب العمال ليخفضوها».

بعد ذلك ينتقل سميث من قضايا العمل إلى الدفاع عن إصلاح قضايا الأرض، وهنا أيضاً يرى أن القوانين غير الملائمة تقف في طريق التقدم، فمعظم الأراضي البريطانية في القرن الثامن عشر، كانت خاضعة للوصاية، بوسع مالك الأرض أن يصدر قواعد لتقسيم أرضه ويبيعها، يلتزم بها ورثته لعدة قرون بعد موته، ومن العادات القديمة الأخرى، حق الابن الأكبر في جميع الميراث عن والديه، وهذه عادة إقطاعية تمنع تفتيت الملكيات

الكبيرة، فبهذا القانون يكون الابن الأكبر هو الوارث الوحيد، وقد علق سميث على هذا بقوله: «لاشيء يمكن أن يضر بمصلحة أية أسرة كبيرة، إلا ذلك الحق، الذي فيه يغنى فرد واحد، ويسوق بقية الأولاد إلى فقر يودي بهم إلى مد أيديهم للسؤال»، وعلى هذا، أحث بإلحاح على حرية الاتجار في الأراضي بإلغاء قوانين التوصية، وقانون حق الابن الأكبر في الميراث، وغير هذه من قيود نقلية ملكية الأراضي بالهبة أو بالوصية أو بالبيع.

إن أشهر قسم في كتاب «ثروة الأمم» هو الجزء الذي يتحدث فيه عن أنظمة الاقتصاد السياسي، حيث تناول سميث نظامين مختلفين، نظام التجارة ونظام الزراعة، وشغل موضوع التجارة مكاناً مهماً حيث تناول فيه مبادئ «حرية العمل» التي اقترنت باسمه منذ ذلك الوقت، وقد انتهت المناقشة الخاصة بكل من العمل والأراضي والسلع والنقود والأسعار والزراعة والضرائب إلى نقطة واحدة هي حرية التجارة داخلياً وخارجياً، لن تحصل الأمة على التقدم الكامل والرخاء إلا عن طريق التجارة غير المقيدة، في الداخل وفي الخارج، ناشد سميث الأمم إلغاء الرسوم الجمركية والتحرّر من النظام التجاري، والاحتكارات التجارية للشركات، فكل هذه القيود تعوق النمو الطبيعي للصناعة والتجارة وحرية وصول السلع إلى المستهلكين، كما طالب بترك مبدأ التوازن التجاري، الذي يحبذه التجار: «ليست النقود سوى أداة وليس هناك مقياس يمكننا بواسطته معرفة على أي جانب يقع ما يسمى بالتوازن التجاري بين دولتين أو أي منهما تصدّر بأكبر قيمة.... ليست الثروة في النقود ولا في الذهب ولا في الفضة، وإنما في ما تشتريه النقود ويستحق الشراء فعلاً».

ولهذا يصر آدم سميث على أن تقسيم العمل ضروري بين الأمم كما هو بين الأفراد.

ما الذي ذكرني اليوم بآدم سميث بعد كل هذه السنوات؟ ربما لعبت الصدفة أيضاً دورها مثلما لعبت مع كتاب أوسكار لانكه. في معرض الكتاب الأخير الذي أقيم في بغداد، وأثناء تجوالي في جناح المركز القومي للترجمة وقع نظري على كتاب بعنوان «إنقاذ آدم سميث.. قصة الثورة والتحول والفضيلة»، اختطفت الكتاب من الرف ودون أن أتصفحه دفعت ثمنه،

وكالعادة ما إن وصلت إلى الصحيفة حتى بدأت أقلب صفحات الكتب التي اشتريتها، وكانت المفاجأة أن الكتاب الذي اقتنيته عن آدم سميث، لم يكن كتاباً بالاقتصاد وإنما رواية كتبها جوناثان وايت أستاذ الاقتصاد بجامعة ريتشميد.. تركت الكتاب جانباً وأنا أشعر بالحسرة، فقد كنت أُمني النفس بقراءة جديدة لآدم سميث، فإذا أنا في مواجهة رواية تتجاوز عدد صفحاتها الـ «370» صفحة من القطع الكبير.. ولكي أعوض لهفي على قراءة سيرة آدم سميث بدأت بقراءة كتاب «الثلاثة الكبار في علم الاقتصاد» تأليف مارك سكويسين -ترجمه إلى العربية مجدي عبد الهادي- وفيه يسلط صاحب الكتاب الشهير «قوة الاقتصاد» -ترجمته للعربية شيماء طه الريدي- الضوء على أفكار آدم سميث وكارل ماركس وجون كينز الذي لي معه قصة أخرى حيث حاولت قبل سنوات أن أقرأ كتابه النظرية العامة في الاقتصاد -ترجمه للعربية نهاد رضا- لكنني أجلت القرار بعد أن قرأت التقديم الذي كتبه كينز لكتابه، والذي يقول فيه: «يتوجه هذا الكتاب بالكلام وخاصة إلى زملائنا الاقتصاديين، ونتمنى لو أُتيح فهمه لغيرهم». والعجيب وأنا أقرأ كتاب «الثلاثة الكبارفي علم الاقتصاد» وجدت المؤلف مغرماً بآدم سميث ومنحازاً له، حتى إنه يختتم كتابه بفصل بعنوان «هل انتصر آدم سميث على ماركس وكينز؟».

وبدافع الفضول قررت ان أعود لرواية «إنقاذ آدم سميث» لأقراها، فوجدت المتعة ترافقها المعلومة الدقيقة، فالمؤلف استطاع أن ينقب في كل ما يتعلق بحياة آدم سميث وأعماله، وفي روايته نجد دقة العالم وخيال الأديب، وسأجد في الرواية أن المؤلف يؤكد أن كتاب «ثروة الأمم» ليس هو أهم ما كتبه آدم سميث، وإنما هناك كتبه الفلسفية التي تسلط الضوء الحقيقي على تفكيره. يكتب في المقدمة: «لقد عمل سميث على صياغة نسق فكري ينتهي إلى توحيد العلم الإنساني خصوصاً في مجال الأسواق والأخلاق. هذه الرؤية الأخلاقية الموحدة طالما أهملها الاقتصاديون. ولكنها أصبحت تحظى بأهمية متزايدة في غمار الجدل المحتدم حول العولمة. إن سميث لا يسعده ان تنفصم الثروة عن أسسها الأخلاقية، وهو يقدم تحذيراً قوياً: إن المجتمع الحر والأسواق باتت مهددة بسبب إهمال الأساسيات، وفي

مقدمتها ضمان العدالة وغرس الفضيلة «كان آدم سميث يرى ان السعي المحموم لجمع الثروات مفسدة، مما يسلبنا تلك الأشياء التي تجعل لحياتنا معنى وتضمن سعادتنا الحقيقية والتي تتلخص في وجود ضمير إنساني قائم على إحساس حقيقي بغيرنا من البشر. إن آدم سميث يبشر بنموذج للأعمال أساسه القيم الإنسانية، بحيث يجمع بين أرقى عقل وأرق قلب.. وسنجد ريتشارد بيرنز بطل رواية «إنقاذ آدم سميث»، يخاطب رجال المال والتجارة بالقول: «لديكم الشمع، لكن لا ضوء بلا أوكسجين. لقد نسيتم الجوهر الذي يجعل الأسواق تعمل في المجتمع. إن السوق لا يمكن أن تعمل بمعزل عن الناس. فالناس بالنسبة للأسواق هم تماماً مثل الأوكسجين بالنسبة للشمعة، لا تضيء إلا به. إن حرية الإنسان أهم من حرية الأسواق».

-7-

عندما قررت ذات يوم أن أتناول الغداء على مائدة آل برونتي

لم أكن أتخيل يوماً أنني سأتحدث مع هذا الزبون الأنيق، وأن حواراً سيدور بيني وبينه عن الكتب، كان هذا الزبون كلما يدخل المكتبة ينهض صاحب المكتبة مرحباً، ويدعوه إلى الجلوس، ليأتي له بالكتب والمطبوعات التي صدرت حديثاً، كتب فرنسية أو كتب تراث وبعض المجلات الثقافية، كنت أشعر دائماً بأهمية هذا الزبون الذي يملك وجهاً حضرياً، جميل التقاسيم، الجبين مدور، العينان قويتان بارقتان، أبرز ما في وجهه الابتسامة الخفيفة التي تنم عن تواضع وطيبة، أناقته بسيطة لكنها لافتة للنظر، الدهشة حين ينظر إلى كتاب جديد هي كلمة السر المنتشرة بين ملامح الوجه التي تفشي بأن صاحب هذا الوجه قارئ لا يستهان به. كان الدكتور علي جواد الطاهر من الزبائن الدائمين للمكتبة، ينقطع أحياناً لأكثر من شهر أو شهرين، ثم تجده أمامك بابتسامته المحببة يقلب في الكتب. ذات يوم قال إنه عمل في مكتبة عندما كان طالباً في المتوسطة، وكانت مكتبة المدرسة، يفتحها صباحاً، ويقف يلبي طلبات المستعيرين خلال فرص الاستراحة بين الدروس، ثم أضاف: كنت في تلك المرحلة مغرماً بمجلة الهلال أجمع أعدادها، وأقرأ باستمتاع روايات جرجي زيدان، العجيب أن الصبي عامل المكتبة قال دون تردد: قرأت رواية «فتاة القيروان» لم أستسغها. في تلك السنوات كانت روايات جرجي زيدان تباع بشكل جيد ونادراً ما يمر أسبوع دون أن يسألني أحد الزبائن: هل عندكم روايات جرجي زيدان. يبتسم الدكتور الطاهر:

وماذا يعجبك من الكتب. أجبت وبسرعة كأنني أنتظر هذا السؤال: سلامة موسى وطه حسين.

قال الطاهر: قرأت سلامة موسى عندما كنت في الثالث المتوسط. كان اكتشافاً بالنسبة لي، فتأثرت به كثيراً، ومازلت أرى أن آراءه كانت صائبة، حيث يدعو القراء إلى العلم والمعرفة، وأضاف: أما طه حسين فقد شاهدته عن قرب وسمعته، وهو أقرب الكتاب إلى نفسي، يتذكر الطاهر أنه قرأ في المتوسطة كتاب طه حسين قادة الفكر: «فعجب ولم يعجب، لطه حسين كيف يقرب البعيد، ويدني القصي ويلينُ العصي فينتقل بك بين هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو كأنه ينتقل بك من صديق إلى صديق وأنك لتألف هؤلاء الأصدقاء حتى حين لا تكون مالكاً لعناصر الائتلاف» -علي جواد الطاهر، من كتابه أساتذتي-

أخذت أنتظر زيارة العلامة الطاهر إلى المكتبة لأطرح عليه بعض الأسئلة عن الكتب، وكان الرجل لفرط بساطته يجيب ويحاورني كأني أحد طلبته. ذات يوم سيدخل الدكتور الطاهر ومعه شخص آخر، نادراً ما كان الطاهر يرافق أحداً في زيارته للمكتبة، لكن هذه المرة كان يبدو سعيداً وهو يفسح المجال للضيف الجديد للدخول، وقبل أن ينطق باسمه نهض صاحب المكتبة ليرحب بحرارة بالزائر وهو يقول للطاهر: الدكتور زبون قديم للمكتبة، لكنه تركنا وسافر. كان الضيف طويل القامة جسمه ممتلئ يرتدي نظارة طبية، ملامح وجهه صارمة، رفض الجلوس وقال إنه يريد أن يتجول في المكتبة، بعد دقائق التقط كتاباً من أحد الرفوف وقال للدكتور الطاهر: هل تدري لقد زرت بيت عائلة برونتي وشاهدت الغرفة التي كتبت بها هذه الرواية -كانت الرواية التي بيده جين آير لشارلوت برونتي-. أخذ يقلب بالرواية ويقول للأسف الترجمة غير كاملة، فالرواية في نسختها الإنكليزية بحدود تسعمائة صفحة بالحرف الصغير، ثم أضاف: منير بعلبكي مترجم جيد، يعرف مزاج القارئ ولهذا يبدو أنه حذف بعض المطولات المملة. كان الضيف الجديد الذي أشاهده للمرة الأولى والأخيرة هو الدكتور صفاء خلوصي، صاحب الرأي الجريء والمثير عن أصول شكسبير العربية، قال الدكتور الطاهر إنه قرأ جين آير، لكنها

أتعبته بأجوائها السوداوية والكآبة التي سيطرت على بطلة الرواية والشعور بالأسى والحزن.

منعني الخجل من أن أحشر نفسي في الحوار. أتذكر غلاف رواية جين آير الذي يبرز من أحد الرفوف، فتاة ترتدي معطفاً وقبعة وسط غابة، يبدو في الصورة شاب وحصان، فيما الثلج يملأ المكان، والقمر يبدو ساطعاً. لم أكن قد قرأت رواية جين آير بترجمة منير بعلبكي، لكني تعرفت على ملامح القصة وحياة المؤلفة من خلال سلسلة كتابي.. ومثل أي قارئ مبتدئ كنت متلهفاً لمعرفة نهاية جين آير أقلب الصفحات على عجل بحثاً عن مصائر الشخصيات وهل ستنتهي الرواية نهاية سعيدة أم حزينة وكئيبة مثل صاحبتها التي عرفت أنها عاشت في بيت منعزل لقسيس يخدم الكنيسة. في هذا البيت الذي زاره الراحل صفاء خلوصي قضت شارلوت أيامها وحيدة وتعيسة.

تكتب فرجينيا وولف: «عندما نفتح كتاب جين آير لا نستطيع أن نخفي توقعاتنا في أننا سوف نقابل دنيا عتيقة من صنع خيالها، دنيا لا تتفق والعصر الحديث» -القارئ العادي، ترجمة عقيلة رمضان-

حين توفيت جين أوستن في 18 تموز عام 1817 عن واحد وأربعين. كانت شارلوت برونتي صاحبة الرواية الشهيرة «جين آير» قد بلغت عامها الأول - فيما ولدت إميلي برونتي التي أبدعت «مرتفعات وذيرينغ» بعد عام من ولادة شقيقتها شارلوت، وفي مطبخ البيت كانت أكثر الطقوس أهمية للشقيقات برونتي، هي قراءة أعمال جين أوستن حتى إن شارلوت برونتي كتبت أنها قرأت «كبرياء وهوى» سبع عشر مرة. ومثل والد جين كان والد شارلوت يجلس في غرفته التي يعد فيها مواعظه الدينية التي يلقيها في الكنيسة حيث يعمل كاهناً، يهوى كتابة الشعر ويعيش في غرفته عيشة وصفتها إميل برونتي: «في توحد محموم محتد وعديم القدرة» في أوقات الفراغ يقرأ باستمتاع ما كتبته ابنته شارلوت من صفحات رواية سيطلق عليها اسم «جين آير»، والغريب أن أسرة برونتي عاشت قصص حب لم تكتمل، فقد أحبّت شارلوت أستاذها المتزوج وأخذت تراسله، إلى أن أبلغها بضرورة التوقف عن ملاحقته برسائلها، وقد نشرت «جين آير» عام 1847 وبعدها بعام نشرت شقيقتها إميلي روايتها الوحيدة «مرتفعات وذيرينغ» وبينما كانت شارلوت

تشعر دائماً بأن وضعها كامرأة جعلها في مرتبة أقل، لم تشعر إميلي أن إحباط لكونها امرأة.

سادت صورة «شارلوت برونتي» العانس التي تجلس في زاوية من غرفتها تكتب بقلم رصاص على أوراق ملونة، وكأنها نسخة مكررة من كاتبتها المفضلة «جين أوستن» التي حرّمتها على الكتابة عن الحب الذي لا يجتاز حدود العقل، لتقدم إلى القراء صوراً لمنية عن المشاعر الإنسانية الدفينة، فيما اختارت «إميلي برونتي»، عالماً آخر أكثر ثراء من أي حقيقة اجتماعية، لا يشبه عالم شقيقتها المشغول بالبحث عن الراحة في الخيال، وإنما عالم نسيج فيه مدلوعة بعواطف جامحة، حيث تقودها طبيعتها الخاصة، لأنها آمنت أن حياتها أمر يخصها لوحدها، لا علاقة له برؤى الخيال.

ولدت شارلوت برونتي في 21 نيسان 1816 في غرب إنكلترا، وكانت الابنة الثالثة من بين ستة أطفال لربة البيت ماريا برانويل والقس من أصول إيرلندية باتريك برونتي. في عام 1820، انتقلت العائلة إلى قرية هاوورث، حيث تم تعيين الأب مشرفاً على كنيسة سانت مايكل. في الخامسة من عمرها توفيت والدتها بمرض السرطان، تاركة خمس بنات، ماريا وإليزابيث وشارلوت وإميلي وآن، وابنها برانويل، لتعتني بالعائلة خالتهم إليزابيث برانويل.

في الحوار الوحيد الذي استمعت فيه للراحل الكبير صفاء خلوصي، قدم وصفاً للبيت الذي عاشت فيه عائلة برونتي، كانت غرفة الأب على اليمين حيث اختار لنفسه حياة منعزلة بعد وفاة زوجته، وقبالة غرفة الأب كانت غرفة الأخوات، وفي زاوية من البيت غرفة الأخ برانويل وكان يعشق الرسم، فكان يرسم بورتريهات لشقيقاته، وهناك المطبخ الذي يجتمع فيه الأبناء لتناول الطعام، وإجراء مسابقات أدبية بينهم، وفي المطبخ يتوسط موقد ناري تصفه إميل برونتي في إحدى قصائدها:

«البيت عتيق

الأشجار جرداء

وبدون قمر تنحني القبة المضيئة

ولكن أي شيء عزيز على وجه الأرض
يثير اللهفة والشوق كموقد بيت دافئ؟».

عند قراءتي لجين آير وبعدها مرتفعات وذيرينغ مرة ثانية، كنت في ذلك الوقت أحمل الكتب معي في كل مكان، على السرير، أثناء تناول الطعام، أوقات الاستراحة في المكتبة، وأحياناً أخبئ رواية بين كتبي المدرسية، ومع كل رواية كنت أتخيل كيف كان مؤلفها يعيش، سرحت مرة مع أجواء بيت القس برونتي والسكون الذي يحيط به، والمطبخ الذي تجتمع فيه الأخوات حول مائدة الطعام، وكنت أسأل نفسي ترى بماذا كن يتحدثن، وأي الكتب كانت تستهويهن؟

في آب 1824، دخلت شارلوت ومعها شقيقاتها إميلي وماريا وإليزابيث إلى مدرسة بنات رجال الدين، وستخبرنا شارلوت برونتي أن الظروف السيئة في المدرسة أثرت بشكل دائم على صحتها ونموها البدني، وسرعت بوفاة شقيقتها ماريا التي توفيت بمرض السل لتلحقها بعدها بأشهر شقيقتها إليزابيت بنفس المرض، مما اضطر الأب أن يمنع بناته من إكمال دراستهن.

في البيت قامت شارلوت بدور الأم والشقيقة الكبرى لأخواتها، في الثالثة عشرة من عمرها كتبت أول قصيدة لها، وقد شجعها والدها فأنجزت خلال أعوام كتابة أكثر من 200 قصيدة، كانت تبعث بها إلى المجلة التي تصدر في مدينتهم الريفية وبعد عدة محاولات قرأت اسمها مطبوعاً على إحدى الصفحات، وجدت شارلوت في حياتها الرتيبة ملاذاً خاصاً، حيث يمكنها أن تتصرف وفقاً لرغباتها وهوياتها المتعددة، إلا أن هذه الحياة الرتيبة جعلتها تعيش في صراع نفسي داخلي بين ولائها للدين الذي لا يبيح الشهوة الجنسية ويطالب بكبتها، وبين ولعها بالحب. وقد دفعها هذا الصراع أن تقرر كتابة قصص تشرح فيها حالتها، لكنها كانت تحتفظ بها في خزانتها الخاصة خوفاً من اطلاع والدها القس على خيالات ابنته وأحلامها الرومانسية، الأمر نفسه كانت تقوم به إميلي إلا أن خيالاتها كانت أكثر جرأة. بعد أعوام قليلة ستقدم شارلوت لوالدها دفتراً ضخماً يحتوي على رواية بعنوان «الأستاذ».

وفي هذه الرواية تسلط الضوء على موضوع طالما شغلها، وهو علاقة الطالبة بأستاذها، وهو يمثل انعكاساً لبعض جوانب حياتها، فقد أحبت شارلوت برونتي معلماً بلجيكياً درست عنده اللغات. كان المسيو إيجيه متزوجاً وله أولاد، لاحظ موهبتها في الكتابة وشجعها، ففسّرت اهتمامه على أنه نوع من أنواع العشق. كتبت له العديد من الرسائل وفي واحدة منها ترجوه ألا يغضب منها وتخبره بأن قلبها الممتلئ بالحب هو الذي يدفعها للكتابة، لكن الأستاذ، طلب منها أن تتوقف عن مراسلته.

قرر الأب أن يبعث برواية ابنته «الأستاذ» إلى إحدى دور النشر، لكن جميع دور النشر رفضت طباعتها، ولم تطبع إلا بعد وفاة شارلوت برونتي بعامين.

عام 1846 نشرت الأخوات شارلوت وإميلي وآن مجموعة مشتركة من القصائد تحت الأسماء المستعارة «كورير بل -إليس بل- آكتون بل» كتبت شارلوت حول استخدام الأسماء المستعارة ما يلي: «تجنباً للدعاية الشخصية، أخفينا أسماءنا الأصلية خلف الأسماء المستعارة: كورير بل -إليس بل- آكتون بل. اخترنا هذه الأسماء الغامضة رغبة منا في استخدام أسماء ذكورية حيث لم نكن نود أن نكشف عن هويتنا كنساء، لأنه في ذلك الوقت كان سيتم التعامل مع طريقة كتاباتنا وتفكيرنا على أنها (أنثوية)، كان لدينا انطباع قوي أن مؤلفاتنا سيُنظر إليها باستعلاء، حيث لاحظنا كيف يستخدم النقاد في بعض الأحيان أسلوب المهاجمة الشخصية كوسيلة عقاب وأسلوب الغزل كمكافأة، وبالتالي لا يُعتبر ذلك إشادة حقيقية لأعمالنا». -الروارنولد كيتل، مدخل إلى الرواية الإنكليزية، ترجمة هاني الراهب-

عام 1947 توافق دار النشر التي رفضت رواية «الأستاذ» على نشر رواية «جين آير» ولم تصدق أن القراء والنقاد سيهتمون بها وستوضع روايتها ضمن قائمة الكتاب الأكثر مبيعاً، وعندما قرأت ما كتبته إحدى الصحف من أن جين آير «رواية من صميم روح شهدت الكثير من الكفاح والمعاناة والتحمل»، أغمي عليها وظلت لأسابيع تعتقد أن الأمر مجرد خيال يدور في رأسها.

عندما قرأت لأول مرة رواية «جين آير» بأجزائها الثلاثة الصغيرة،

وجدتها رواية مملة، فيها امرأة مجنونة وأخرى تعشق صاحب البيت، ومشاهد الحريق، وعندما عدت إليها بعد أكثر من ١٥ سنوات، في ترجمة منير بعلبكي، اكتشفت أنها رواية طويلة، لكن صاحبتها تتقن سرد حكاية إنسانة متمردة عنيدة تقترب من سيرة شارلوت برونتي نفسها، فالفتاة جين تسرد لنا أحداث حياتها منذ طفولتها حين نشأت في مدرسة تتبع الكنيسة، وتلتزم المدرسة بمبدأ إذلال الجسد للقضاء على أية شهوات قد تراود الفتيات. فالفصول الأولى من الرواية توضح لنا خلفية جين التربوية وتأثيرها على تكوين شخصيتها التي سوف تنضج فيما بعد. وتعكس براعة شارلوت برونتي في تصوير الظروف المحيطة بالشخصية وما يسود عالمها من تجاذب بين الحرية والكبت. كانت «جين آير» الطفلة التي مات والداها بمرض التيفوئيد وعمرها سنة واحدة، وتولى خالها السيد ريد رعايتها، تعاني من قسوة زوجة الخال التي تعاملها كالخادمة، تلوذ الفتاة بزاوية هادئة لتعيش مع عالم آخر من خلال الكتب التي تقرأها، تعلقت برحلات جالفر، عندما تدخل المدرسة ستجدها أسوأ من المنزل الذي غادرته. المعلمات قاسيات ومعقدات مثل زوجة خالها، الطعام رديء، الغرف باردة جداً، اللباس رث والأحذية خشنة. تكمل دراستها وتصبح معلمة. وفي وظيفتها الجديدة تتعرف على روشيستر المتزوج من امرأة مصابة بالهستريا، تقع في حبه لكنها ترفض الزواج منه في اللحظة الأخيرة، تترك بيت روشيستر وترتبط بعلاقة مع صديق قديم تتفق معه على الزواج، لكنها ستهرب أيضاً لتعود إلى منزل روشيستر وقد تحول إلى أطلال بعد نشوب الحريق فيه وموت زوجته وإصابة روشيستر بالعمى فتقرر الزواج منه.

بعد أن أعدت قراءة جين آير، أردت أن أعرف من هي هذه الكاتبة التي خلقت هذا العالم المليء بالأسى والإحباط، يصف المقربون من شارلوت برونتي أنها كانت امرأة نحيفة صاحبة وجه محمر وفم كبير، وشرود دائم. كانت خجولة، لديها ولع خاص بالمقبرة الموجودة مقابل منزلها. تكتب في يومياتها: «هل سأقضي أفضل جزء من حياتي في هذه العبودية البائسة؟ أجلس يوماً بعد يوم مقيدة بالسلاسل إلى هذا الكرسي المسجون داخل هذه الجدران العارية الأربعة، بينما شمس الصيف المجيدة تحترق في السماء

والسنة تدور في أغنى وهجها وأعلن في نهاية كل يوم صيفي أن الوقت الذي أفقده لن يأتي مرة أخرى!».

في المقابل ظلت رواية إميلي برونتي «مرتفعات وذيرينغ» التي صدرت عام 1848 توصف بأنها نتاج غريب، وفي المقدمة التي كتبتها شارلوت لرواية شقيقتها قالت إنها رواية: «الفتاة ريفية لم تخرج خارج بيئتها الضيقة». إنها قصة حب غامض أو كما تقول فرجينيا وولف إن مرتفعات وذيرينغ فيها «حب لكنه ليس بحب رجال ونساء»، لقد قررت إميلي التي توفيت في الثلاثين من عمرها بعد أن أصيبت بمرض السل مثل شقيقاتها أن تعلن حربها على الحب الزائف. كانت تتمتع بشيء قليل من الجمال، طويلة بقوام نحيف، لم يكن لها الصبر لسماع المواعظ التي يلقيها الأب كل مساء، كانت خجولة تخاف السير بمفردها، وصفها أهل القرية التي عاشت فيها بأنها أشبه بالصبي منها إلى الفتاة، وقد قيل عنها إنها لم تكن تجد الراحة مع البشر وتفضل الاهتمام بالحيوانات. كتبت شارلوت تصف أختها إميلي بأنها: «لم تكن تنشد التعاطف أو العون، وكانت ترفض أن يقوم أحد بأية خدمة لها» -سومرست موم، عشر روايات خالدة، ترجمة سيد جاد-. فتاة عنيدة، تقوم في البيت بأشق الأعمال، تعشق الطهي، وكانت تلاحظ دائماً والكتاب في يدها حتى، وأحياناً كانت تمسك ورقة تسجل فيها بعض الملاحظات، لم يكن أحد في البيت يتخيل أن هذه الفتاة ستصبح روائية، وعندما انتهت من روايتها «مرتفعات وذيرينغ» لم يدر ببال شقيقتها شارلوت أن أختها قد كتبت هذه الرواية المدهشة، وعندما نشرت الرواية بعد وفاة إميلي بأشهر قليلة كتبت شارلوت مقدمة قالت فيها: «إميلي لا تسمح للقارئ بلحظة سعادة خالصة، فكل شعاع من الشمس إنما ينفذ من خلال كتل سوداء من السحب التي تنذر بالمطر، وكل صفحة مشحونة بكهرباء أخلاقية». يكتب سومرست موم أن إميلي برونتي أفصحت في روايتها عن أعمق أعماق غرائزها: «لقد هبطت إلى أعماق بئر الوحدة التي تعيش فيها» -عشر روايات خالدة-

عندما توفيت شارلوت برونتي في 21 نيسان عام 1855 بسبب مضاعفات الحمل، كانت قد وصلت تقريباً إلى عيد ميلادها التاسع والثلاثين. ولعل قراءة حياة شارلوت برونتي تعني كشف حقائق رواياتها. فقد استطاعت أن

تدمج حياتها في نسيج قصصها. كانت امرأة قوية، لم تستطع الأحزان أن تسحقها، لم تفسح المجال للحظة يأس واحدة أن توقف مسيرتها، تقول فيرجينيا وولف في مقال نشرته في كتابها القارئ العادي -ترجمة عقيلة رمضان-: «إن شارلوت رقيقة جداً وذكية التفكير». وتضيف: نحن نقرأ شارلوت برونتي لشخصيتها الرقيقة، التي لها ملاحظات جميلة، تعبر عن شخصيتها، التي تحمل أفكاراً فلسفية. وتقدم لنا وولف شرحاً لرواية جين آير حيث تصفها بأنها: «مكتوبة عبر مشاعرها وأخطائها أيضاً. فهذه الرواية توصيف عن النمو الثقافي، كتبتها روائية ذكية، وهي تدفعنا إلى أن ننتهي من قراءة الكتاب دون أن تعطينا فرصة للتفكير أو التردد، ولا تسمح لنا بأن نرفع أعيننا عن صفحاته.. نستغرق في القراءة لدرجة أنه إذا تحرك أحد في الغرفة، فإن هذه الحركة تبدو كأنها ليست في غرفتنا وإنما في منزل جين. إن الكاتبة تمسك زمامنا بيديها وتدفعنا إلى السير في طريقها لا نرى إلا ما تراه هي. ولا تتركنا لحظة ولا تسمح لنا بأن ننساها».. وعندما توفيت إميلي برونتي في التاسع عشر من كانون الأول عام 1848 كان مخطوط روايتها «مرتفعات وذيرينغ» يرقد إلى جانب سرير شقيقتها شارلوت. كانت قد انتهت من روايتها التي تصفها فرجينيا وولف بأنها أصعب من رواية جين آير.

لا أعتقد أن الذاكرة ستخونني عندما أقول إنني قضيت أوقاتاً ممتعة لكنها مشحونة بالتوتر مع جين آير، وشعرت بالأسى وأنا أنتهي من مرتفعات وذيرينغ، ولم أشعر أن الأختين كتبتا روايات من الخيال، بل وجدت نفسي أتجول داخل بيت آل بونتي، كنت مغموراً في عالمهم الصغير، مستغرقاً ذاتياً للغاية لأرى أنني كنت وحيداً مثل جين، في الوقت نفسه تمنيت أن أعيش وسط البلاد التي تصفها إميلي برونتي في مقدمة روايتها مرتفعات وذيرينغ: «إن هذه البلاد جميلة حقاً، ولا أعتقد أن باستطاعتي أن أجد مكاناً في جميع إنجلترا يشبه هذا المكان بخلوه كلياً من ضجيج الحياة الاجتماعية».

أقنعت نفسي بأن قدري أن أتماهى مع شخصيات الأختين برونتي، لقد انشغلت كثيراً بصراعي الداخلي بأن أبدو مثل أبطال الروايات التي أقرأها، وما عدت أعرف من أنا. كُنت عالقاً في الخيال.

-8-

قل لي بماذا تحلم أقل لك من أنت

انشغلتُ بفرويد مثل أي مراهق، يقرأ عناوين كتب من عينة «ثلاث مقالات في الجنس» و«حياتي والتحليل النفسي» و«خمس محاضرات في التحليل النفسي» و«ما فوق مبدأ اللذة»، كانت هذه الكتب تلقى رواجاً عند زبائن المكتبة، سرعان ما تنفد نسخها باستثناء كتاب «تفسير الأحلام» فكان حجمه الكبير بعدد صفحاته التي اقتربت من «700»، يجعل الزبون يفكر كثيراً قبل أن يجازف ويشتريه.

ذات مرة سمعت من الفيلسوف مدني صالح أن بعض الكتب لا تقرأ، بل تُلتهم، وكنت حينها ما إن أنتهي من كتاب سرعان ما أبحث عن غيره. وعندما انتهيت من قراءة سيرة فرويد التي كتبها بنفسه «حياتي والتحليل النفسي» - ترجمة مصطفى زيور، وكان كتاباً صغير الحجم لم تتجاوز صفحاته المئة صفحة، قررت أن أقتحم عالمه فاخترت كتابه «تفسير الأحلام» المركون على أحد الرفوف، في ذلك الوقت كنت مهووساً بكتب سلامة موسى وحكاياته عن الشخصيات المؤثرة والكتب التي غيرت حياته، وكانت معرفتي برجل اسمه سيغموند فرويد من خلال كتاب سلامة موسى «العقل الباطن» حيث يصفه بأنه: «المعلم الأول، وسائر الباحثين تلاميذه المعلقين على نظريته أو المنقحين لها». بعد قراءة عدة صفحات من الكتاب توقفت، وضعت «تفسير الأحلام» جانباً وأنا أفكر بملهمي سلامة موسى وكأنه يقول لي: عليك أن تستمر. أتذكر أنني عندما التقيت بعد سنوات بالدكتور علي كمال وكان قد أصدر حينها كتابه الممتع «باب النوم وباب الأحلام»، سألته

عن كتاب فرويد «تفسير الأحلام» وهل يوافقه الرأي في بعض ما طرحه؟ قال لي إن فرويد لا يزال يثير الجدل. وعندما شكوت من صعوبة الكتاب قدم لي نصيحة خلاصتها: «لا يمكن لأحد أن يفسر لك كتاباً ما. ستفهم الكتاب عندما تتعثر بين صفحاته».

رحلة تعثري بين صفحات كتب فرويد ابتدأت عندما رميت كتاب «تفسير الأحلام» جانباً ورحت أبحث عن كتب تساعدني على العودة إليه. في ذلك الوقت وقع في يدي كتاب صغير الحجم من سلسلة كتاب الهلال بعنوان «تفسير الأحلام» وهو تبسيط وتلخيص لكتاب فرويد قام به نظمي لوقا، وفيه يخبرنا أن كتاب فرويد هذا: «علمي في مادته وأسلوبه ومنهجه لا يقدر على هضمه إلا أهل الصناعة المتخصصون» هل يعني هذا أن تجربة قراءة «تفسير الأحلام» تجربة مزعجة، على العكس من ذلك أن فرويد كان كاتباً جيداً يحتاج إلى قارئ جيد، قارئ لا يحكم على الكتاب حكماً مسبقاً. يوصينا فلاديمير ناباكوف أن نتفحص عالم الكتاب بشكل جيد، وأن نصل إليه وكأنه خلق للتو. كان جبرا إبراهيم جبرا يقول إن الكاتب العظيم ساحر عظيم. وكان فرويد ساحراً من نوع خاص أراد أن يكشف للإنسان حقيقته أمام نفسه وأظهر دوماً السبل التي تقود الإنسان إلى معرفة ذاته «السبيل الخطرة المؤدية إلى أعماق أناه» – ستيفان زفايغ، فرويد، العلاج بالروح، ترجمة ألفة يوسف.

العام 1900 يفاجئ سيجموند فرويد العالم بكتاب غريب ومثير، حيث تصدر الطبعة الأولى من كتابه الضخم «تفسير الأحلام» -ترجمة مصطفى صفوان-، وكان قبلها قد أصدر كتيباً صغيراً أسماه «الحلم وتأويله» -ترجمة جورج طرابيشي- لم يثر الكتاب الاهتمام، حتى إنه قال لزوجته «يبدو أن البعض لا يزال يعتقد أن الكتابة عن الأحلام أشبه بالكتابة عن الخرافات». ولم يكن القراء وحدهم من أدار ظهرهم للكتاب، فقد استقبل من معاصريه استقبالاً فاتراً، وها هو أستاذه ليبمان يكتب عنه قائلاً: «لقد انتصرت في هذا الكتاب الأفكار الخيالية للفنان على البحث العلمي»، فيرد على أستاذه محاولاً أن يقدم تفسيراً علمياً لنظريته فيلخصها بالقول: «جميعنا يرى البيوت بواجهاتها الخارجية المختلفة، إنها تشبة الكائنات البشرية، ومحاولة الغوص

في أعماق أحلامها هي التي تمكننا من معرفة أسرار هذه النفس، كما يخترق المرء البنايات لاكتشاف دواخلها». لم يبع الكتاب خلال السنوات الست الأولى على صدوره أكثر من «300» نسخة، وقد عمد فرويد إلى تطويره، حيث شهد عدة طبعات، أضاف خلالها موضوعات جديدة وعمق فصولاً معينة، ويخبرنا مصطفى صفوان في المقدمة التي كتبها للترجمة العربية أن كتاب تفسير الأحلام كان أحد الكتب القليلة التي ظل فرويد يعنى بتعديلها زمناً طويلاً، يحذف حيناً ويضيف أحياناً أخرى.

لعل الاهتمام بالأحلام قديم قِدم الاهتمام بعلم النفس، ونجد في كتاب أرسطو الشهير «رسالة في النفس» تفسيراً للأحلام بأنها ليست رسائل ترد علينا من الآلهة وأنها لا تكشف لنا شيئاً من المصادر الخارقة للطبيعة. ويقر أرسطو أن الأحلام هي لون من النشاط الإنساني النفسي يصدر عن النائم بحسب الظروف التي يكون عليها نومه، وقد لاقت نظرية أرسطو ترحيباً من الفلاسفة في العصر الحديث، وأطلق الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون على الأحلام اسم «الحافز الحسي» حين ألقى عام 1901 محاضرة في موضوع الأحلام قال فيها: إن الحواس لا تتعطل عن أداء وظيفتها أثناء النوم، وكل أثر يقع عليها يؤدي بالنائم إلى رؤية حلم مستمد منه، فإذا كانت قدماه مثلاً غير مستقرتين على نقطة ارتكاز، رأى كأنه طائر في الفضاء، وإذا أضيئت أمام عينيه شمعة تحول الضوء في حلمه إلى حريق، وإذا انطلقت حوله أصوات شجار، حلم كأنه يرى ثورة ومظاهرات وصداماً مع الآخرين». -الطاقة الروحية، ترجمة سامي الدروبي-

ما هي إذن نظرية فرويد التي أراد أن يشرحها في كتاب تفسير الأحلام؟ إنها دراسة في الرغبات المدفونة في النفس منذ أيام الطفولة، ومحاولة لتلبية الرغبات التي حرمنا منها بحكم الأخلاق والدين وتقاليد المجتمع وتحقيق لما لا يمكننا تحقيقه في الواقع، وما لا يليق أن نفكر فيه في يقظتنا ونحن بكامل وعينا. بل إن الأحلام بمجموعها هي تحقيق لرغبات عليا، فبدلاً من أن نتيقظ لأننا نشعر بالعطش، نحلم بأننا نشرب ونشرب من الماء، الحلم إذن هو قضاء رغبة، وهي ليست أية رغبة، إنها رغبات الطفولة، وغالباً ما تكون رغبات جنسية مخجلة. كان هدف فرويد من كتابه أن يدرس الأحلام

من ناحية علمية، علاقتها بالإنسان، وبما يحدث له في حياته اليومية، ولهذا يعد الكتاب أول دراسة علمية لدراسة الحلم بصفته فعلاً نفسياً، مرتبطاً بحياة الإنسان الواعية، وتأكيداً على أن النوم ليس سوى استمرار لحياة اليقظة.

اعتبر فرويد نفسه بمنزلة واحد من أولئك الذين «أقضوا مضجع العالم» -بول روزن، فرويد وأتباعه، ترجمة يوسف الصمعان- وتُعبر الجملة التي اقتبسها من إنياذة فيرجل والتي وضعها كشعار للكتاب: «لئن لم أثن السماوات حركت الآخرين» عن فخر فرويد بثورته التي حققها من خلال كتابه «تفسير الأحلام». ويرى فرويد نفسه بمنزلة كولوموس العقل.

وسواء قبلنا نظرية فرويد في الأحلام أو لم نقبلها، فقد كان لها تأثير منقطع النظير على الفكر الحديث، لقد صاغ فرويد أفكاراً ومصطلحات في محيط المناطق المجهولة من العقل، صارت جزءاً من حياتنا اليومية، واليوم نحس بآثار تعاليمه في كل مجال من المعارف من الأدب والفن والدين وعلم الأجناس البشرية إلى التعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الإجرام والتاريخ.

رأى فرويد أن الأفكار العلمية تُغير طريقة تفكيرنا بشأن العالم، فقد أزاح كوبرنيكوس عام 1543، من خلال نظرية مركزية الشمس، البشر من المركز المادي للكون ووضع داروين عام 1859 من خلال نظرية النشوء والارتقاء، البشر في وضعهم الطبيعي بين الكائنات، ويرى فرويد أن كوبرنيكوس وداروين سددا ضربات قاسية للصورة التي ظل البشر يفخرون بها بوصفهم سادة الكون. ورأى فرويد عام 1900 وهو ينشر كتابه تفسير الأحلام أن عليه أن يكمل دائرة تصحيح هذه الصورة من خلال تدمير الاعتقاد بأن البشر مسيطرون على أنفسهم.

لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره، حين قرر التمرد على الواقع الذي يعيشه، في تلك السنوات وجد ضالته في رواية سيرفانتس «دون كيشوت»، ومن أجل هذه الرواية قرر أن يتعلم الأسبانية، كان سيرفانتس يمثل وجهاً من أوجه التمرد حيث أراد تهشيم المجتمع القديم. في رسالة يبعثها إلى صديقه المقرب «إدوارد سيلبرستين» يصف سيجموند فرويد

نفسه بأنه مراقب جيد لأحوال أفراد عائلته، حيث استطاع مراقبة كثير من طبائعهم. يعثر على كتاب شوبنهاور «العالم إرادة وتمثلاً»، ويخبر صديقه أنه وجد عند الفيلسوف الألماني كيف تتحدد أفكار البشر وآراؤهم بالميول الجنسية يكتب: «لقد سقطت في مرفأ فلسفة شوبنهاور»، وسيظل شوبنهاور يرافق فرويد في مسيرته العلمية، وكان منظراً طبيعياً للمقربين منه أن يشاهدوا العجوز الذي يقترب من الثمانين وهو يتوجه لقضاء عطلته حاملاً طبعة أعمال شوبنهاور التي توضع في الجيب. وفي العشرين من عمره يقرأ فيورباخ الذي يعجب به بنسبة تفوق إعجابه بكل الفلاسفة الآخرين، كان الفتى الحالم يحلم بأن يكون فيلسوفاً، إلا أن لقاءه بأرنست بروك العالم الفسيولوجي، سيغير مصيره حيث ينصحه بروك بدراسة الطب، لتبدأ الصفحة الحقيقية في حياته.

ولد سيجموند فرويد في اليوم السادس من أيار عام 1856، في مدينة صغيرة تسمى فرايبرج، كانت تابعة للإمبراطورية النمساوية، وهي الآن جزء من جمهورية التشيك حيث أب يعمل في تجارة الصوف، صارم الطباع متسلط في البيت، كانت أمه تريد أن تسمي ابنها جوزيف على اسم والدها، لكن الأب أصر على أن يسميه سيجموند، ليحمل الاسم الثلاثي «سيجموند شلومو فرويد». عاش الطفل الذي سيُعنى بآلام النفس ومشاغلها وهمومها في أسرة تعج بالمتناقضات، الأم فتاة صغيرة حسناء لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، فيما تجاوز الأب، الذي كان يعاني من العصاب، الخمسين من عمره، وهو يثير مشاعر الكره عند الطفل الصغير، الذي يشعر بالمنافسة بينه وبين أبيه على عطف أمه. في العام الثالث من عمره ولدت شقيقته الصغيرة، فعرف لأول مرة معنى الغيرة، ولهذا يخبرنا في كتابه «حياتي والتحليل النفسي» -ترجمة مصطفى زيور- أن أسعد وأجمل سنيّ حياته هي السنوات الثلاث الأولى من عمره. ونراه في كتابه المثير «مدخل إلى التحليل النفسي» -ترجمة جورج طرابيشي- يؤكد أن الأساس التكويني للحياة النفسية عند الإنسان يتم في السنوات الثلاث الأولى من العمر. وقد ظل فرويد يسترجع تلك السنوات وأحلامها فيما بعد لتكون من أهم العناصر التي بنى عليها نظريته في علم النفس، وأيضاً لتكون مدخلاً لكتابه الكبير «تفسير الأحلام».

عندما بلغ الرابعة من عمرة أصيبت تجارة والده بالكساد، وانتهى الأمر

بالعائلة المكونة من الأب وزوجتين وتسعة أولاد وعدد من الأحفاد ان تقرر الانتقال إلى فيينا، هناك يلتحق الطفل فرويد بالمدرسة الابتدائية التي يثبت بها تفوقاً، حيث ظل الأول على مدرسته لمدة سبعة أعوام، وظهر تفوقه الخارق في حفظ اللغات، فلم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره إلا وكان يتقن الإنكليزية واللاتينية والفرنسية. وبعد سنتين نراه ينكب على دراسة الإيطالية والإسبانية، لكن أكثر ما أثار اهتمامه وهو في سن الخامسة عشرة هو الفلسفة. كان يحلم بأن يصبح مثل الفيلسوف الألماني هيغل، ونراه وهو في السادسة عشرة من عمره يكتب كراساً صغيراً يسجل فيه إعجابه الشديد بصاحب كتاب «ظاهريات الروح»، حيث نقرأ في الكراس الصغير الذي ترجم إلى العربية من قبل مصطفى صفوان أن عبارة هيغل التي جاءت في مجلده الضخم عن الأخلاق: «إن ميولنا وانفعالاتنا الطاغية التي هي في نظر الأخلاق أصل الشر، لا ينبغي محاربتها واقتلاعها في النهاية، بل يجب ترويضها وجعلها تجري في قنوات الأخلاق الاجتماعية وما فيها من نظم وعادات». هذه العبارة ترافق فرويد سنوات طوالاً وهو يدرس السلوك البشري. عندما بلغ السابعة عشرة من عمره دخل جامعة فيينا لدراسة الطب بناء على رغبة عائلته، سيعترف أنه لم يشعر بأي ميل إلى مهنة الطبيب، كان يريد دراسة الفلسفة وعلم الاجتماع أو العمل بالمحاماة: «كان يحدوني أساساً ضرب من التعطش إلى المعرفة المتصلة بالعلاقات البشرية أكثر من تلك المتصلة بالعلاقات الطبية» -حياتي والتحليل النفسي، ترجمة مصطفى زيور-، لكن الشاب الذي كان عليه أن يفكر في تحصيل قوته، لا يمكنه أن يستسلم طويلاً لما يرغب فيه. وبعد ثماني سنوات تجبره الأحوال المادية المتردية لعائلته على ترك الأبحاث التي كان يقوم بها حول الأعصاب، للعمل في أحد مستشفيات فيينا طبيباً مبتدئاً، السنوات التي قضاها في المستشفى مكنته من التفرغ لكتابة المقالات عن طبيعة المخ، الأمر الذي دفع أستاذه أدينجر أن يطلب منه التفرغ نهائياً لدراسة المخ ويعده بأن يجد له مكاناً في معهد التشريح، يرفض العرض، فقد كان في قرارة نفسه يشعر أن هذا الأستاذ يريد أن يستغل نبوغه وأنه لا يحمل له مودة خالصة. لكنه في المقابل يلتقي بأستاذ آخر سيكون له تأثير كبير على مساره العلمي هو «آرنست بروك» الذي

يشير إليه في أحد أحلامه بأنه الشيخ «بروك» أو «بروك العجوز»، فقد كان ذلك الأستاذ متميزاً في بحوثه العلمية.

في معمل بروك يقضي فرويد ست سنوات، وقد بهرته الأبحاث الفسيولوجية التي كان يجريها بروك الذي طلب منه أن يتخصص في دراسة المخ والأعصاب. وأدى ذلك إلى تضحية من العائلة الفقيرة التي تركت له حرية الاختيار، فاختار أن يتفرغ لبحوثه التي لم تكن تؤدي إلى أية فوائد مادية، لا سيما في نظر عائلة كانت تعيش أوضاعاً مالية صعبة. وقد سهلت له أبحاثه التي نشرت في المجلة الطبية الحصول على منحة دراسية في فرنسا لدراسة الأمراض العصبية. ومن أجل الدراسة يقرر تأجيل زواجه، ويؤكد لخطيبته أنه سيعود إلى فيينا بعد أن يحقق حلمه، كان قد حزم ملابسه وأخذ معه كرسيه الخشبي «بدون ظهر»، وابتاع أرخص تذكرة قطار إلى باريس ليبدأ رحلته مع التحليل النفسي. كانت شخصية فرويد قد تشكلت، وتعلّم أنه بالبحث والمثابرة يمكن إدراك ما يبدو مستحيلاً، وقد كتب لخطيبته مارتا برنايس يقول: «علينا الاهتمام بالأشياء وليس بالأشخاص»، الأمر الذي يظهر كيف تغلب فرويد على الحرمان العاطفي والعجز المالي، لكنه وجد في باريس ومعاهدها وجبة دسمة علمياً وثقافياً.

بحلول عام 1896 استخدم فرويد مصطلح «التحليل النفسي» للإشارة إلى طريقته السريرية الجديدة والنظريات التي استند إليها. تعرض فرويد خلال هذه السنوات إلى اضطرابات في القلب، وأحلام مزعجة، وفترات من الاكتئاب، و«الوهن العصبي» الذي ربطه بوفاة والده عام 1896 وقد أدى تحليله لأحلامه وذكريات طفولته إلى استكشافه لمشاعر عدائية مخزونة تجاه والده، وقد قادته هذه إلى مراجعة نظريته حول أصل العصاب.

في عام 1902، حاول فرويد أن يصبح أستاذاً جامعياً، لكن على الرغم من الدعم من الجامعة، تم حظر تعيينه في سنوات متتالية من قبل السلطات السياسية. واصل فرويد سلسلة المحاضرات المنتظمة حول عمله، التي كان يلقيها، كمحاضر في جامعة فيينا، على جماهير صغيرة مساء كل يوم سبت في قاعة المحاضرات بعيادة الطب النفسي بالجامعة.

تم تأسيس الاتحاد الدولي للتحليل النفسي عام 1910، الذي تحول إلى شبكة دولية راسخة من جمعيات التحليل النفسي ومعاهد التدريب والعيادات. وبدأ جدول منتظم للمؤتمرات نصف السنوية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى لتنسيق أنشطتها وكمنتدى لتقديم الأوراق البحثية في المواضيع السريرية والنظرية.

في عام 1930، حصل فرويد على جائزة جوته تقديراً لمساهماته في علم النفس والثقافة الأدبية الألمانية. في كانون الثاني 1933، سيطر الحزب النازي على ألمانيا، وكانت كتب فرويد بارزة بين تلك التي أحرقت ودُمرت. قال فرويد لإرنست جونز: «ما هو التقدم الذي نحرزه؟ في العصور الوسطى كانوا سيحرقونني. الآن، هم راضون بحرق كتبي». واصل فرويد التقليل من شأن التهديد النازي المتزايد، لكنه في النهاية قرر الهجرة إلى بريطانيا.

بحلول منتصف أيلول عام 1939، كان سرطان الفك الذي أصيب به يسبب له ألماً شديداً، وتم إبلاغه بصعوبة إجراء عملية جراحية، أعاد قراءة روايات بلزاك وكان آخر كتاب إلى جانب سريره رواية «الجلد المسحور» في منتصف ليل 23 أيلول 1939 أعلنت وفاته.

تركت نظرية فرويد أكبر الأثر في الوجدان البشري الحديث، وسواء اتفقنا معه أو اختلفنا، فإن هذه النظرية قد تركت بصماتها على الثقافة العامة للعصر كله، بل إن بعض مفاهيمها أصبحت عملة متداولة ليس بين المثقفين والمختصين وإنما بين العامة.

يكتب إريك فروم: «هناك سبب قوي إلى الاعتقاد بأنه بعد مئة عام منذ الآن، سيعتبر فرويد في مصاف كوبرنيكوس ونيوتن، كأحد الرجال الذين فتحوا أفقاً جديداً من آفاق الفكر.. فمن المؤكد أنه في عصرنا هذا، لم يلق أحد ضوءاً على أعماق عقل الإنسان.. كما فعل فرويد». - فرويد، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد.

-9-

حوار في ظهيرة ساخنة
بطله ويليام فوكنر

الجمعة في شارع المتنبي ومع درجات الحرارة التي لا تريد أن تهدأ، وأنا أنزوي في ركن من أركان بيت المدى، كنت أستمع إلى شاب يسأل عن روايات «وليم فوكنر».. كان الشاب يتفحص الرفوف وهو مندهش من كثرة العناوين حتى قال لموظف المكتبة: هل يأتي يوم وأقرأ كل هذه الكتب.. قلت في سرّي إنه يحلم، لأنه يريد أن يقيس عمره بما يصدر من كتب.. تطور الحوار بين الشاب وموظف المكتبة عن روايات فوكنر، ولأنني فضولي في مثل هذه الأحاديث، قررت أن أحشر نفسي وحاولت أن أقول للشاب إن روايات فوكنر ممتعة. قال لي الشاب: لكنها صعبة.. رويت له ما جرى بين فوكنر وناشره عندما التقاه ذات يوم فقال له: «يا سيد فوكنر الناس تشكو من روايتك هذه، يقولون إنهم لا يفهمون منها شيئاً حتى بعد أن يقرؤوها مرّتين أو ثلاث مرات»، يجيبه دون أن ينظر إليه: «قل لهم أن يقرؤوها أربع مرات». وعلى أي حال قلت للشاب: عليك أن تجرب، فلا يوجد كتاب صعب، يوجد قارئ ملول فقط.

دائماً ما أجد البعض يشكو من بعض الروايات وهم يقولون: هل حقاً قرأت البحث عن الزمن المفقود؟.. ماذا عن «يوليسيس»؟ من لديه القدرة والصبر على الاستمرار مع «السيدة دالاواي»، وربما يسخر منك البعض ويقول لك يا رجل تبدو في قمة البطر، وأنت تتأبط رواية موزيل «رجل بلا صفات».. أتذكر أنني قرأت مرة أن الروائي الإنكليزي مالكوم لوري

طُلب منه أن يصف روايته «تحت البركان» للقراء فقال: يمكنهم أن يقرأوها على أنها قصة، ويمكن تجاوز الأمر واعتبارها قصة مفيدة نوعاً ما، ويمكن اعتبارها سيمفونية، أو أوبرا، قصيدة، أغنية، رسالة مشفرة، وفي النهاية قال يمكن اعتبارها آلة.. عليك أن تقرأها لتكتشف كيف تعمل.

على مدى سنواتي في القراءة لم تفارقني روايات فوكنر منذ أن وقعت بيدي روايته «سارتوس»، ولم يكن فوكنر يهمني آنذاك وإنما اسم مترجمها ميخائيل رومان وهو كاتب مسرحي مصري، يعد واحداً من رواد المسرح الطليعي في مصر. بعدها أصبحت مولعاً بفوكنر وقد تحدثت في كتابي «في صحبة الكتب» عن حواري مع الراحل جبرا إبراهيم جبرا عن فوكنر وروايته التي ترجمها «الصخب والعنف».

في كتابه لماذا نقرأ كتب هارولد بلوم: «إنني لست باحثاً متبحراً في فوكنر، ولكنني مجرد قارئ متحمس، فأنا أفترض أن قراءتك لواحدة من روايات فوكنر بكل ما لديك من حدة وعقل يقظ سوف تكون نوعاً من التدريب في عملية الإدراك، أظن أن ذلك يمثل طريقة جديدة لإيقاظ تلك الشعلة الداخلية، لانبثاق النور في أعماقك، أو لخلق تلك الرئة التي تتنفس وتجعل أنفاسك تتسارع أكثر، ليس بالضرورة قراءة فوكنر ستجعل منك شخصاً أفضل ولكن من المؤكد أنها ستثير بداخلك أسئلة جديدة، إن فوكنر يشير لنا كيف يجب أن نفتح عقولنا بالتساؤلات والدهشة»

عاش ويليم فوكنر ومات وهو شخصية غريبة الطباع كان سكان المنطقة الصغيرة يحتارون في وصف جارهم الصامت.. فهو أحياناً يبدو لطيف المعشر يومئ برأسه عندما يصادف أحد المعارف في الطريق، وأحياناً يبدو متزمتاً، وفي أحيان كثيرة يبدو بارد المشاعر، تارة يكون متواضعاً، ومرات يجدونه متعجرفاً، يبدو عطوفاً مع أفراد عائلته، يرتدي ملابس بسيطة، وكانت له هيئة مقامر، لم يكن يتكلم كثيراً، وغالباً ما كان شارد الذهن، وكان يُشاهد وهو واضع الغليون في فمه يسير دون أن يرى أحداً، وقد قال مرة لأحد الصحفيين: «لو أني سأعيش ثانية لاخترت أن أكون المخلوق الذي لا يكره أحداً ولا يحسده أحد، ولا يريده أحد، ولا يحتاج إليه أحد، لا يقع في ضيق، ولا تحاصره المخاطر، ويستطيع أن يأكل أي شيء». كان يُشاهد دائماً

وبينما يكتب، كان يقرأ باستمرار، دون كيخوته ومدام بوفاري وموبي ديك وشكسبير ودوستويفسكي: «أقرأ هذه الكتب عدة مرات، ولذلك أنا لا أبدأ بالصفحة الأولى وأقرأ الكتاب حتى النهاية، بل أقرأ مشهداً واحداً فقط أو ما يتعلق بشخصية واحدة، تماماً كما يود المرء أن يلتقي بصديق ليتحدث معه بضع دقائق». عندما سُئل عن الوصفة التي يمكن للكاتب اتباعها ليصبح روائياً جيداً، أجاب: «تسع وتسعون بالمئة موهبة، وتسعة وتسعون تنظيم، وتسعة وتسعون عمل».

يكره الحديث عن الأدب ويقول لمن يسأله عن رواياته: «لست أديباً بل مزارع متقاعد». يتحدث بلهجة قروية، ويشرب كثيراً كأنه إنسان حطمه اليأس. اشتغل في عدة أعمال، كتب الشعر في بداية حياته، ثم تركه ليعمل نقاشاً ثم نجاراً وموظفاً في دائرة بريد وكاتب سيناريو في هوليوود. تزوج من امرأة سبق أن تزوجت وكان معها طفلان، عاش حياة بسيطة، كان ينظر بغرابة إلى كل من يسأله عن حياته الشخصية، وذات يوم قال لصديقه القاص المشهور شيروود أندرسون: «وأنا أسير في شوارع مسيسبي أشعر كأن الجميع يراقبني، ويريد أن يفهم كيف يمكن لرجل يجلس في الظل أن يكسب 30 ألف دولار مرة واحدة -كان هذا المبلغ هو قيمة جائزة نوبل التي حصل عليها عام 1949- لمجرد أنه كتب بعض كلمات على ورق، في مسيسبي الرجال يفهمون أنه لكي يحصلوا على دولار عليهم أن يخرجوا أولاً في الشمس ويعرقوا وهذا ما يحيرهم في أمري».

ولد ويليام كوثبرت فوكنر في الخامس والعشرين من أيلول عام 1897 في بلدة نيو ألباني، وكان أكبر أخوته الأربعة، سترحل عائلته إلى أكسفورد وهو طفل، هناك سيدخل المدرسة، ولم يترك خلال هذه الفترة أي انطباع عند الأساتذة أو الجيران الذين كانوا يلاحظون صبياً مهملاً في ملبسه، لا يفعل شيئاً سوى التسكع والقراءة، وسيترك الجامعة في سنته الثالثة بسبب «غباء» الأساتذة كما قال لوالدته، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى قرر أن يصبح طياراً، سيعود بعدها إلى الجامعة وقد لاحظ الأساتذة تمكّنه من اللغتين الفرنسية والإسبانية، وفشله في اللغة الإنجليزية، يترك الجامعة مرة أخرى حيث يقرر السفر إلى نيويورك، هناك يتعرف بالقاص شيروود

أندرسون الذي سيساعده في نشر بعض قصائده، يعود إلى مدينته أكسفورد ليتعين موظفاً في مكتب البريد، لكنه لم يستمر طويلاً وفُصل من العمل بسبب سخريته من أناس لديهم هوس في شراء الطوابع. عام 1924 يجمع قصائده في كتاب بعنوان (الإله فون الرخامي)، طبع على نفقة أحد أصدقائه، ولم يبع أكثر من عشرين نسخة.. في أوائل عام 1926 ينشر أول عمل روائي له بعنوان (راتب الجندي) الذي يلاقي فشلاً ذريعاً لكنه أقنع الناشر أنه سيعوضه من خلال روايته الثانية (البعوض) التي ستلاقي المصير نفسه؛ إهمال من النقّاد، وسقوط في التوزيع، الأمر الذي دفع الناشر إلى أن يمتنع عن طبع كتاب جديد لهذا الكاتب الذي لا يجلب سوى النحس. يتذكر أنه كتب كتبه الأولى من أجل أن يحصل على النقود: «كنت أعيش في نيو أورليانز، وأقوم بأي نوع من أنواع الأعمال من أجل كسب نقود قليلة من حين إلى آخر.. التقيت أثناء ذلك شيروود أندرسون. كنا نطوف المدينة بعد العصر ونتحدث مع الناس، لم أكن أرى أندرسون في الصباح، فقد كان متوحداً ومعتزلاً الناس. وهكذا قررت أنه إذا كانت تلك هي حياة الكاتب، إذن علي أن أصبح كاتباً. في البداية وجدت الكتابة نوعاً من اللهو حتى إنني نسيت أني لم أر السيد أندرسون لمدة ثلاثة أسابيع، إلى أن جاء يسأل عني، وكانت أول مرة يزورني فيها، حيث بادرني بالقول: ما الأمر، هل أنت غاضب مني؟ فأجبته بأني كنت مشغولاً بتأليف رواية. فصاح يا إلهي وانصرف. حين أنهيت رواية (راتب جندي) التقيت السيدة أندرسون في الشارع فسألتني عن سير العمل في الرواية، فأخبرتها بأنني قد أنهيتها. ردت قائلة إن شيروود يريد أن يعقد صفقة معي، وأنه إذا لم يكن من الضروري قراءة مسودة الرواية، فسيخبر ناشره بأن يقبلها. فأبلغتها موافقتي، وهكذا أصبحتُ كاتباً».

بعد فشله كروائي، سيعود فوكنر للعمل نجاراً، وفي الليل يجرف الفحم لمحطة كهرباء البلدة، وما بين الثانية عشرة ليلاً والرابعة صباحاً كان يجلس على عربة يد استخدمها كطاولة للكتابة، حيث خطّط لكتابة روايته الثالثة (سارتورس)، الرواية التي وضع فيها كل آماله، وكان يتوقع أنه سيدخل تاريخ الأدب من خلالها، وحين أخبره الناشر أنها رواية طويلة ومملّة، اختصرها للنصف.

(سارتورس) التي تدور أحداثها في الجنوب الأمريكي حيث الشعور بالملل من الحياة، هي مفتاح لسلسلة من الروايات التي تناول فيها حياة أسرة أمريكية ومن خلالها سلط الضوء على تدهور الجنوب الأمريكي.

وعندما سُئل بعد حصوله على نوبل عن (سارتورس) قال: «حين كتبت روايتي (راتب جندي) و(البعوض) كنت قد فعلت ذلك من أجل الكتابة ذاتها، لأنها كانت تمتّعني، في (سارتورس) اكتشفت أن مسقط رأسي يستحق الكتابة وأنني لن أستطيع طيلة حياتي أن أنتهي من الكتابة عنه.. لقد انفتح أمامي منجم ذهبي مدفون في الذين هم حولي، لذلك ابتكرت عالماً كاملاً من صنعي».

ابتداء من (سارتورس) سيكرّس فوكنر نفسه للكتابة، حيث ستصدر له عام 1929 روايته التي ستضعه في مصاف كبار كتّاب العام، وهي الرواية التي واصل العمل فيها أكثر من ثلاث سنوات، وكان في كل مرة يعيد كتابتها لأنّ ناشر كتبه كان يرفض أن يطبع هذه الدفاتر الصغيرة المكتوب على الغلاف الأول منها بخط ناعم عنوان «الصخب والعنف». كان في الثانية والثلاثين من عمره، الأوساط الأدبية بدأت بالتعرف إليه مع نشر (سارتورس): «كتبتُ (الصخب والعنف) خمس مرات منفصلة محاولاً أن أحكي القصة وأن أحرر نفسي من الحلم الذي استمر يُشقيني حتى بدأت الكتابة».

وعندما سُئل عن التكنيك الغريب الذي استخدمه في الصخب والعنف قال ساخراً: «ليتولّ الكاتب الجراحة أو البناء إذا كان مهتماً بالتكنيك».

حين نُشرت (الصخب والعنف) عام 1929 لم يكن فوكنر يتوقع أنها ستضعه على قائمة الكتّاب الأكثر مكانة في تاريخ الأدب العالمي، فهي عمل تجريبي رغم أنها تروي سيرة حياة أسرة من جنوب أمريكا وهي سيرة آل كمبسُن، من خلال استذكار ثلاثة أخوة للماضي، فضلاً عن القسم الأخير الذي يرويه المؤلف، لذلك هي أشبه بسيمفونية تتكرر فيها الإشارة إلى الحوادث نفسها «كأن كل حادثة هي عبارة عن مقطوعة موسيقية واحدة لكنها تُعزف في كل مرة من خلال آلة مختلفة. (بنجي) الذي يروي الحكاية في 7 نيسان 1928 معتوه، يسمع ولكن لا ينطق ولا يستطيع إلا الصراخ والعويل

وهو حين يروي الحوادث لا يستطيع أن يرتبها زمنياً، وما حدث قبل عشرين سنة وما حدث اليوم كلاهما متساوي الأهمية عنده، إنها مثل الحكاية التي أخبرنا عنها شكسبير في مكبث: «إنها حكاية يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف ولا تعني أي شيء»، و(كونتن) الذي يسرد حكايته في 2 تموز 1910 طالب في هارفارد مفرط الحساسية؛ شديد التعلق بشرف الأسرة، و(جاسن) الذي يروي الحكاية بتاريخ 6 نيسان 1928 فظّ، شرس، ساديّ، أناني، يبغي من الحياة النجاح وتجميع الثروة عن أي طريق. بعد أن تظهر الرواية إلى العلن يقرر فوكنر أن يتوقف عن الكتابة قليلاً ليرى ما الذي سيقوله القرّاء عن عمله الجديد، لكن المبيعات تخيب أمله، الثلاثة آلاف نسخة التي طبعها الناشر لم يُبع منها سوى أقل من ألفي نسخة، فيما الرزم البقية تتكدّس في المخازن، النقاد يسخرون من الكاتب المتحفظ الجاف في تعامله، رجل يملؤه التعصب والقسوة، قادر على الإهانة، صاحب الرواية التي هي أشبه بالكلمات المتقاطعة.. ويكتب المحرر الأدبي لصحيفة نيويورك تايمز ساخراً من الجنوبي المهووس بعالم المتاهات: «ترى ما الذي كان فوكنر، أصلاً، يريد قوله، عبر هذه الصفحات التي خطّها ووزعها في روايته الصخب والعنف؟ لقد بدا واضحاً أن السيد فوكنر لم يُخلق ليكون كاتباً».

منذ أن قرأ سارتر رواية وليم فوكنر سارتورس، شغل هذا الكاتب الأميركي الغريب الأطوار تفكير جان بول سارتر، فنشر عنه دراسة تناولت رواية سارتورس، وبعدها بأعوام سينشر مقالاً مطولاً عن رواية الصخب والعنف يدرس فيه مشكلة الزمان، ويقارن بين مفهوم هايدغر للزمان وما طرحه فوكنر في روايته.. يكتب سارتر عن فوكنر أن الروايات العظيمة تشبه الظواهر الطبيعية العظيمة، فنحن ننسى أن لها مؤلفين، ونتقبلها كما نتقبل الأحجار، ذلك لأنها قائمة بذاتها، موجودة، ويضيف سارتر أن روايات فوكنر عبارة عن حجر كريم، وهذا ما يعطيها قيمتها.. ثم يتطرق سارتر إلى هوية الإنسان في روايات فوكنر فيكتب: «لقد تقبلت الإنسان في روايات فوكنر بنفس الطريقة التي أنظر بها إلى إنسان دستويفسكي، لقد تقبلت هذا الإنسان الضائع منذ الميلاد، المحطم، والأخلاقي في الجريمة والتفكير، لقد تقبلت هذا الإنسان في عذابه وانحطاط جسده».. إلا أن سارتر برغم

هيامه بروايات وليم فوكنر نجده يشير إلى نقطة الخلاف بينه وبين صاحب الصخب والعنف: «إنني أحب فنه وأعشقه، لكنني لا اؤمن بفلسفته، فالمستقبل المسدود لا يزال مستقبلاً، إنني مؤمن بما قاله هايدغر من أن الواقع الإنساني إذا لم يكن أمامه شيء، وإذا كان مستقبله مغلقاً، فإن فقدان الأمل لن ينزع الواقع الإنساني من إمكانياته». وبعد سنوات سيكتب ألبير كامو: «أقل ما يمكننا أن نقول عن هذا الكاتب إنه رجل أمسك بسر الأدب».

يكتب أرفنج هاو في كتابه «فن وليم فوكنر»: «إذا كانت هناك روايات في القرن الحالي يمكن تسميتها بالروايات العظيمة، فإن رواية الصخب والعنف هي بالتأكيد واحدة من ثلاثة أو أربعة مؤلفات روائية أمريكية أمكن كتابتها منذ نهاية القرن الماضي. وسواء اعتبرنا الصخب والعنف دراسة لمقومات التدمير الذاتي البشري، أو اعتبرناها سبباً للفوضى الاجتماعية الخاصة في هذا، فإن هذه الرواية تعكس بحق صورة.أصيلة لإنسان لا سبيل أمامه للخلاص».

يستلهم «وليم فوكنر» موضوعة روايته الشهيرة «الصخب والعنف» من فكرة الزمن عند أينشتاين.. وكان فوكنر قد كتب وهو في الخامسة عشرة من عمره مقالاً عن الكون، وكان المفترض أن يتفرغ لهذا النوع من الكتابات، إلا أن الأمر انتهى به إلى تأليف الروايات، يكتب أينشتاين أن الرياضيات هي فن التفكير الصحيح.. وعندما يحصل وليام فوكنر على جائزة نوبل عام 1949 يقول لمحرر مجلة لايف، إن العلم إذا استطاع أن يستغني عن الأنا، فإن الفن لا يستطيع ذلك.

العام 1953 يلتقي وليام فوكنر بألبرت أينشتاين حيث تجري بينهما مناقشة عنيفة حول الزمن. كيف قرأ فوكنر النظرية النسبية؟.لقد أدخل فوكنر بعض ما فهمه من النظرية النسبية في الصخب والعنف، وهذا ما نجده في البناء السردي للرواية.. كانت شخصية كونتين إحدى شخصيات ثلاث روت الأحداث من منظورها الخاص، وقد كان لـ «كونتين» وضع خاص وفريد من حيث الزمان والمكان، إذ كان كل من جاسون وبنجي في مدينة «جفرسون» وكلاهما يسرد الأحداث خلال عطلة عيد الفصح في عام 1928، على حين كان كونتين في هارفرد، أما سرده للأحداث فيتم في عام 1910. وهو بهذا

يكون قريباً جداً من حيث الزمن من موضوع تلك الذكريات التي استحوذت على تفكيره. وهو من موقعه يرى أسرته في نطاق زماني ومكاني مختلف.

على أن أكثر الأمور إغراء من حيث أثر نظرية أينشتاين على الصخب والعنف هو استفادة لوكنر ممّا يسمى مصطلح «مفارقة الساعات». وتكمن هذه المفارقة في أن الزمن، تبعاً لنظرية أينشتاين، يتباطأ كلما ازدادت سرعته، حتى إن الزمن يتوقف تماماً عند سرعة الضوء. وقد شاعت في تلك الأيام أحاديث عن أنك إذا سافرت في صاروخ يسير في الفضاء بسرعة الضوء، فإنك تعود إلى الأرض في العمر نفسه الذي غادرت فيه الأرض بغض النظر عن المدة التي قضيتها في الفضاء، وكان كونتين بطل الصخب والعنف، يأمل من خلال هذه الرحلات المتعاقبة التي كان يقطعها في وسائل المواصلات من دون هدف مهين، أن يتحقق له قانون «مفارقة الساعات». كان كونتين يسعى جاهداً إلى أن يتحرك بسرعة تكفي لإبطاء الزمن. إن لم يكن إبطاله.

يقول كونتين في الصخب والعنف: «كانت الساعة السابعة، إذن فقد استيقظت في الوقت المناسب، وهأنذا أسمع دقات الساعة.. كانت تلك هي ساعة جدي وعندما أهداني إياها أبي قال لي: كونتين إني أعطيك الآمال والرغبات، وإنه من المناسب أن تستخدمها حتى تحظى بالنهاية المنطقية الحمقاء لحياة الإنسان.. إني أعطيك إياها لا لكي تتذكر الزمن، بل لكي تنساه بين لحظة وأخرى».

في السادس من تموز عام 1962 تنقل وكالات الأنباء خبر رحيل ويليام فوكنر إثر أزمة قلبية، كان الأطباء قد حذروه من الإسراف في شرب الخمر.. في سنواته الأخيرة كان العالم قد اعترف له بأنه واحد من كبار الروائيين الذين مروا في القرن العشرين وتركوا على أدبه بصماته.. أما هو فقد كان يصر على أن مهمة الكاتب هي مراقبة أفعال الإنسان وأن يلتقط سر الإمساك بالزمن.. في الخطاب الذي ألقاه عند تسلمه جائزة نوبل يقول: «إلى أن يتعلم الكاتب أن يكتب عن القلب لا عن الغدد.. فإنه سوف يظل وحيداً يرقب نهاية الإنسان. إنني أرفض قبول الفكرة القائلة بفناء الإنسان. فمن السهل أن يقال بكل بساطة: أن الإنسان خالد لأنه سوف يتحمل المصاعب ويوم ينفخ في الصور ويشحب آخر شعاع للغروب النهائي فوق صخرة مهملة مفتتة

فإن صوتاً شاحباً سيظل هناك، صوت الإنسان الأبدي القوي يتكلم.. إنني ارفض هذا أيضاً، أنا لا أعتقد أن الإنسان سوف يتحمل فقط بل أعتقد أنه سوف ينتصر».

عندما سئل هل على الكاتب التزامات نحو القراء؟ أجاب: «إن التزام الكاتب هو أن ينجز عمله على أفضل وجه ممكن، أما ما قد يفيض بعد ذلك من التزامات، ففي وسعه أن يتصرف بها على هواه، أما بالنسبة لي أنا شخصياً، فليس لدي من الوقت ما يسمح لي أن أهتم بمعرفة من يقرأ مؤلفاتي، لا يعنيني رأي فلان أو فلان، أو ما يكتب غيري».

يكتب الروائي البيروفي ماريو فارغاس يوسا أن: «تأثير فوكنر في أعمالي كبير جداً، وضعه الكثير من كتاب العالم في مصاف كبار القرن العشرين، فهو اخترع نظاماً عالمياً للرواية، وابتكر حبكة جيدة للقصة وأدخل إلى النثر الإثارة والترقب، لا يوجد كاتب من أميركا اللاتينية من جيلي لم يتأثر بشكل مباشر بفوكنر».

سألني الشاب: ما الذي يجعل رواية ما عظيمة؟ قلت لكل قارئ وجهة نظر، وأن عظمة العمل الأدبي تقاس باختلاف القراء حولها. قد تكون صعوبة بعض الروايات تمثل نوعاً من العذاب لبعض القراء، لكنها في المقابل تمثل إعجاباً بعبقرية الروائي عند مجموعة أخرى من القراء.. وكما كتب آندي ميلر في كتابه الرائع «سنة القراءة الخطيرة»: «لا أظن أن على الكاتب العظيم أن يكون ممتعاً ليصبح كاتباً عظيماً».

-10-

كيف تقرأ البحث عن الزمن المفقود؟

في كل مرة أشاهد رواية مارسيل بروست (البحث عن الزمن المفقود) تغفو على الرفّ إلى جانب أعمال تولستوي، أتساءل كيف استطاع مريض الربو هذا أن يجد له مكانة كبيرة في عالم الأدب من خلال رواية واحدة لا تزال تُعد أشبه بلغز بالنسبة للقراء، ويقال إن قلّة قليلة من القرّاء من واصل السير في دروب هذه الرواية حتى النهاية. وصف فلاديمير نابوكوف، (البحث عن الزمن المفقود) بأنها أفضل رواية في كل العصور، من خلال موضوعاتها الرئيسية وأسلوبها في تحويل الأحاسيس إلى عواطف، وتجذير الذاكرة والموجات من الرغبة والغيرة والنشوة. يكتب ناباكوف: «هذه هي مادة هذا العمل الهائل والشفاف بشكل فريد»، وبالرغم من صعوبة كتاب بروست وتعقيده، فإن الرواية تُرجمت إلى أكثر من 40 لغة، ولا يزال كاتبها يحافظ على وجوده بيننا بفضل القرّاء في جميع أنحاء العالم الذين يعودون إلى روايته مراراً وتكراراً.

إن البحث عن الزمن المفقود، مثل العديد من الأعمال الأدبية العظيمة، تشبه بنيتها بنية السمفونية، المواضيع الرئيسية للرواية هي الحبّ والفنّ والوقت والذاكرة، منسّقة ومرتبة بعناية وذكاء، وتصف الصفحات الأولى من الافتتاحية، التي أطلق عليها بروست «العرض»، بطريقة موسيقية ودقيقة الهدف من البحث، وهو إيجاد إجابة لأسئلة الحياة الأساسية: من أنا؟ ماذا أفعل في هذه الحياة؟ كما يُشير عنوان بروست، فإن الشخصية الرئيسية، المعروفة باسم الراوي، تبحث عن هويتها الخاصة وعن معنى الحياة. وبينما

بروي قصته، يتحدث إلينا بصوت يُعدّ من أكثر الأصوات جاذبية وسحراً في مختلف عصور الأدب.

على مرّ السنين، نُشرت العديد من الكتابات عن بروست وملحمته الروائية، وكان هناك الكثير من القراء الذين يقولون إن بروست غير حياتهم من خلال منحهم طريقة جديدة تمثل ثراء أكثر للنظر إلى العالم، وجعل الرؤية إلى الحياة مرئية، مثلما كان بروست يصف عمل الفنان الحقيقي، في حالة بروست، أعتقد أنه يساعدنا على رؤية العالم كما هو، ليس فقط جماله الاستثنائي وتنوعه، ولكن ملاحظات الروائي تجعلنا ندرك كيف نتصور وكيف نتفاعل مع الآخرين، مما يوضح لنا عدد المرات التي نخطئ فيها في افتراضاتنا الخاصة ومدى سهولة الحصول على وجهة نظر متحيزة تجاه شخص آخر. وأعتقد أن علم النفس يجد شخصيات بروست غنية ومعقدة مثل شخصيات شكسبير. تماماً كما يصف الأمر هارولد بلوم، فإن العديد من شخصيات بروست هي مخلوقات ذات «تنوع غير محدود». يكتب الناقد الشهير جورج ستاينر وهو يضع مارسيل بروست في الطبقة العليا من الكتاب: «كان بروست الرجل الذي علق القمر من أجلي. إنه مع شكسبير استطاع امتلاك موهبة متنوعة. عندما تقرأ بروست، لبقية حياتك، يصبح جزءاً منك، بالطريقة التي يُعتبر بها شكسبير جزءاً منك. لا أريد المبالغة، لكنني أشعر حقاً أنه الكاتب العظيم في القرن العشرين».

النصوص العظيمة هي تلك التي يجد القارئ بها نفسه بدرجة غير عادية. في حالة بروست، وبسبب السرد الحميم والجذاب، أصبحنا رفاقاً لبطل الرواية وهو يسعى لاكتشاف حقيقة الحالة الإنسانية، ومن أجل اكتشاف حقيقة تجربتنا وتصويرها يستخدم بروست خبراته الاستثنائية في الملاحظة والتحليل. رأى جوزيف كونراد هذا التحقيق اللامتناهي على أنه مفتاح عبقريته: «عمل بروست... هو فن عظيم يعتمد على التحليل. لا أعتقد أنه يوجد في جميع الأدبيات الإبداعية مثال على قوة التحليل مثل هذا».

تقول الروائية دوريس ليسينج، إنها تقرأ بروست «من أجل الترفيه المطلق». وعلى الرغم من أنني كقارئ أجد أن (البحث عن الزمن المفقود)

ليس عملاً سهل القراءة، بسبب جُمل وفقرات بروست الطويلة الشهيرة، وغياب فواصل الأسطر في معظم المحادثات بين الشخصيات.

في المرة الأولى التي قررت أن أقرأ فيها رواية مارسيل بروست، وكان ذلك بداية الثمانينيات، صممت أن أقرأ الأجزاء الخمسة التي كانت صادرة آنذاك دفعة واحدة، مثلها مثل (الحرب والسلم) أو (الأخوة كارامازوف)، وكانت تجربة فاشلة لأنني وجدت نفسي تائهاً، بعد أكثر من عام عدت إلى (البحث عن الزمن المفقود)، وهذه المرة، حدّدت لنفسي هدفاً يتمثل في قراءة خمسين صفحة في اليوم، ووجدت أن مثل هذه القراءة أشبه بإنجاز شجعني على قراءة المزيد، بعد ذلك اكتشفت أن أفضل طريقة لقراءة البحث عن الزمن المفقود، هي قراءتها ببطء، ولكن بصورة مستمرة من دون أن أضع أي موعد للانتهاء من الرواية.

قراءة بروست لأول مرة هي «فعل إيماني» كما قال ناباكوف، فكرت في مرات كثيرة التخلي عن مشروع قراءة (البحث عن الزمن المفقود)، اعتقدت أنه بإمكاني قراءة الكثير من الكتب الأقصر والأكثر إمتاعاً في الوقت الذي أقضيه مع هذه الرواية الطويلة، وكنت أسأل نفسي باستمرار: ما الهدف من كل هذا؟ وكان هذا السؤال يرافق بروست أثناء كتابة الرواية حيث كرس رسائل لا نهاية لها والعديد من المقابلات الصحفية لدحض منتقديه وشرح الحلقات التي ما زالت قادمة. لكنني أصررت وفي النهاية، كنت وما زلت ممتناً لإرادتي التي أتاحت لي الفرصة لقراءة الرواية كاملة. عندما وصلت إلى نهاية الجزء السابع (الزمن المستعاد) وأنا أقرأ الجملة الأخيرة من الرواية «إن الأزمنة التي عاشوها متباينة جداً، وتخللتها أيام وأيام عبر الزمن»، سقطت جميع قطع اللغز، وقدم بروست نهاية تستحق كل هذا العناء.

فتحت قراءة بروست عينيّ: لن أنظر أبداً إلى الأشياء والناس بنفس الطريقة مرة أخرى. لن أفكر أبداً في الحبّ والوقت والذاكرة بنفس الطريقة مرة أخرى. وكان الكاتب الفرنسي يطل برأسه بين الحين والآخر من خلال مؤلفين اختلفت ثقافاتهم وجنسياتهم، مرة عند الروسي نابوكوف، وأخرى مع الياباني موراكامي، ومرة مع التشيكي كافكا، والكولومبي غابريل غارسيا ماركيز والفرنسي باتريك موديانو، أو مع النرويجي كارل أوف كناوسجارد.

لقد استطاع بروست أن يضع نصّه بجدارة داخل المشهد الثقافي العالمي، وأن يحطم ذكريات الطفولة ويتأمل في شأني الأدب والزمن، ليُحاط بحشد من المعجبين لم يتوقفوا في دفاعهم عن الجملة البروستية الطويلة، فيما واصل بروست ملاحقة الذين يخافون الاقتراب من روايته، مثل كابوس مؤرق.

يكتب صامويل بيكيت: «إن القارئ لملحمة بروست هذه لا يمكن له أن يمرّ سريعاً على المقاطع التي يقف فيها الروائي عند الأحاسيس التي ترزح تحتها شخصياته»، علماً أن معظم شخصيات الرواية مستوحاة من أشخاص عرفهم بروست وعاشرهم وعايشهم في حياته، لا سيما من قلب المجتمع الأرستقراطي الذي عاش فيه. وفي لحظات معينة، قد تتحوّل الرواية في عيون قارئها إلى آلة تصوير تلتقط أدق المشاعر، لكنّ بروست، الرجل ذا الحساسية المفرطة، انتبه إلى خطورة انفلات الزمن من بين يديه. وبدلاً من أن يترك للزمن فرصة أن يتتبعه، ارتأى أن ينقضّ هو على حركة الزمن ليصطاد منها اللحظات الهاربة.

عام 1913، ظهر الجزء الأول من الرواية بعنوان (جانب منازل سوان) على نفقة المؤلف نفسه بعد رفض معظم دور النشر الفرنسية نشر الكتاب، والغريب أن أندريه جيد الذي كان يرأس لجنة القراءة لدى دار النشر الشهيرة (غاليمار) هو الذي أوصى بعدم نشرها.

وكان بروست قد بعث برسالة إلى الناشر غاليمار عام 1912 يقول له فيها إنه يفكر في طبع رواية بجزأين ويطرح على الناشر أسئلة تتعلق بالطباعة، فيجيب الناشر في رسالة تتضمن العبارات التالية: «يمكننا إخراج مجلدين من 550 صفحة ويمكننا طرح الجزء الأول للبيع في مارس من العام المقبل». ويقترح بروست في ما بعد على الناشر ثلاثة أجزاء بعنوان رئيسي هو (تقلبات القلب). المجلد الأول بعنوان فرعي (الزمن المفقود)، والمجلد الثاني بعنوان (في ظلال ربيع الفتيات) والمجلد الثالث بعنوان (الزمن المستعاد). وفيما كان بروست يعتقد بإمكان إصدار الرواية في الأشهر القادمة، يرضخ الناشر غاليمار في النهاية إلى لجنة القراءة التي يرأسها أندريه جيد والتي وجدت في الكتاب الضخم مجموعة خواطر تفتقر إلى الحبكة الروائية، لكن أندريه جيد يعود بعد أعوام ليبدي أسفه على رفض الرواية ويكتب مقالاً

في مديح بروست واصفاً الرواية بأنها تحفة فنية: «إن معنى رواية بروست ليس ذاتياً محضاً، تبعاً لذوق كل فرد وهواه.. فالمؤلف يدلعك منذ البداية إلى سؤال الأسئلة، وليس فقط الأسئلة الواضحة أو التي لا محيد عنها.. إن القارئ ربما يشكو أحياناً من أن بروست يحجب عنه التفسيرات حتى عندما يسهل عليه أن يفسر، ولكن هنا يكمن خطأ القارئ في فهم طبيعة الرواية البروستية».

لم يعتمد بروست على أحد الأساليب المشاعة في الكتابة الروائية، بل صنع لنفسه أسلوباً خاصاً ومختلفاً يقوم على الجمل الطويلة والعبارات المكررة والشروح اللامتناهية والتفاصيل المكثفة، ممّا يجعل من قراءة الرواية أمراً مجهداً. لكنّه أراد كما قال لمربيته سيلين أن يدحض مقولة «البساطة تصنع الجمال»، ليثبت أن التعقيد أيضاً قد يصنع الجمال.. ويخبرنا مترجم النص العربي (جمال شحيذ) في مقدمته للجزء السابع من الرواية: «كنت أقع أحياناً على جمل عملاقة تبلغ 35 سطراً، فأحار في البداية من أين أبدأ، ما كان يدفعني إلى قراءة الجملة مرات ومرات. وأحياناً كنت أقطّع الجملة جملتين أو أكثر.. أما الصعوبات المتمثلة بالإحالات التاريخية أو الفنية أو الفكرية، فكنت أحلها بالعودة إلى القواميس والموسوعات. وإزاء بعض الجمل الضبابية كنت أسأل أصدقائي الفرنسيين، وفي غالب الأحيان كانوا لا يفهمون بروست أكثر مني، فألجأ إلى تشجير هذه الجمل كي تتبدّى روابطها ومفاتيحها في المحصلة. وتفنن بروست في تلوين جمله وهندستها، فتارة هي حلزونية، وطوراً هي إهليلجية، وأحياناً مستقيمة مثل الألف الحق، وأحياناً أخرى هي جرفية تشبه تضاريس أرض تركت فيها البراكين كثيراً من التوءات والمهاوي. ومما جعلني أقدم على هذه الترجمة هو إعجابي بعبقرية هذا الرجل الذي سمّاه البعض ملاك الليل».

كان في التاسعة حين أصيب بأول نوبة ربو، وكاد يموت تحت بصر والده الذي قال لأمه: «لا أعتقد أن هذا الطفل سيعيش حتى عمر العاشرة»، كان ذلك عام 1880 حيث تعوّد مارسيل بروست أن يصعد إلى غرفته الصغيرة يحلم بأن تطبع أمه على وجنته قبلة الخلود إلى النوم، استلقى على سريره ليلاً يُحصي ما كرهه في ما حوله، ملابس النوم التي يتخيلها مثل الكفن، والساعة

التي تتوسط الغرفة تعدّ الوقت مثلما يعدّه أبوه. يقول جيرمين بريه صاحب الكتاب الشهير (التخلص من الزمن) الذي ترجمه إلى العربية نجيب المانع أحد دراويش مارسيل بروست: «في كل صفحة من ملحمة بروست البحث عن الزمن المفقود كانت هناك أشباح غرفة النوم حيث نجد موضوع غرفة النوم كاللحن المعاود يعزف أمام أعيننا ثم يتلاشى فاسحاً للنغم الذي يليه».

في مراهقته، حرم بروست من لقاء فتاة أحلامه (ماري بيرناداكي) التي كانت من أكبر غرامياته التي أخبره أبوه ذات يوم أن عليه أن يقطع علاقته بها بسبب صيت أمها، أدمن الوحدة بناءً على وصايا أمه بالحفاظ على صحته الضعيفة، بعد واحدة من خلواته الليلية، جلس في غرفته يقرأ مرتجفاً من البرد، قدمت إليه خادمته سيلين فنجاناً من الشاي مع صحن من الكعك الذي ما إن وضع قطعة منه في فمه حتى غمره شعور بالنشوة، أغمض عينيه ليسترجع ماضياً كان قد اعتقد لسنوات أنه دُفن بين رُكام الذاكرة. أعاده طعم الكعك إلى بيت عمته التي كانت تحضّر له كلّ صباح هذا النوع مع كوب من الشاي.. ليتجه بعدها إلى مكتبه الخشبي يخرج الأوراق ليخط الجملة الأولى في روايته: «كثيراً ما أويت إلى سريري وكانت عيناي أحياناً حالما أطفئ شمعتي، تغمضان بسرعة لا تدع لي متسعاً من الوقت لأقول فيه: إنني أنام».

في مساء السابع من أكتوبر عام 1922 قال بروست لأحد أصدقائه إنه إذا عاش هذه الليلة فإنه سيثبت للأطباء أنه أقوى منهم، ومن بين هؤلاء الأطباء كان أخوه روبرت الذي توسل لمارسيل من أجل أن يعالج فيَ عيادة طبية، ما حدا بمارسيل إلى منعه من دخول البيت. لقد كان بروست يتشاءم من عيادات الأطباء، فهو يتذكر أن أمه أخبرته أنها كادت تموت عند ولادته وأنّه ولد عليلاً ومحتاجاً للرعاية، كانت تنتابه مخاوف ليلية، وكان يغرق كل مساء في حزن عميق، فهو ضعيف البنية شديد الحساسية وفوق هذا هو مدلل والدته، التي ارتبط بها بشكل عنيف، وقال لأمه ذات يوم إنه يفضل أن تنتابه أزمة الربو وتظل أمه بالقرب منه لا تفارقه، في يومياته التي نُشرت بعد وفاته نجد حنيناً مفرطاً لهذه الأم: «أنت التي تحبينني، لا تجعليني أبتعد عنك، فالموت ينتظرني في الخارج».

وفي البحث عن الزمن الضائع يحاول بروست تذكر الماضي مع أمه، أن

يتذكر أيام طفولته الأولى، حين كانت أمه أحياناً ترفض الصعود إلى غرفته لتطبع قبلة على جبينه قبل أن ينام، أراد أن ينتشل الأيام الماضية من هوة النسيان، وهو يلتقي بالصدفة السعيدة التي تمكنه من ذلك حين عاد ذات يوم ممطر، وكان قد تخطى الثلاثين من العمر حزيناً، مهموماً، فعرضت عليه أمه التي رأت أنه بردان أن يشرب قليلاً من الشاي، وعندما وافق أرسلت من يشتري له نوعاً من الكعك اسمه (أدلين الصغيرة)، غمس قطعة منه في الفنجان ثم رفعها في الملعقة إلى شفتيه، وفي اللحظة التي مسّت فيها الجرعة الممزوجة بفتات الكعك سقف حلقه، انتفض منتبهاً إلى التحول العجيب الجاري في أعماقه، لقد اجتاحته: «نشوة لذيذة، منعزلة دون معرفة سببها، أحالتني فجأة لامبالياً أمام تقلبات الحياة، محصناً ضد كوارثها، وأحالت قصرها وهمياً بنفس الطريقة التي يفعل بها هذا الحب، مالئة إياي بجوهر نادر، أو بالأحرى هذا الجوهر لم يكن فيّ، لقد كان أنا. لم أعد أشعر بنفسي تافهاً، عرضياً، فانياً».

قبل وفاته بعام، تحامل مارسيل بروست على نفسه وقرر أن يحث خطاه المتعبة باتجاه المعرض الأول من نوعه الذي يقام في مدينة باريس للفنّ الهولندي، حيث كانت تعرض ضمن أعمال المعرض، ثلاث لوحات للفنان يوهانس فيرمير، كان بروست بصحة سيئة وحالة الربو تتفاقم، لم يكن بروست يخرج من بيته، وعندما كان ينهض ساعة واحدة في غرفته فإنه يشاهد متلحفاً بالبطانيات والأغطية وبكل ما يمكن للإنسان أن يتغطى به عندما يصاب بنوبة برد، لكنه الآن قرر الخروج، نصحه بعض أصدقائه بعدم مغادرة المنزل حتى لا يعرّض نفسه لأزمة ضحية حادة، فقال وهو يمزح: «ماذا تريدون يا أعزائي، فقد قال إنكساغوراس إن الحياة سفر».

كان بروست مغرماً بلوحات يوهانس فيرمير المولود غرب هولندا عام 1632، والذي عانى من الإهمال أثناء حياته مثلما عانى بروست، فلم يكن فيرمير معروفاً ومعترفاً به حتى بعد موته بسنوات، لم يرسم كثيراً.. هناك فقط 35 لوحة تمّت نسبتها إلى فيرمير الذي يُعدّ اليوم واحداً من أشهر فناني عصر النهضة، لم يبع فيرمير لوحة واحدة أثناء حياته، لكنه رهن عدداً منها ضماناً حتى يسدّد ما بذمته من ديون، فقد قضى حياته القصيرة -عاش 43

عاماً- غارقاً في الديون، لم يحقّق لنفسه أو لأسرته شيئاً، كما أنه مثل مارسيل بروست كان يعاني من مرض مزمن حال بينه وبين رسم عدد أكبر من اللوحات، ومثل بروست كان مهموماً بموضوع واحد، ففي معظم رسوماته نشعر كأن الزمن قد توقّف، لأنّ الرسام لم يكن يرغب بتعكير صفو فتياته المستغرقات في الحلم، فنراهن مرّة يطرّزن، وفي لوحة أخرى وهن يقرأن رسالة جاءت من مكان بعيد.. ومثل بروست لم يكن فيرمير يحب الخروج من المنزل، ولعل من المرات القليلة والنادرة التي قرر فيها الخروج كان لرسم لوحته الشهيرة (مشهد من دلفت)، وهي اللوحة التي اهتم بها مارسيل بروست كثيراً وكتب عنها في روايته (البحث عن الزمن المفقود).

كان بروست قد سافر إلى هولندا عام 1912 وهناك شاهد لوحة فيرمير (مشهد من دلفت)، فكتب عنها في سجل المتحف بأنها «أجمل لوحة في العالم»، وبعد سنوات سيخبر أندريه جيد بأن اللوحة أوحت له وهو يذهب إلى فراش النوم في التاسعة مساء، بأن يبدأ رحلة مع الماضي.

في كتاب (بروست بقلمه) () يكتب كلود مورياك: «على سلم بيته، وإثر دوار رهيب استولى عليه ترنح وتوقف ثم تابع سيره.. كان على (فوادوابيه) أن يمسك بذراعه ويوجه خطاه المتداعية نحو لوحة (مشهد من دلفت).. في الربع السفلي الأيمن من اللوحة، الذي يأتي مباشرة إلى يسار البرج الأول القائم على البوابة المائية المظللة، شاهد جزءاً من قمّة سقف مسّه ضوء الشمس لذلك المساء الصيفي الخالد». كان فان كوخ قد رأى عام 1880 اللوحة التي رسمها مواطنه فيرمير، وقد كان شديد الحماس لها، يكتب في إحدى رسائله لشقيقه: «إذا شاهد المرء منظر المدينة لفيرمير، عن قرب شديد، فيبدو له أمراً لا يُصدق. لقد رسمت بألوان مغايرة كلياً لتلك التي قد يتوقعها المشاهد من مسافة بضع خطوات عنها».

في (البحث عن الزمن المفقود)، نجد سوان الخبير بالفنون حين يلتقي مع أوديت، تبادر إلى دعوته لتناول الشاي، غير أنه: «كان رهن متعة عمل، مقال عن فيرمير، وهو مقال في الواقع كان قد أهمله منذ سنين».

ويحاول مارسيل بروست في (البحث عن الزمن المفقود) أن يعطي أهمية

كبيرة للوحات فيرمير: «فهمت أن الغرابة الأخاذة، الجمال المخصوص في هذه التصاوير يكمن إلى حدّ كبير في الدور الذي تلعبه رموزها في كل واحدة منها، بينما كانت حقيقة أن هذه الصور لم تصور على أنها رموز، إذ إن الفكرة المرموز إليها لم يعبّر عنها فيها، بل صورت من قبل الرسام على أنها أشياء، حقيقية، محسوسة بالفعل أو ملموسة لمساً مادياً».

في الخامس عشر من شهر ديسمبر عام 1675، يتوفى يوهانس فيرمير بعد معاناة مع المرض.. كان قد تعرّض خلال سنوات حياته إلى مصاعب مالية.. فهو يعيل أحد عشر طفلاً.. وقد تقدّمت زوجته بطلب إلى المحكمة لإعفائها من الديون المترتبة على زوجها المتوفّى.. إلا أن المحكمة قرّرت تعيين أحد موظفيها لجرد ملكية الفنان الراحل، كان في البيت عدد كبير من اللوحات، وكُرسيّان وحامل للرسم، وطاولة خشبية، وسرير قديم، وعدد من الصحون.. تم حجزها جميعاً لمصلحة الدائنين.

في أواخر أيامه شعر بروست بصعوبة في الكلام، حين زاره أندريه جيد وجده شاحب الوجه، مرتجفاً رغم أن الجوّ لم يكن بارداً، فيكتب: «أعتقد أنها النهاية، فقد وجدته مريضاً للغاية، قبلها بأيام كان فرانسوا مورياك قد أجبره على تناول الطعام بصعوبة فيما بروست يقول لضيفه: «لا تتصور كم كنت قريباً من الموت». قال لمربيته: حان الوقت «لمناداة الأطباء»، كان يهمس بصوت مضطرب: «أمي»، ثم دخل في حالة غيبوبة.. يسرع أصدقاؤه إليه فيجدونه هادئاً فاتحاً عينيه ممسكاً بيد شقيقه الذي طالما تحدث معه عن الماضي، عن أبيه عن أصدقائهما القدماء.. لم يستمر طويلاً في تذكر الزمن، فقد كان شبح الموت أقرب إليه. ينظر جان كوكتو إلى المدفأة التي تكدست فوقها دفاتر (البحث عن الزمن المفقود) ليكتب بعدها في رثائه: «للأسف كان يسبق عصره، إنه مثل ستندال الذي لم نعرف قيمته أثناء حياته».

يجيب هاروكي موراكامي حول تأثره بمارسيل بروست: «إن ذروة الفن لا تبلغ مداها بإثارة الضحك أو البكاء أو بتفجير الغضب والانفعال، وإنما تؤدي ما تؤديه الطبيعة ذاتها ألا وهو استثارة الأحلام أو استحضارها».

-11-

جاك دريدا ساخراً،
«أرجوكم.. اقرأوني»

طيلة حياته التي بلغت «74» عاماً ظل يتذكر مشهد الصبي الذي منع من دخول المدرسة. كان في الثانية عشرة من عمره حين استدعاه مدير المدرسة لكي يطلب منه أن يحزم حقيبته المدرسية ويعود إلى بيته قائلاً له: «سيشرح لك والدك السبب»، لم يفهم آنذاك أن ديانته اليهودية لم تتسبب في طرده من المدرسة فقط، وإنما أسقطت الجنسية الفرنسية عن عائلته بعد أن ألغي قانون الأهالي الذي يمنح اليهود في الجزائر الجنسية الفرنسية، هذا الإبعاد القسري ظل مثل جرح لم يندمل: «كنت دائماً في المدرسة مبعداً، منفياً، غريباً محروماً من أوراقه»، اضطرت عائلته أن تدخله مدرسة يهودية كان معظم أساتذتها قد شملهم قانون الطرد الذي أعلنته حكومة فيشي عام 1942. منذ ذلك اليوم سيكتشف تعسف العزل، والخوف من الاضطهاد، وقد تعلم من تلك الحادثة أن لا يتعلق بالهوية الدينية أو الوطنية وأنه «لن يعتمد إلا على نفسه»، وأن يترك أثراً في البلاد التي سحبت منه ذات يوم جنسيتها. كان أكبر أحلامه في شبابه أن يصبح لاعب كرة قدم محترفاً، وبسبب هذا الحلم يفشل في امتحان الثانوية، فقد كان يقضي معظم وقته في الملعب أكثر مما يقضيه في قاعة الدرس، الأمر الذي اضطر والده أن يهدده بالعمل معه في تجارته إن لم ينجح في السنة القادمة: «أردت أن أكون لاعب كرة قدم محترفاً، لكن كان علي التخلي عن ذلك لأنني لم أكن جيداً بما يكفي». في طفولته أصرت عائلته أن تذهب به بانتظام إلى الكنيس، سحرته الموسيقى التي تعزف هناك،

ولكن بعد ذلك كان الشاب دريدا: «مصدوماً من الطريقة البلهاء التي كانت فيها عائلتي تؤدي الطقوس الدينية، لقد وجدت تلك الطريقة بلا فكر، مجرد تكرار أعمى» -ديفيد ميككس من هو جاك دريدا، ترجمة رمضان مهلهل؟-

في الثالثة عشرة من عمره انتبه إلى اهتمامه بقراءة كتب الفلسفة، ورغم أنه عاش في بيت لا توجد فيه كتب، فإنه استطاع أن يقرأ روسو ونيتشه: «عام 1943 قرأت نيتشه للمرة الأولى، وبالرغم من أنني بالطبع لم أستطع فهمه تماماً، فقد ترك انطباعاً كبيراً عليّ. وهكذا كانت مفكرتي التي كنت أحتفظ بها في ذلك الحين مليئة بالاقتباسات من نيتشه وروسو، الذي كان إلهي الأخير حينها. كان نيتشه يعترض على روسو اعتراضاً عنيفاً، لكنني أحببتهما على حد سواء وتساءلت، كيف يمكنني التوفيق فيما بينهما»، قادته كتابات أندريه جيد باتجاه نيتشه: «كتاب أندريه جيد الأخلاقي هو الذي قادني إلى نيتشه الذي لا ريب أنني فهمته بشكل سيئ، ونيتشه على نحو غريب قادني إلى روسو، لقد أحببت بدقة، ما يقوله جيد»، تعلق بأشعار بول فاليري التي حاول أن يقلدها، فكتب عدداً من القصائد نشرت في بعض المجلات التي كانت تصدر آنذاك في الجزائر.

في بداياته قرر أن يدرس الأدب لكي يصبح أستاذاً جامعياً يعتمد على نفسه، ويتخلص من هيمنة والده، إلا أن الفلسفة ظلت شاغله الأول: «في العمق فإن اختياري الفلسفة بالمعنى الدراسي والجامعي والوظيفي وقع في لحظة كنت فيها طالباً في الجزائر لم يكن قد درس اليونانية بعد ولم يكن بالتالي مؤهلاً لإجراء امتحان التبريز في الآداب، وبفضل دروس الفلسفة في الثانوية وما بعدها لم يعد بإمكاني أن أفصل بين الفلسفة والأدب وكنت أحاول في كل ما عملته فيما بعد أن أبيّن أهمية التحالف بينهما».

تفوق الكتب التي صدرت عن جاك دريدا عدد مؤلفاته التي كتبها، والغريب أن هذا المفكر الفرنسي كانت وكالة المخابرات الأمريكية قد جندت جاسوساً لمتابعته ومعرفة إلى أيّ اتجاه يتطور فكره، وهل هو في طريق هجر الماركسية، والمثير أنه في نفس السنة التي حاولت فيها أميركا التجسس على المفكرين الفرنسيين ذوي الميول اليسارية، كانت مؤلفات دريدا تتمدد في أمريكا نفسها، وتجد لها أتباعاً وصدى أكثر مما هو موجود

في فرنسا، ففي الثمانينيات كانت تفكيكية دريدا قد غزت مناهج البحث في العلوم الإنسانية في الجامعات الأميركية، ووجدت صدى ليس فقط في الجامعات وإنما في الفكر والفنون أيضاً، وتحول دريدا بشعره الأبيض الكثيف، ووجهه الأسمرالشبيه بالصقور، ذي الخدود العالية، بقميص مفتوح. كان لديه مظهر نجم سينمائي، وتشير سيرته الذاتية أن أمه أصرت أن تسميه جاكي على اسم الممثل الأمريكي الطفل «جاكي كوجان»، الذي ظهر أول مرة في فيلم تشارلي شابلن «يوم المتعة»، فيما أراد والده أن يطلق عليه اسم «إيلي» تقديراً لعمه، لكن في النهاية انتصرت الأم وسجل باسم جاك، وقد اعترف دريدا بأن اسم الممثل الأمريكي جعل منه مشاهداً دائماً للتلفزيون والسينما، يشاهد كل شيء من الأخبار إلى المسلسلات، يقول ساخراً: «إنني أنتقد ما أشاهده، أنا أفكك في كل وقت».

عندما سئل هل يخاطب في كتبه قراء معينين أجاب قائلاً: «إنني أتوجه إلى قراء أعتقد أنهم قادرون على مساعدتي ومرافقتي وفهمي والإجابة عني».

هل يمكن قراءة جاك دريدا باسترخاء؟

اكتشف في العام الأخير من حياته إصابته بمرض السرطان، قال في حوار صحفي: «أترك هنا، قطعة ورق، ثم أذهب كي أموت»، وكانت قطعة الورق هذه هي «التفكيكية» التي شغلت الأوساط الفلسفية في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، فغطت على مواقف صاحب «الكتابة والاختلاف» الذي كان أحد أبرز المشاكسين في الحياة الثقافية في العالم، كما توضح مواقفه الناقدة في قضايا ومسائل سياسية واجتماعية وفكرية.

ولد جاكي إيلي دريدا في الخامس عشر من تموز عام 1930 في ضاحية بالقرب من العاصمة الجزائر لعائلة متوسطة الحال، الأب يعمل بائعاً متنقلاً، كان الثالث من بين خمسة أطفال، توفي شقيقه الأكبر «بول» عن عمر أقل من ثلاثة أشهر، قبل عام من ولادة دريدا، مما دفعه للاشتباه طوال حياته في دوره كبديل لأخيه المتوفى. يتذكر صورة والده وهو مستغرق في جمع وطرح حساباته، وحين يعجز يستعين بابنه جاكي لينظم له دفتر الحسابات، وعندما يخطئ بالحساب كان الأمر بالنسبه له «كارثة». لم تشغله الدراسة فقد كان غير

موطنها، يرسب في امتحان البكالوريا، ثم يرسب مرتين في امتحان القبول بالمدرسة العليا. في التاسعة عشرة من عمره، ينتقل إلى باريس للدراسة في المدرسة العليا، يتلمذ على يد الفيلسوف الوجودي «جان هيبوليت»، الذي أرشده إلى أهمية هيغل في تاريخ الفلسفة، ويلتقي دريدا بجان بول سارتر الذي حلم ذات يوم أن يصبح مثله فيلسوفاً يكتب الرواية، لكنه لم ينجذب إلى أفكاره، فقد ذهب صوب هوسرل ونيتشه وهايدغر، قبل وفاته بأقل من عامين سأله أحد الصحفيين عن سارتر، وكان رده: «أنا قرأته بتركيز شديد عندما كنت صغيراً، ومن ثم غادرت شواطئه، أدركت أنه لم يكن فيلسوفاً قوياً.. ومع ذلك ما يزال شخصية محط الإعجاب في فرنسا.. لكن لا، أنا لا أدين له بأي شيء في الفلسفة».

في المدرسة العليا سيتعرف على ميشيل فوكو الأستاذ الشاب الذي كان يكبر دريدا بأربع سنوات -ولد فوكو عام 1926-، وقد ارتبط معه بصداقة حتى عام 1963 عندما تحدث في ندوة فلسفية بقسوة ضد كتاب فوكو «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» بحضور ميشيل فوكو الذي لم ينزعج في بداية الأمر، بل أرسل بعد شهر رسالة يشكره فيها على اهتمامه بالكتاب ويشير إلى عمق صداقتهما، لكن يبدو أن فوكو لم ينس هجوم صديقه، فكتب عنه عام 1971 مقالاً يسخر من وجهة نظر دريدا، لتحدث القطيعة التي استمرت عشرة أعوام، عندما دافع ميشيل فوكو عام 1981 عن جاك دريدا الذي اعتقل في براغ بعد مشاركته في مؤتمر ثقافي كانت سلطات براغ قد منعته، فتحدث فوكو في الإذاعة ووقع على بيانات تطالب بإطلاق سراح زميله، الأمر الذي دفع دريدا أن يقدم له الشكر. بعد موت فوكو يشارك دريدا في ندوة عقدت في جامعة نيويورك لتحية الفيلسوف الذي رحل عام 1984، وفي عام 1991 سيشارك في مؤتمر بمناسبة مرور 30 عاماً على صدور كتاب فوكو تاريخ الجنون: «كانت مشاركتي في إحياء ذكرى فوكو هي وسيلتي الوحيدة للمحافظة على ذاكرة الصداقة». وعلى عكس فوكو سينجذب إلى أستاذه لوي ألتوسير الذي كان يكبره بـ «12» عاماً، وستستمر صداقتهما حتى اليوم الأخير من حياة ألتوسير الذي توفي 1990، حيث يكتب في وداعه مقالة بعنوان «قراءة لغياب ألتوسير» -ترجمها إلى العربية بختي بن عودة- يستذكر

فيها سنوات عمله وصداقته مع أستاذه: «منذ عام 1952 عندما التقى الأستاذ في مكتبه التلميذ الشاب الذي كنته آنذاك، في هذا المكان نفسه اشتغلت معه لمدة (20) عاماً. وعندما نتذكر ليس فقط اللحظات الخفيفة والضحكات اللامبالية للأيام التي تمر بل اللحظات الكثيفة للعمل، والتعليم، والفكر، والجدال الفلسفي والسياسي، وأيضاً الجراحات والتمزقات السيئة، هو جزء من حياتي، طويل وثري ومكثف. ها هو يتوقف اليوم. ينتهي ويموت كذلك مع لوي». عام 1953 يسافر إلى جامعة لوفان ليطلع على أرشيف الفيلسوف الألماني هوسرل، وبعد عام من دراسة أرشيف فيلسوف «الظاهراتية» يقدم بحثاً بعنوان «مشكلة التكوين في فلسفة هوسرل» للحصول على دبلوم الدراسات العليا، في العام 1957 يحصل على شهادة تؤهله للتدريس بالمدارس الثانوية، في الوقت نفسه يحصل على منحة إلى جامعة هارفارد للاطلاع على الأرشيف غير المنشور لهوسرل، في نفس العام يتزوج من مارغريت أوكوتوريه التي كان قد تعرف عليها عام 1953، ورغم عدم إيمان جاك دريدا بمسألة الزواج، فإنه ارتبط معها بعلاقة قوية انتهت بالزواج في كمبريدج في التاسع من حزيران عام 1957، وقد عملت مارغريت في مجال التحليل النفسي وترجمت إلى الفرنسية أعمال اللغوي الشهير رومان جاكوبسون.

بعد الشهر الأول من الزواج يلتحق بالجيش مجنداً، وهي فترة كانت عصيبة عليه حيث خدم في الجزائر، هناك يتم اختياره مدرساً في مدرسة خاصة بأبناء الجنود، كان دريدا معارضاً لسياسة فرنسا الاستعمارية، وظل يأمل حتى اللحظة الأخيرة قبل أن يغادر الجزائر مع عائلته عام 1962، أن يتحقق شكل من الاستقلال يتيح التعايش بين الجزائريين والفرنسيين المولودين في الجزائر. عام 1959 يُسرح من الجيش، وبعد عام يقوم بالتدريس في جامعة السوربون حيث عمل مساعداً لغاستون باشلار وبول ريكور وجان فال،عام 1964 ينتقل للعمل في مدرسة المعلمين العليا بناء على دعوة من لوي ألتوسير، التي ظل يعمل بها حتى عام 1984.

عام 1966 يظهر جاك دريدا في المشهد الفكري الأمريكي في مؤتمر عن البنيوية في جامعة «جونز هوبكنز» في بالتيمور. وقد صدم دريدا جمهور

الحاضرين بإعلانه أن البنيوية قد عفا عليها الزمن بالفعل في فرنسا، وأن أفكار السيد «ليفي شتراوس» كانت جامدة للغاية. وبدلاً من ذلك، عرض «التفكيك» باعتباره الفلسفة الجديدة التي ستنتصر في النهاية على حد قوله.

في عام 1967 ينشر جاك دريدا ثلاثة أعمال وهي «الكتابة والاختلاف» -ترجمه إلى العربية كاظم جهاد-، في علم الكتابة -ترجمه إلى العربية أنور مغيث-، الصوت والظاهرة -ترجمه فتحي أنقزو-، وفي هذه الكتب سيظهر للمرة الأولى أسلوبه الخاص الذي أخذ يشد الانتباه حوله، وستصنع هذه الكتب حضوراً لمفكر شاب، تأثر بالفلاسفة الألمان وخصوصاً هوسرل وهايدغر، فقد وجد في كتاباتهما نقداً قوياً لـ«الميتافيزيقيا» ومنذ تلك اللحظة سيرتبط باسمه مصطلح «التفكيك» الذي يُستشهد به كثيراً ولكن نادرًا ما يُفهم. لكن الغريب أن هذا المصطلح برغم غموضه دخل في اللغة اليومية. يؤكد دريدا أن تفكيك الأشياء يعني أن كل بنية -سواء كانت أدبية أو نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو دينية- التي تنظم تجربتنا، يتم تشكيلها والحفاظ عليها من خلال أعمال الإقصاء: «في عملية إنشاء شيء ما، يتم أهمال شيء آخر حتماً».

عام 1968 تندلع تظاهرات الشباب، فيأخذ منها جاك دريدا موقف المتفرج: «كنت متحفظاً وقلقاً، لم أكن ضدها، لكني لم أكن متحمساً أيضاً للهياج الجماهيري، لكن بالمقابل كان حدث 68 قد طرح أسئلة جذرية، وتناول كل الشرعية والأصولية للسلطات القائمة، كما أنه أثار الأسئلة من أجل تجاوز الواقع، إنه حدث يوضع في خانة الأحداث ذات الطابع الفلسفي».

لعل ما يجعل مؤلفات جاك دريدا مهمة، هي الطريقة التي قدم بها أفكار كبار الفلاسفة والكتاب والفنانين، وكيف تعامل مع المشكلات ذات الاهتمام المعاصر. تتكون معظم نصوص دريدا من تأويلات متأنية للفلاسفة والأدباء -من أفلاطون إلى جيمس جويس: «أصل الفلسفة هو أفلاطون، وكل ما صنعته فيما بعد هو أنها اتخذت في التحول مع كانط أو هيغل. لكننا لا نستطيع القول إنها تطورت»- جاك دريدا، حوارات ونصوص، ترجمة محمد ميلاد -

بالنسبة لمنتقديه، بدا جاك دريدا كأنه عدمي يهدد أسس المجتمع والثقافة الغربيين. يجادل منتقدوه بأنه من خلال الإصرار على أن الحقيقة والقيمة المطلقة لا يمكن معرفتهما على وجه اليقين، فإنه يقلل من إمكانية الحكم الأخلاقي.

والغريب أن «التفكيك» الذي ارتبط باسم جاك دريدا، رفض أن يعرفه قائلاً ليس التفكيك مجرد منهج، ولا مدرسة فكرية، ناهيك عن أن يكون نظاماً أو فلسفة: «لقد كررت مراراً أن التفكيك ليس طريقة، وأنه لا توجد طريقة ما اسمها طريقة دريدا، التفكيك ليس تقويضاً، ولا تخلياً، كما أنه ليس تخريباً، إنه إعادة فتح منظورات حركة، في أفكار متحجرة أو جامدة». يجادل دريدا بأن الحقيقة الشفافة والقيم المطلقة بعيدة عن متناولنا. لكن هذا لا يعني أنه يجب علينا التخلي عن التصنيفات المعرفية والمبادئ الأخلاقية التي لا يمكننا العيش من دونها: المساواة والعدالة والكرم والصداقة. وأنه من الضروري إدراك القيود والتناقضات المتأصلة في الأفكار والمعايير التي توجه أفعالنا، والقيام بذلك بطريقة تجعلها مفتوحة للتساؤل المستمر والمراجعة المستمرة. «لا يمكن أن يكون هناك عمل أخلاقي دون التفكير النقدي».

خلال العقد الأخير من حياته، أصبح دريدا منشغلاً بموضوعة الدين وفي هذا المجال قد تكون مساهمته أكثر أهمية في عصرنا. لقد فهم أن الدين مستحيل من دون شك. كما أنه لا يمكن أبداً أن يُعرف الله بشكل كاف، بشر غير كاملين: «إن البديل عن الاعتقاد الأعمى ليس مجرد عدم إيمان، بل نوع مختلف من الاعتقاد، شخص يحتضن عدم اليقين ويمكّننا من احترام الآخرين الذين لا نفهمهم. في عالم معقد، الحكمة هي معرفة ما لا نعرفه حتى نتمكن من إبقاء المستقبل مفتوحاً».

في كتابه المثير «أطياف ماركس» -ترجمه إلى العربية منذر عياشي- يذهب فيه إلى أن ماركس هو مفكر القرن الحادي والعشرين: «إن نهاية شيوعية معينة كانت واضحة لبعضنا حتى قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، وهذا لا يعني أن ماركس مات أو دفن، كما قيل تحت جدار برلين»، ولكي يوضح أنه لا مستقبل من دون ماركس، فإن دريدا لا يعني كل ماركس «لا مستقبل من

دون بعض ماركس، ففي الماركسية أكثر من وجه، لذلك إذا وجبت الأمانة وجب أن نكون أمينين لمظهر معنى الماركسية». ويؤكد دريدا أن فشل التطبيق الشيوعي لا يعني أن الماركسية انتهت من حيث وضعها أسئلة كثيرة لا تزال مطروحة أيضاً، المهم أن نعرف ماذا نختار من كل ذلك. ثم يقول: «إننا لا خيار لنا في الحفاظ على مظهر معين من الماركسية، فنحن نعيش عالماً، أو ثقافة، ظاهرة أو مستترة، مشبعة عميقاً بهذا التراث. إن الماركسية وماركس كليهما صنعا القرن العشرين»، يصر دريدا على أن وراثة لا يعني أن نحتفظ بها كما ورثناها، بل أن نستخدمها ونطورها ونفتحها على المستقبل، وليس أجدى من النقد الماركسي في مواجهة هذا النوع الراهن من الديمقراطية والليبرالية والسوق الرأسمالية، ويعلن دريدا في مواجهة ما يسمى بالنظام العالمي الجديد أن الإنسانية كلها في خطر يكتب: «لم يكن العنف واللامساواة والتهجير والمجاعة وكل أنواع الاضطهاد الاقتصادي أسوأ من الآن في كل التاريخ، وبدلاً من التغني بهذا المثال الأعلى الذي اسمه الديمقراطية الليبرالية والسوق الرأسمالية في نشوة نهاية التاريخ، وبدلاً من تمجيد نهاية الأيديولوجيات ونهاية الخطاب التحرري، يجب أن لا ننسى أن هذا النظام الجديد مبني على عدد لا يحصى من الآلام الفظيعة».. ويدعو دريدا الرجال والنساء المضطهدين لتشكيل «الأممية الجديدة»، أممية من دون تنظيم أو حزب، ومن دون نظرية أو أيديولوجية، الرابط فيها هو التعاطف: «رابطة بلا مؤسسة بين كل الذين قد لا يكونون مؤمنين بالأممية الاشتراكية الماركسية أو بدكتاتورية البروليتاريا وبالتعاضد الأممي لكل عمال العالم، إلا أنهم سوف يجدون أنفسهم يستهلون الفكر الماركسي لتشكيل عالم جديد محسوس واقعي في الإطار النقدي لدولة القانون العالمي».

تمتد هذه الفكرة في كتابه الآخر «ماركس وأبناؤه» حيث يجيب على النقاشات التي فتحها كتاب «أطياف ماركس»، ويعيد التأكيد على أن «الرجال والنساء في سائر أنحاء العالم هم اليوم، إلى حد ما، ورثة ماركس والماركسية شاؤوا ذلك أم عرفوا به أو لم يعرفوه». ونجد الاهتمامات السياسية نفسها في مقابلاته مع إليزابيت رودينيسكو التي صدرت في كتاب بعنوان «ماذا عن الغد».

أذكر أن فيلسوف التفكيك تمت دعوته لزيارة مصر من قبل المجلس الأعلى للثقافة في شباط عام 2000، وقد أحاط به مثقفو مصر، وبدا كنجم سينمائي، الأضواء والمبكرفونات والكاميرات تلاحقه، والجمهور امتلأت به قاعة المجلس الأعلى للثقافة، حتى إن جابر عصفور قال مازحاً لم أتصور أن جمهور التفكيكية كثير إلى هذا الحد في مصر، كانت الجموع تفترش الأرض بعد أن شغلت كل المقاعد واكتظت القاعة بالحضور، بينما احتشدت في الخارج جموع لم تتمكن من دخول القاعة، وبدأ الجميع بمطر دريدا بالأسئلة، ويبدو أن الفيلسوف ظل مجاملاً خلال الأيام الثلاثة الأولى التي شهدت محاضراته، إلا أنه اضطر في اليوم الأخير أن يقول للجمهور: «أرجوكم اقرأوني»، للأسف اليوم كلما يلفظ مصطلح «التفكيكية» فإن الجميع يسخر أو يبدو عليه الاشمئزاز، دون أن يدركوا للأسف أن الفلاسفة الكبار هم وحدهم القادرون على طرح الأفكار الكبرى التي تعيد ترتيب تاريخ الفكر. ولعل ما قام به دريدا لا يختلف عمّا قام به فلاسفة كبار عندما أصروا على مراجعة الأفكار القديمة وتشذيبها واستطاعوا بعد ذلك أن يؤسسوا الفلسفة الحديثة التي قادت الغرب على طريق التقدم والازدهار وكان دريدا واحداً منهم. يكتب دريدا: «ليست لدي فلسفة، بل تجربة تعني لي أيضاً، رحلة، امتحاناً، تأملاً وتفرداً، تتناول الثقافة، القراءة، العمل، الكونية والفردية».

قام دريدا بمراجعة تاريخ هذا الفكر ليبين أن الخطاب الفلسفي منذ أفلاطون وروسو وهوسرل وهايدغر يتضمن إيلاء الأولوية والسيادة للكلام على حساب الكتابة، فالكلام والفكر يقومان على أساس وهم مؤداه أن الفكر وهو يتكلم، يظل حاضراً أمام ذاته ومطابقاً لذاته، وأنه يقدم المعنى مباشرة. هذا بينما تتسم الكتابة بالاضطراب وعدم الاستقرار وتفكك المعنى، ومن ثمة فهي محط شك واستبعاد عن طرق الخطاب الذي يود إثبات حضورية ومباشرية المعنى. لذلك تعتبر مهمة إعادة الاعتبار للكتابة وإيلائها الصدارة المفقودة هي المهمة الأساسية التي نذر جاك دريدا الفيلسوف لها.

في التاسع من تشرين الأول عام 2004 يقطع التلفزيون الفرنسي برامجه ليعلن وفاة جاك دريدا بعد معاناة مع مرض سرطان البنكرياس، ليقول الرئيس

جاك شيراك في خطاب التعزية أن دريدا: «إحدى الشخصيات الرئيسية في الحياة الفكرية في عصرنا، قرأ، ونشر، وناقش كل قضايا العالم»، فيما نطق وزير الثقافة إلى «تواضع دريدا ورغبته في فهم الآخر». فيما أشار عمدة باريس، إلى «الحداثة الحازمة» للفيلسوف الراحل، في حين قالت مارتي جورج بوفيه، الشيوعية الفرنسية البارزة: «حزنت على آخر ممثل لهذا الجيل من الفلاسفة الذين لم يسبق لهم مثيل. أخيراً توقف عن تحدي التيار السائد وتمزيق أقنعته».

ظل جاك دريدا فيلسوفاً غير قابل للتلخيص، ففي رأيه، أن عدم القدرة على الانحباس في تعريف واحد، وفكرة واحدة، وسؤال واحد، هو تماماً كالحفاظ على المستقبل.

-12-

الكتب المملة التي ألهمت ماركيز

كان يقود سيارته في رحلة إلى مدينة أكابولكو، العائلة الصغيرة المكونة من الأب والأم وطفلين قد قرروا الاحتفال بالنجاح الذي حققه الأب بعد أن وقع عقداً بترجمة أربعة من كتبه إلى الإنكليزية لقاء مبلغ ألف دولار، قال لزوجته إن هناك أمنية لم يستطع تحقيقها، زيارة جنوب أمريكا، حيث كان يسكن وليام فوكنر الذي وصفه ذات يوم بأنه معلمه الأفضل، فهو لم يتعلم منه فن الرواية فقط، بل الكتابة أيضاً عن الناس البسطاء الذين تسحقهم الحياة. كان فوكنر قد توفيَ قبل أكثر من سنتين -توفي عام 1962-، لم تتسنَّ له الفرصة أن يراه، لكنه يتخيله مثل مزارع يرتدي قميصاً ذا كمّين طويلين وبجانبه كلبان أبيضان، كما في الصورة الفوتوغرافية الشهيرة التي التقطها له المصور الفوتوغرافي الفرنسي هنري كارتييه بريسون.

فجأة يظهر أمامه خيال لحيوان، أوقف السيارة وهو يقول لزوجته لقد وجدتها، استدار بسيارته الأوبل ليعود إلى منزله في مكسيكو سيتي. في تلك اللحظة طافت بذهنه جملة سيقدر لها أن تغير تاريخ الرواية في العالم: «بعد سنوات طويلة، وأمام فصيلة الإعدام، سيتذكر الكولونيل أوريليانو بوينديا ذلك المساء البعيد الذي أخذه فيه أبوه للتعرف على الجليد». طوال أكثر من عشرين عاماً كان يفكر بكتابة رواية عن عائلة كبيرة تعيش في قرية صغيرة. الآن وجد الرواية، يمكنه أن يتصور ذلك بوضوح: رجل يقف أمام فرقة إعدام ويرى حياته كلها في لحظة واحدة.

بعد مضي سنوات على هذا الحادث الغريب يقول غابريل غارسيا ماركيز

لكاتب سيرته «جيرالد مارتن» -سيرة حياة، ترجمة محمد درويش- إنه بعد أن عاد إلى البيت جلس إلى آلته الكاتبة، تماماً كما يجلس كل يوم لكنه في هذه المرة: «لم أنهض ثمانية عشر شهراً». التفكير في الرواية قد استغرق منه أكثر من ثمانية عشر عاماً ولم يكن يتوقع أن ينتهي منه ذات يوم: «لم أحسب أن الكتاب سيصل إلى نهايته». كان يريد لروايته أن تكون بحجم دون كيخوته «800» صفحة، لكنه اختزلها إلى أربعمائة صفحة سيحكي لنا فيها قصة أربعة أجيال من أسرة بوينديا.

عندما انتهى من كتابة «مئة عام من العزلة»، قال لصديقه بيلينيو مندورا الذي استفسر عن الرواية: «إما أنني كتبت رواية أو أن لدي كيلوغراماً من الورق»، في واحدٍ من تأملاته التي يسترجع فيها علاقته بالكتابة يكتب: «تأليف الكتب مهنة انتحارية، إذ ما من مهنة غيرها تتطلب قدراً كبيراً من الوقت، وقدراً كبيراً من العمل».

مثل بطل الرواية، العقيد أوريليانو بوينديا، الذي يختبئ في ورشته في ماكوندو، ويصنع أسماكاً ذهبية صغيرة ذات عيون مرصعة بالجواهر، وجد ماركيز نفسه في حجرة الكتابة مع أكوام من الورق و60 سيجارة كل يوم، ومشغل أسطوانات تتناوب عليه موسيقى بيلا بارتوك وكلود ديبوسي، الحائط مزدحم برسوم بيانية عن تاريخ مدينة كاريبية أطلق عليها اسم ماكوندو، وسلسلة نسب العائلة التي أطلق عليها اسم بوينديا. يوماً بعد يوم تنمو الأوراق، فيما الأصدقاء المقربون يقرأون الصفحات التي يرسلها إليهم، في البيت تواصل زوجته ميرثيديس معركتها في توفير المال اللازم للأسرة. في مطلع عام 1966 كانت النقود قد تبخرت، فيما صفحات الرواية تكبر وتكبر، يقود سيارته الأوبل البيضاء إلى أحد الكراجات ويرجع بمبلغ كبير سيتبخر فيما بعد، بدأت الزوجة ترهن كل شيء، الثلاجة والتلفاز والمذياع ومجفف الشعر والمدفأة الكهربائية، ولم ينجُ سوى مشغل الأسطوانات، فلا كتابة من دون أنغام موسيقى بارتوك واستهلالات ديبوسي، وبعض أغنيات البيتلز.

ينتهي من الرواية في الساعة الحادية عشرة من صباح الثامن من تشرين الأول عام 1966، لم يكن أحد في البيت ليخبره: «أتذكر جيداً مدى ارتباكي. لم أعرف كيف أتصرف، وحاولت أن أشغل نفسي بشيء ما كي أبقى على

[illegible]

ورغم أن رواية «مئة عام من العزلة» [illegible] عام ١٩٦٧، إلا أن شهرتها [illegible] في وسائل الإعلام [illegible] وقبل وصول الرواية إلى [illegible] والدهشة [illegible] زبائن المكتبة الذين اختطفوا نسخ «مئة عام من العزلة» [illegible] نسخة مازلت أحتفظ بها إلى اليوم.

في ذلك الوقت كنت أطبق نصيحة قالها لي الراحل جبرا إبراهيم جبرا إن الكتاب الجيد هو الذي يبقيك في حالة من الانتباه المتواصل.

قلت له: وإذا لم يفعل ذلك؟

قال لي: عليك أن تبحث عن السبب؟ في تلك السنوات من عمري كنت أوهم نفسي بأنني قارئ جيد. قرأت الكثير من الروايات وكتب الفلسفة وعلم النفس، وأجلس أمام أصدقائي متفاخراً بحصيلتي هذه، ولهذا وجدت نفسي أتعامل مع رواية «مئة عام من العزلة» من منطلق الخبير لا القارئ الذكي. انتهيت بعد أيام من قراءة الرواية الـ «344» صفحة ما إن انتهيت من الجملة الأخيرة التي «السلالات التي قدر لها القدر مئة عام من العزلة لا يمنحها القدر على الأرض فرصة أخرى» -ترجمة سامي الجندي-، أصبت بحالة من التشوش لضخامة الأحداث التي أراد ماركيز أن يسردها، وضعت في متاهة الأسماء المتشابهة التي يطلقها آل بوينديا على أنفسهم جيلاً بعد جيل، وبعد سنوات سأعرف لماذا وضع ماركيز خريطة على حائط غرفته بها أسماء أبطال الرواية وأبنائهم وأحفادهم. كانت الرواية بالنسبة لي أشبه بالرعب، لم يكن لي الصبر لأتتبع بدقة مصائر الأبطال، سيخبرنا ماركيز في سيرته الذاتية «عشت لأروي» -ترجمة صالح علماني- أنه أصيب بالرعب عندما قرأ رواية جيمس جويس «يوليسيس» لأول مرة: «قرأته بتعثر، إلى أن لم يعد

بعد الصبر بسمح لي بالمزيد. لقد كان رعباً مبكراً».. هل كنت قارئاً جيداً لمئة عام من العزلة، احتفظت برأيي ولم أبح به، فقد كان الكثير من زبائن المكتبة قد قرأوا الرواية وعلامات الإعجاب تبرز على وجوههم كلما جاء اسم ماركيز.

كان الراحل جبرا إبراهيم جبرا قد ألقى عليَّ من قبل درساً ثقافياً، عندما وصفت له حالة الملل التي أصابتني وأنا أقرأ رواية وليام فوكنر «الصخب والعنف» -ترجمها جبرا إلى العربية- قال لي آنذاك إن بعض الكتب هي نتاج عزلة الكاتب ومعاناته في سبيل اكتشاف لمحة من العبقرية في الصفحات التي كتبها والتي سيتحول من خلالها إلى أيقونة أدبية.

يقال إن ماركيز عندما انتهى من كتابة «مئة عام من العزلة» أحس بالفراغ وكأن أصدقاءه وافتهم المنية، «الإحساس بالفراغ كان انطباعي الأول وأنا انتهي من قراءة رواية ماركيز، وهو نفس الإحساس الذي شعرت به عندما انتهيت من الصخب والعنف وأيضاً مع رواية فرجينيا وولف السيدة دالاوي». يقال إن ماركيز كان شغوفاً بالقراءة، وعندما نراجع سيرته الذاتية «عشت لأروي» سنجده يتحدث عن الكتب التي رافقته خلال حياته ولعل أبرزها روايات فوكنر، الجبل السحري لتوماس مان، ألف ليلة وليلة، نوستراموس لجوزيف كونراد، يوليسيس لجيمي جويس، أوديب ملكاً لسوفوكليس، موبي ديك لهرمن ميلفيل، أبناء وعشاق للورنس، المسخ لكافكا، الشيخ والبحر لهمنغواي، قصص بورخيس، عناقيد وغضب لشتاينبك، طريق التبغ لأرسكن كالدويل، روايات فرجينيا وولف، وفي حوار مع مجلة باريس ريفيو يتحدث عن الأثر الذي تركته بعض الكتب في عمله الأدبي قائلاً: «يمكن أن أعزو تلك التأثيرات إلى بعض الكتاب الذين ساعدوني على التخلص من بعض مواقفي الفكرية التي درجت عليها قصصي» من هم هؤلاء الكتاب. إنهم أصحاب الكتب المملة، فوكنر، جويس، فرجينيا وولف، هرمان ميلفل وملحمته موبي ديك، حيث يشير إلى بعض الكتب ومنها كتب فوكنر كانت لها: «علاقة كبيرة بروحي».

في حوار أجراه مع إرنست بيرميخوا عام 1971 يقول ماركيز: «كُتب عن مئة عام من العزلة رزم ورق متخمة، بعضهم وجد جوانب تافهة، والبعض

الآخر جوانب مهمة. وجوانب ذات تبعات بعيدة المدى. لكن ولا واحد منها تناول ما كان شغلي الشاغل أثناء كتابة الرواية، ألا وهي فكرة أن العزلة هي نقيض للتضامن، أظن أن هذه الفكرة هي أساس الرواية» -أنا مشهور قبل أن يعرفني أحد، ترجمة ميادة خليل-

ما الذي يجعل أي كتاب عظيماً؟ يعتمد الحكم على الكتاب أحياناً، على ما يكتب عنه من نقد أو مراجعات في الصحف، وأحياناً أخرى على رأي القراء.. ولكن علينا الانتباه إلى أن الإعجاب بكتاب ما يعتمد على وجهة نظرنا فيه، فبعض الكتب نقول عنها عظيمة لأنها حازت على هذه السمعة عبر العصور مثل روايات دوستويفسكي وستندال وفلوبير، والبعض الآخر يعتمد على المتعة التي تمنحها للقارئ مثل روايات موراكامي أو كتب كارلوس زافون أو رباعية نابولي للإيطالية فيرانتي، وأحياناً نطلق على رواية أنها عظيمة دون أن نقرأها، لأنها حصلت على هذه السمعة الطيبة بإجماع الذين قاموا بقراءتها أو الذين شاهدوها فقط على أرفف المكتبات مثل يوليسيس أو البحث عن الزمن المفقود. وقد تبدو صعوبة هذه الروايات لبعض القراء دليلاً على عبقرية الروائي.. إلا أن بعض الروايات تصبح عظيمة لأن الجميع يُقبل عليها.. كان برنادشو يقول إننا نقرأ أحياناً بعض الأعمال الأدبية التي حازت على شهرة كبيرة بالطريقة التي نأكل بها الأطعمة الغريبة، فأنت لا تحبها تماماً ولكن الجميع يقول عنها إنها أطعمة خارقة.. ولعل روايات ماركيز وبالأخص «مئة عام من العزلة» مثل الأطعمة الغريبة التي تحوي أشياء لم تخطر على بالنا.. ولهذا سواء كنت قرأت، أو لم تقرأ كلمة من روايات غابريل غارسيا ماركيز، فأنت بالتأكيد تجد نفسك مدمناً على الحديث عنها.. فالواقعية السحرية التي برع بها ماركيز هي الوحيدة التي تجعل أغرب أحلامنا متاحة ويمكن تصديقها بشدة. فماركيز برع في أن يدمج عناصر خيالية في بيئة «واقعية»، نساء يطرن في سماء طبيعية، جد يعيش على مدى قرون، ولكن لا أحد يلاحظ أن شيئاً تغير فيه، خلطة روائية غريبة فيها الشخصيات التي نحبها والتي نكرهها، القضايا الفاشلة في الحياة، الحب، والجنس، العنف، والخلافات التي لا نهاية لها، المأساة، والمؤامرات، الميلودراما، والواقعية، فقد قرر ماركيز أن تصل أعماله إلى

أكبر عدد ممكن من الناس، ليحقق المتعة والتسلية.. بكتب الناقد الأدبي الشهير هارولد بلوم: «انطباعي المبدئي، أثناء إعادة قراءة «مئة عام من العزلة» هو نوع من إجهاد المعركة الجمالية، طالما أن كل صفحة مفعمة بحياة كاملة فيما وراء قدرة أي قارئ واحد على امتصاصها. إن هناك بعداً جديداً مضافاً للقراء بهذا الكتاب. قارئها المثالي يجب أن يشبه الشخصية المثيرة للتذكر بشكل أكبر، كولونيل أوريليانو بوينديا الغاضب المتعالي الذي بكى في رحم أمه وولد وعيناه مفتوحتان. لا توجد جمل بلا قيمة، لا توجد مجرد انتقالات في هذه الرواية، وعليك أن تلاحظ كل شيء في اللحظة التي تقرأها. كل شيء سيتماسك، على الأقل الأسطورة والمجاز إن لم يكن دوماً المعنى الأدبي» -ترجمة أمير زكي-

في معظم رواياته سيحاول ماركيز أن يخدع القارئ لكي يصدقه، وهو يستخدم مهارته الصحفية التي تعلم منها كيف يستخدم تفاصيل محددة للغاية عند وصف الأحداث الرائعة. وجد أن القراء كانوا أكثر ميلاً إلى تصديقه عندما وصف الأشياء الغريبة والخارقة، أصر على أنه كان يقدم الحقيقة ببساطة كما يراها: «الحقيقة ليست مجرد الطريق التي تحت قدميك. إنها أيضاً خرافات عامة الناس».

عندما صدرت مئة عام من العزلة عام 1967 كانت وجهات النظر عنها مختلفة عن تلك التي قيلت عنها بعد سنوات، وهذا ما حصل معي عندما عدت إليها بعد صدور ترجمة جديدة لها قام بها صالح علماني.

في كتابه سنة القراءة الخطيرة -ترجمة محمد الضبع- يصف آندي ميلر معاناته مع «مئة عام من العزلة» حيث يقول إنه وجد من الصعب عليه أن يجد أرضاً مشتركة بينه وبين رواية ماركيز: «كانت تعتبر رواية ثورية، رومانسية، ألعاباً نارية للخيال، لكني لا أجد شيئاً من هذا فيها. تبدو بالنسبة لي كخدعة جيدة تم تكرارها كثيراً». بالنسبة لي لا أريد أن يكون تصوري عن الرواية شبيهاً لتصور السيد أندي ميلر، فأنا مثله أعلم جيداً أن رواية ماركيز تعني الكثير للعديد من القراء الذين وصل عددهم إلى أكثر من مئة مليون قارئ حول العالم.

لماذا تذكرني مئة عام من العزلة برواية فوكنر الشهيرة الصخب والعنف، كنت أقرأ فوكنر بجدية برغم حالة الملل التي تنتابني، ولهذا أحسست أن تقنية فوكنر هيمنت على ماركيز، وهذا ما يخبرنا به ماركيز في حوار أجراه معه بيلينبو أبوليو مندوزا -نشر في كتاب رائحة الجوافة- حيث يشير إلى التماثل الجغرافي، لا الأدبي بين عمله وعمل فوكنر، وعندما يحشره مندوزا في زاوية ضيقة بتوجيه انتباهه إلى تشابهات تتعدى النطاق الجغرافي «هناك خط معين من النسب بين العقيد سارتوريس عند فوكنر والعقيد أوريليانو بوينديا في مئة عام من العزلة، بين ماكوندو ويوكناباتوفا كونتي في الصخب والعنف، يقول له مندوزا: عندما تحاول ألا تعترف بفوكنر كعنصر مؤثر ومهم، ألا ترتكب بذلك جريمة قتل ضد أقرب الناس إليك»، يجيب ماركيز: «ربما أكون كذلك. لذلك قلت إن مشكلتي لم تكن في كيفية تقليد فوكنر، ولكن في كيفية تدميره. لقد كان تأثيره يشل حركتي».

يبدو ماركيز سعيداً بأن روايته «مئة عام من العزلة» استطاعت أن ترضي القراء، يقول لمندوزا: «عندما قال لي ناشرها بالإسبانية إنه ذاهب لطباعة ثمانية آلاف نسخة منها صدمت لأن كتبي الأخرى بيع منها فقط سبعمائة نسخة فسألته لماذا لا يكون العدد أقل مما قلته، قال إنه مقتنع بجودتها ويتوقع منها أن تباع ثمانية آلاف نسخة خلال الفترة المحصورة بين أيار وكانون الأول، لكنها في الواقع بيعت جميعها خلال أسبوع واحد في بوينس آيرس».

عام 1949 يقف وليام فوكنر ليتسلم جائزة نوبل للآداب وليقول للعالم: «أنا أؤمن أن الإنسان ليس فقط سيتحمل: ولكنه سينتصر. إنه خالد، ليس فقط لأنه الوحيد بين المخلوقات الذي لديه صوت لا يهدأ ولكن لأن لديه روحاً، نفساً قادرة على الرحمة والتضحية والتحمل. واجب الشاعر والكاتب هو أن يكتب عن هذه الأشياء. إنه امتيازه ليساعد الإنسان ليتحمل عن طريق تعلية قلبه، بتذكيره بالشجاعة والشرف والأمل والفخر والرحمة والشفقة والتضحية، تلك التي كانت مجد ماضيه»، في ذلك الوقت كان ماركيز يبلغ من العمر 22 عاماً، يبدأ مهنته في الصحافة ويجرب كتابة القصص القصيرة. في ذلك الوقت قرأ كافكا وتعلق برواية فوكنر الصخب والعنف، بعد 33

عاماً سيقف ماركيز في نفس القاعة التي وقف فيها فوكنر ليستلم جائزة نو
وليقول للجنة الجائزة: «في مثل هذا اليوم، قال معلمي وليم فوكنر في هذ
المكان: أرفض تقبل نهاية الإنسان. ولست أجد نفسي جديراً أن أشغل هذ
المكان لولا وعيي الكامل بأن الكارثة التي رفض تقبلها منذ ثلاثة وثلاثين
عاماً هي الآن، للمرة الأولى، منذ أصول البشرية، ليست أكثر من احتمال
علمي. وحيال هذا الواقع المباغت الذي كان يمكن له أن يبدو عبر زمن
البشرية كله أشبه بيوتوبيا، نشعر نحن مختلقي الخرافات الذين نصدق كل
شيء، بأن لنا الحق في تصديق أن الوقت لم يفت بعد للانطلاق في إبداع
اليوتوبيا المعاكسة. يوتوبيا حياة جديدة وساحقة، حيث لا يمكن لأحد
أن يقرر عن الآخرين حتى طريقة موتهم، وحيث تجد، أخيراً وإلى الأبد
السلالات المحكومة بمئة عام من العزلة فرصة ثانية على الأرض» -لم آت
لألقي خطاباً، ترجمة صالح علماني-.

-13-

الروائي الذي قرّر
أن يُشغل النقاد ،300، عام

لا يمكنك أن تكون من عشاق الرواية دون أن تتعثر برواية «يوليسيس»، وسيطلب منك مؤلفها المواطن الإيرلندي جيمس جويس أن تكون صبوراً، ولا يهم أن تتململ أحياناً، وترمي الكتاب جانباً في أحيان أخرى، وربما تعصر دماغك وأنت تقرأ كلماته، بينما يُخرج لك أبطالُ الرواية ألسنتهم ساخرين لأن معرفة كيف يكتب جيمس جويس رواياته هي دليلك للدخول إلى عالم الرواية الحديثة. عندما تعثرت للمرة الأولى برواية جيمس جويس، كنت تحت تأثير مسرحيته «منفيون» التي كتبها جويس عام 1918 -صدرت ترجمتها العربية في أوائل السبعينيات ضمن سلسلة المسرح العالمي-، وهي المسرحية الوحيدة التي كتبها جويس، وكانت تجربة صعبة لأبطال منعزلين يبحثون عن ذواتهم، وكنت أتمنى أن أقرأ روايته يوليسيس التي يتم ذكرها أكثر من مرة في المقدمة التي كتبها المترجم أمين العيوطي.

مجلة الكاتب المصري كانت نقطة الانطلاق نحو جويس، فقد عثرت فيها على مقال كتبه لويس عوض بعنوان «جيمس جويس» وفيه ينبهني إلى أن صاحبنا الذي سخرت من مسرحيته يعد «إمام القصة في القرن العشرين ومجددها» قال عنه ت.س. إليوت إنه أعظم من كتب بالإنكليزية بعد الشاعر جون ميلتون مؤلف «الفردوس المفقود»، ويخبرني لويس عوض بما فعله برنادشو عندما قرر أن يجعل من رواية يوليسيس طعاماً لنار المدفأة وهو يردد: «إن هذا الكتاب يثبت أن رجال دبلن وغلمانها لا يزالون على ما كانوا

عليه في أيامي من قذارة في التفكير لا سبيل إلى إزالتها». هذه إذن رواية يوليسيس التي أصابت روائياً شهيراً مثل د. ه. لورنس بالملل.

ألم يسبق لك أن وقعت في سوء فهم مع كاتب إلى حد كنت تخشى الاقتراب من كتبه، وإلى عدم الرغبة في مواصلة قراءته، وبكلمة واحدة أن تشعر بالخوف منه؟ سيفهم قصدي كل من جرب قراءة يوليسيس أو رواية البحث عن الزمن المفقود، أو حتى السيدة دالاواي، مثل هذه الروايات كنت أسمع زبائن المكتبة يتكلمون عنها دون أن يقرأوها كاملة، الكثير منهم جرب قراءة يوليسيس، لكنه بعد عدة صفحات يقرر إعادة الكتاب إلى الرف، ألم يخبرنا جويس نفسه أن القراء والنقاد سينشغلون بحل ألغاز روايته لمئات السنين.

في الثاني من شباط عام 1922 أعلنت مكتبة «شكسبير ورفاقه» التي أسستها السيدة الأمريكية «سيليفا بيتش» عام 1919 في باريس عن إصدار طبعة كاملة من رواية جيمس جويس «يوليسيس». كانت سيليفا بيتش قد قابلت جيمس جويس عام 1920 في إحدى الحفلات الأدبية وتصف لنا لحظة مشاهدتها للكاتب الإيرلندي في كتابها «شكسبير ورفاقه» -ترجمة رياض حمادي- قائلة: «كان متوسط الطول نحيفاً منحنياً قليلاً، وبملاحظة يديه ستجدهما هزيلتين للغاية يضع خاتمين في إصبعيه الوسطى والثانية، من يده اليسرى، مرصعين بحجرين ثقيلين، وعيناه ذواتا اللون الأزرق القاتم، كانتا في غاية الجمال. لكني لاحظت العين اليمنى لها مظهر غير طبيعي، وأن العدسة اليمنى لنظارتيه كانت أكبر سمكاً من اليسرى. كان شعره كثيفاً، رملي اللون، مموجاً، ومنسدلاً من جبينه العالي المسطر فوق رأسه الطويل. يعطي جويس انطباعاً بالرقة والشفافية. كانت بشرته فاتحة جميلة، فيها قليل من النمش، ومتوردة إلى حد ما. أنفه جميل الشكل، وشفتاه رفيعتان ومحددتان بعناية. سحرني صوت جويس بنغماته الحلوة التي يلفظها كمغني تينور. نطقه واضح على نحو استثنائي».

في نهاية عام 1917 أنهى جيمس جويس الفصول الأولى من يوليسيس واستعد لطباعتها على الآلة الكاتبة، وكان قد عرض ذلك على ناشرة مجلة «الفيردي» وهي مطبوع صغير كان له تأثير في الحياة الأدبية، أن تحاول إصدار

الرواية على شكل حلقات، وبما أن الأنسة وبفز صاحبة المجلة، كانت تؤمن إيماناً راسخاً بعبقرية جويس، فقد وافقت فوراً على نشر الفصول الأولى، إلا أن الرواية لم تلاق النجاح المطلوب بسبب غرابة أحداثها، والتعقيد الذي تعمده جويس في لغتها، كما أن الحكاية تروى بطريقة معقدة جداً، لأنها تصوير لنشاط الإنسان في هذا العالم وليس مجرد وصف لجماعة من الأفراد في مدينة دبلن. وقد كان جيمس جويس يرى في أوديسة هوميروس الرواية الكاملة الأدب من خلال شخصية يوليسيس، وكان يحلم بأن يعيد بعث هذه الشخصية في القرن العشرين ليعرض من خلالها الإنسان بكل جوانبه، فهو جبان وبطل معاً، حذر ومتهور في آن واحد، ضعيف وقوي في الوقت نفسه، زوج وعاشق أيضاً، كريم وبخيل معاً، طالب ثأر ومتسامح وسخيف، ولهذا فقد حاول جويس أن يجعل مغامرات بطله ليبولد بلوم تسير على غرار ذلك النموذج في ملحمة هوميروس، لذلك يمكن للقارئ أن يجد في كل الأحداث التي يمر بها بلوم خلال يومه الطويل في دبلن، ما يقابلها في مغامرات يوليسيس في الأوديسة، فبلوم هو كل إنسان عاش في هذا العصر، ودبلن هي العالم مصغراً. بعد أن شعر جويس بأن الرواية لم تنل حظّها في لندن، طلب من صديقه «عزرا باوند»، أن يساعده هذه المرة في نشر الرواية في الولايات المتحدة الأمريكية. تظهر الحلقة الأولى من الرواية في نيويورك في العاشر من آذار عام 1918. وقد لقيت الفصول الأولى نجاحاً كبيراً، لكن هذا النجاح لم يبدّد قلق باوند على الرواية، حيث كان متيقناً أن بعض أقسام يوليسيس سوف تُمنع من النشر. وكما توقع قامت دائرة البريد الأميركية بمصادرة وحرق المجلة التي نشرت فصول الرواية بعد أن قال الرقيب إن الرواية تحوي ألفاظاً بذيئة تسيء إلى المجتمع، وقام سكرتير جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة برفع شكوى رسمية ضد الرواية، ليصدر قرار المحكمة باعتبار الكتاب مثيراً للقرف.

كان السؤال الذي طرحته سليفيا بيتش عند لقائها الأول بجيمس جويس هو: ما هي أخبار يوليسيس؟.. قال لها إنها تعاني مزيداً من القمع.. كانت الرواية تخوض معارك في لندن أيضاً حيث كانت المطابع الإنكليزية متحفظة على اسم جويس.

ارتبطت سليفيا بيتش بعلاقة صداقة مع عائلة جويس، كانت تذهب إلى بيتهم باستمرار.. وتقول في مذكراتها إنها استغربت استمتاع جيمس جويس بوصف زوجته «نورا» له بالكسول الذي لا يرجى منه خير. لم تكن زوجة جيمس جويس تحب قراءة الكتب، قالت مرة إنها لم تقرأ ولا صفحة من «يوليسيس». تتذمر من زوجها الذي لا يكف عن الكتابة، والذي يبحث دائماً عن الورق وقلم الرصاص الذي «يخرمش» به على حد تعبيرها. كان جويس من جانبه يعتبر نورا أفضل الحظوظ التي حالفته في حياته. كان في الثانية والعشرين من عمره عندما التقاها للمرة الأولى في ذلك اليوم عام 1904 على أحد جسور دبلن، كانت فتاة متوسطة الجمال، تعمل منظفة للغرف في أحد الفنادق. وما إن رآها حتى قرر أن تكون له، وأن يكون لها! وفي ما بعد سوف تحضر في معظم أعماله. وستكون مؤثرة فيها بشكل كبير، وستوحي له بكتابة مونولوج (ليوبولد بلوم) الشهير الذي أنهى به روايته «يوليسيس».

جيمس جويس المولود في الثاني من شباط عام 1882 بمدينة دبلن في إيرلندا، أكبر الأولاد لعائلة من اثني عشر فرداً، عاشت سنينَها الأولى في بحبوحة وثراء، إلا أن إدمان الأب على الخمر والقمار نقلها إلى الفقر، أرادت والدته المتدينة أن يصبح ابنها قسيساً، فأدخلته مدرسة اليسوعيين، لكنه وهو في الثانوية أخذ يشكك في المعتقدات الدينية، فانتقل لدراسة اللغات، وأخذ يقبل على قراءة الأدب اليوناني وخصوصاً ملاحم هوميروس، وأُغرم بدانتي، وكان يحفظ بالإيطالية مقاطع كاملة من «الكوميديا الإلهية». عام 1905 حاول جويس نشر أول أعماله «ناس من دبلن»، قدمها إلى خمسة عشر ناشراً. الجميع رفض طباعتها إلا بعد إجراء تغييرات عليها خوفاً من الرقابة، لكنها ستصدر عام 1906 من مطبعة صغيرة، وستواجه الناشر مشكلة بعد أن قررت الرقابة مصادرة الكتب المطبوعة، عام 1916 حاول جويس نشر عمله «صورة الفنان في شبابه» مرة أخرى ستواجه بالرفض إلا بعد أن تتم مراجعتها وهو الأمر الذي كان يرفضه جويس دائماً.

عانى في حياته التي بلغت «59» عاماً -توفي في الثالث عشر من كانون الثاني عام 1941 في سويسرا- من مشكلات صحية، فقر دائم للدم وآلام

في المفاصل، وخضع لخمس وعشرين عملية جراحية في عينيه انتهت إلى إصابة إحداهما بالعمى التام.

ذات يوم ستقول سيلفيا بيتش لجويس: «هل تسمح لشكسبير ورفاقه أن تحظى بشرف نشر يوليسيس؟ لم تتوقع أن يوافق كاتب كبير أن تنشر روايته دار نشر صغيرة، لكنه سيعود إليها في اليوم التالي ليعلن موافقته. بعد أيام ستنشر سليفيا بيتش إعلاناً في إحدى الصحف بأن رواية «يوليسيس» ستنشر كاملة. ونص الإعلان على أن الطبعة محدودة بألف نسخة وستوقع من قبل الكاتب، وأن باب الحجز مفتوح على نسخ من الرواية، ثم وضعت في الإعلان صورة صغيرة لجيمس جويس يبدو نحيلاً وملتحياً.. لم تتوقع بيتش أن الإعلان سيحفز الناس على الإقبال لحجز نسخ من الرواية.. ففي الأسبوع الأول تراكمت الاشتراكات. ترك لها عزرا باوند اشتراكاً بمبلغ محترم يحمل اسم الشاعر الشهير ويليام ييتس، كما حجز إرنست همنغواي عدة نسخ. وهناك نسخ حجزها سكوت فيتزجيرالد ولم يكن قد أصدر غاتسبي العظيم بعد -صدرت عام 1925- ونسخة حجزها الناقد أرشيبالد ماكليش. ورفض برنادشو الاشتراك قائلاً: «إنني سيد إيرلندي مسن، فإن كنت تتصورين أن أي إيرلندي سيدفع 150 فرنكاً في مثل هذا الكتاب، فأنت تعرفين القليل عن أبناء بلدي».

انتشرت أخبار «يوليسيس» سريعاً في باريس وازداد الطلب عليها، لكن بعد مرور عدة شهور، بدأ المشتركون يشعرون بالقلق، وكانت سيلفيا بيتش معرضة لتهمة خداع الجمهور. وكان من بين من طالبوا بسرعة تزويده بنسخته الروائي الإنكليزي «د.ه.لورنس».. لكن الطباعة ستتأخر، وكانت إحدى المشاكل تتعلق بالغلاف حيث أصر جويس أن يكون لون الغلاف أزرق مثل لون بحر إيجه اليوناني.. وأيضاً واجهتهم صعوبة في تنضيد الرواية، لغرابة خط جيمس جويس والمفردات التي استخدمها، ويتذكر جويس أن إحدى الضاربات على الآلة الكاتبة، قرعت جرس شقته ذات يوم وما إن فتح الباب حتى ألقت الصفحات في وجهه.. ظلت الطباعة تتقدم ببطء. وستتعرض أجزاء من الرواية المخطوطة إلى التلف حين التقط زوج إحدى كاتبات الطابعة أوراقاً منها وما إن قرأها حتى ألقاها في النار وهو يشتم الكاتب. تمت الاستعانة بنسخة مخطوطة موجودة عند أحد أصدقاء جويس في نيويورك.. في هذه الأثناء تعرض جويس لآلام في عينه

توجب إجراء عملية جراحية له، في ذلك الوقت كان يعاني من مشاكل مالية، الإفلاس يحاصره، يعمل في تدريس اللغات لإعالة عائلته، لكنه توقف عن العمل بسبب بوليسيس التي كان يخصص لها سبع عشرة ساعة كل يوم لمراجعتها، قررت الناشرة سيلفيا بيتش أن تمنحه بعض السلف المالية على حساب الرواية لإعالة عائلته المكونة من أربعة أفراد. كان عيد ميلاد جويس يقترب وقررت صاحبة «شكسبير ورفاقه» أن تصدر الرواية في عيد ميلاده المصادف الثاني من شباط، وهذا ما حصل حيث وصلت نسختان من الرواية صبيحة الثاني من شباط عام 1922 إلى مكتبة شكسبير ورفاقه، لتسرع سيلفيا بيتش إلى شقة جويس تسلمه النسخة رقم واحد، أما الثانية فقد احتفظت بها في المكتبة. ها هي بوليسيس أخيراً بين يدي جيمس جويس بغلافها الأزرق اليوناني، تحمل العنوان واسم المؤلف بحروف بيضاء وبعدد صفحات «732». ستصل بعد أيام الألف نسخة إلى المكتبة التي تم بيعها في غضون شهر. أُعيد طبع الكتاب بسرعة، ولكن بسبب المنع الذي صدر ضد الرواية، لم يكن من الممكن نشرها في بريطانيا أو أمريكا. كانت الطبعتان الثانية والثالثة، قد نفدتا في تشرين الأول عام 1922، تمت مصادرة عشرات النسخ المهربة إلى أمريكا وبريطانيا. ستصدر الطبعة الرابعة والخامسة والسادسة بغلاف مختلف اللون. عام 1933 صدر قرار المحكمة بالسماح بنشر بوليسيس في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد قال القاضي في قراره إن: «الكلمات التي يتم انتقادها على أنها قذرة هي كلمات يعرفها جميع الرجال تقريباً». وخلص القاضي إلى أن جويس فنان عظيم في الكلمات وأن الكتاب لا يمكن اعتباره إباحياً. في عام 1936 سحبت المحاكم البريطانية اعتراضاتها على بوليسيس، لتصدر طبعتها الأولى في لندن.

هل يمكن تلخيص رواية «يوليسيس»؟، قبل ذلك سأروي حكايتي مع الرواية: في منتصف السبعينيات عثرت في دار الكتب القديمة التي كانت تقع في شقة وسط شارع الرشيد على نسخة من بوليسيس بعنوان «عولس» ترجمة محمد لطفي جمعة الذي عرفت فيما بعد أنه مترجم وروائي، موسوعي، ويجيد العديد من اللغات، كتب وترجم في الفلسفة والاقتصاد والأدب وكتابه الشهير «تاريخ فلاسفة الإسلام» يعد مصدراً مهماً. الجزء السهل في كتاب محمد لطفي جمعة هو المقدمة التي كتبها للرواية وفيها

يدافع بحرارة عن جيمس جويس حيث يصف روايته بأنها «قصة رائعة، لا أول لها ولا نهاية ولا وسط، لأنها قصة الحياة بفرحها وحزنها وعبرتها، قصة كونية رائعة خالدة». بعدها يكتب بحماس مفرط: «جاهل من ظهر جاهل، سواء أكان في الشرق أو الغرب من يزعم أن عولس ليس كتاباً كاملاً، راعى فيه مؤلفه تسلسل الزمان ووحدته، بل من يقول ذلك أعمى منه وأضل سبيلاً من يقلده قبل أن يقرأ تلك الملحمة الكبرى قراءة درس وفحص وتمحيص».

قالت الرواية أشياء لم أفهمها حقاً، وكان لا بد أن أستعين بأحد زبائن المكتبة المترجم يوسف عبد المسيح ثروت سألته: «هل قرأت عولس؟» اكتشفت أن السؤال كان غبياً عندما ابتسم بضيق وهو يصحح لي الكلمة: يوليسيس وليس عولس، وأضاف: نعم. تحدثت معه عن جيمس جويس كان عندي فهم ضبابي للغاية عن هذا الكاتب المحير، معلوماتي مستمدة من مقدمة مسرحيته «المنفيون» كنت أرددها أمام المترجم القدير مثل الببغاء، إضافة إلى أنني لم أقرأ من رواية «عولس» سوى صفحات قليلة. كنت أريد أن أقول شيئاً لا يكشف عن جهلي ويُظهر أنني قارئ جيد، كما أفعل مع معظم زبائن المكتبة، حدق في الكتب المرصوصة على أحد الرفوف، كما لو كان يدرك جيداً أنني وقعت في مأزق مع هذه الرواية قائلاً: من الصعب وضع طريقه لقراءة رواية مثل يوليسيس. قد يكون من الأسهل قراءة فصل واحد في كل مرة، مع مراجعة لأدب جويس. قلت له: ألا يمكنك قراءتها بالكامل، قال وهو يمد يده لسحب أحد الكتب: يعتمد ذلك على مدى قدرة دماغك على استيعاب الرواية. ثم أضاف: الترجمة التي نشرت للرواية ليست كاملة، إنها طويلة جداً، إنها رواية استثنائية لأنها تروي لنا أحداث يوم واحد فقط. بعدها قدم لي نصيحته الذهبية اقرأها باعتبارها رواية، صحيح أنها معقدة بموضوعاتها، فهي وقبل كل شيء درس كبير في الإتقان الفني، إذا لم تتمكن من اكتشاف روعة الجانب الفني فيها، عليك أن تتركها لتعود لها بعد أن تصبح ناضجاً. استغرق الأمر مني سنوات حتى أصبح قارئاً ناضجاً، وأعود من جديد إلى يوليسيس، وهذه المرة بترجمة طه محمود طه، الذي أتحفنا قبل صدور ترجمته بموسوعة ثمينة عن جويس وأعماله كانت مفتاحاً للدخول إلى يوليسيس من جديد رغم أن المترجم طه محمود طه ينبهني إلى

أن «عوليس» رغم أنها لا تزال تثير اهتمام النقاد والأدباء وحجزت لها مكاناً في بحوث علم النفس، فإنها تحتاج إلى مفاتيح ليتمكن القارئ من الخوض في هذه المتاهة التي ما زالت ترفض البوح بأسرارها. أعود إلى يوسف عبد المسيح ثروت وهو يقدم لي نصيحة جديدة خلاصتها أن القراءة الجيدة لعمل مثل يوليسيس تتطلب البطء والتركيز، فالقارئ الجيد هو من لا يفوته شيء في النص. وأضاف أن مثل هذا القارئ يتوقف عند كل كلمة أو عبارة ذات دلالة، وينظر إلى ما قبلها وما بعدها بيقظة، عليه أن يكون حريصاً على أن لا يباغته الكاتب فيمرر عليه أشياء في غفلة منه. يصف نيتشه القارئ المثالي بأنه شديد الفضول. في الترجمة الأخيرة التي قام بها الشاعر والمترجم القدير صلاح نيازي يضع عبارة مهمة «بالبحث المتأني تجد طريقك إلى جيمس جويس». يكتب جويس أنه استقى نظريته في الكتابة من جملة لتوما الإكويني يقول فيها: «إن الأشياء الثلاثة التي ينبغي توفرها في الجمال هي: الاكتمال.. التوافق.. الإشعاع».عندما أعدت قراءة «يوليسيس» بترجمة صلاح نيازي وقعت تحت تأثير سحر أبطالها، وكنت الآن أرى دبلن التي يعيد جويس بناءها، شارعاً شارعاً، قال جيمس جويس إن إعادة بناء دبلن إذا دُمّرَت يوماً، يمكن أن تتم من خلال روايته «يوليسيس». اكتشفت أنني عندما قرأتها للمرة الأولى لم أكن قادراً على ممارسة القراءة البطيئة، ولم أكن أريد أصلاً أن أمارسها، وكنت أشعر بالضيق حين أكتشف أن هذه الرواية ليست عملاً واقعياً مسلياً. لكن هل كانت قراءاتي آنذاك خاطئة؟ أعترف بأنني أشعر في مرات كثيرة بشيء من الحنين عندما أتذكر ذلك المراهق وهو يصدق كل ما يقرأه، يكتب جيمس ميلر: «إن لم يقرأ المرء العمل الأدبي قراءة بريئة أولاً، فهو يحرم العمل مقدماً من فرصة في أن يكون له تأثير ذو قيمة على القارئ» -عن الأدب، ترجمة سمر طابه-.

يعتبر كثيرون «يوليسيس» رواية القرن العشرين، وفيها اختار جويس ثلاث شخصيات تعمّق في تصوير حياتها خلال أحداث يوم واحد.

في النهاية.إذا أردت أن تصبح قارئاً جيداً، عليك أن تكون أكثر شبهاً بجيمس جويس وهو يصر على إتقان الكتابة الجيدة. إنه درس تعلمته ببطء وعلى مدى أكثر من أربعين عاماً.

-14-

حيرتي مع سارتر
من الوجود إلى العدم

في صباي كنتُ أذهب بانتظام إلى المكتبة التي يملكها أحد أقاربي، واعتبر نفسي أحد العاملين فيها رغم معارضة صاحب المكتبة الذي كان يخشى أن يؤثر العمل على دراستي، فاقترح أن أعمل أيام العطلة الصيفية فقط، لكني اعتدت أن أعتبر المكتبة جزءاً من دراستي، فتجدني ما إن أنتهي من واجباتي المدرسية حتى تأخذني قدماي إلى حيث عالم الأغلفة الملونة، والكتب التي توزعت على الرفوف والمصاطب. في تلك السنوات كنت أحتفظ بأعداد من مجلة ملونة اسمها «المعرفة»، كانت تصل كل أسبوع مزينة بغلاف أحمر، تتوسطه صورة، أحياناً تكون لمجموعة من الكواكب، أو لآثار عالمية، أو لشخصيات لم أكن أعرف عنها شيئاً، كنتُ اقرأ صفحاتها بتمعن وبالكاد أفهم السطور التي تنتقل بي بين العلوم والتاريخ والجغرافية والطبيعة والأدب، وسحر آخر عبارة عن صفحة تتناول حياة بعض المشاهير، وعن طريق هذه المجلة تعرفت على أبي تمام وسمعت باسم نيوتن لأول مرة، وحيرتني حياة تشارلز ديكنز، وتألمت لتمزيق جسد امرأة يونانية اسمها «هيباتيا». وجدت نفسي منجذباً إلى تلك الصفحات بسبب غرابة حياة هؤلاء المشاهير والمدن العجيبة التي شهدت حكاياتهم، وكنت في الخيال أعيش أجواء هذه الحكايات وأتجول مع أصحابها، أتوقف وأنا أنظر إلى صورة فولتير وكيف ازدحمت شوارع باريس بمئات الآلاف لتوديعه عندما توفي. ويأخذني الخيال مع المتنبي وهو محاصر

في صحراء الأكوفة، وأرسم في ذهني صورة لجان جاك روسو يهرب ليلا بعد مطاردة الشرطة له. صور كثيرة لم تغادر ذهن الصبي كانت واحدة منها لرجل يجلس في المقهى والسيجارة في فمه، وأمامه كتاب يقرأ فيه، يتوسط الصورة عنوان «جان بول سارتر رائد الوجودية الفرنسية»، قرأت الموضوع، لكني لم أفهم شيئاً: ماذا كان يريد هذا الرجل الغريب الأطوار؟ بعدها سأعثر على مقال كتبه أنيس منصور في مجلة الفكر المعاصر بعنوان «سارتر حياته هي كلماته» وفيه يصفه بأنه «غريب في العالم، وهو غريب عنه أيضاً»، ويخبرني أنا القارئ الغشيم للوجودية أن فلسفة سارتر هي محاولة مستمرة لعقد صداقة مع العالم.

كان سارتر أول فيلسوف أحاول البحث عن خفايا حياته، كنت أتباهى في سني مراهقتي بترديد بعض عباراته الغريبة. وربما كان سارتر أكثر فيلسوف شعرت بأنه قريب مني، أقرأ رواياته ومسرحياته، لكني أخشى الاقتراب من كتبه الفلسفية. فيما بعد سأقتني كتاباً ضخماً بجلد أسود سميك بعنوان «الوجود والعدم» ترجمة عبد الرحمن بدوي -صدرت طبعة أخرى بعنوان الكينونة والعدم ترجمة أنطوان متيني-، كنت قد قرأت في مقال أنيس منصور أن كتاب سارتر هذا يعتبرونه إنجيل الوجودية، ورغم ذلك لم ينس أنيس منصور من أن يحذرني منه فهو «كتاب غامض لم تتمكن سوى قلة من قراءته وفهمه»، لكن رغم مشاعر فقدان الأمل التي تصيب كل من يحاول قراءة الكتاب أول مرة، فإن «الوجود والعدم» لا يزال حتى هذه اللحظة يحظى بسمعة جيدة، فهو من الكتب القليلة التي كتبت في القرن العشرين ناقشت بجدية الأسئلة المحورية حول الوضع البشري، عبر مفاهيم وتصورات فلسفية معينة، وقد شعر سارتر أن كتابه «الوجود والعدم» أصبح محصوراً بالنخبة، فنجده يحاول تبسيط فلسفته عبر روايات ومسرحيات.

قررت أن ألاحق سارتر من خلال كتبه وما ينشر عنه في المجلات والصحف. كنت قد بدأت بقراءة كتاب «الوجودية فلسفة إنسانية». لكني بعد عدة صفحات توقفت عن القراءة، ووضعت أمامي قائمة بالمصطلحات التي يردّدها سارتر «الماهية.. الوجود.. الظاهراتية.. القلق.. المسؤولية.. الحرية». كان الكتاب في الأصل محاضرة ألقاها سارتر في تشرين الثاني

عام 1945 في باريس وفيها أعلن أننا نوجد أولاً ثم نحقق ما نريد أن نكونه عبر تصرفاتنا.. ففي خياراتنا نحدد نوع وجودنا. إننا أحرار تماماً لتحديد ما نرغب في أن نكون عليه، لكن هذه الحرية تحمل معها عبء المسؤولية.

أنظر إلى صور سارتر التي تنشرها الصحف مرة أراه متجهماً، وفي بعض الصور يبدو ساهماً، صور كثيرة تلتقطها عدسات المصورين الذين كانوا يلاحقون فيلسوف الوجودية وهو يتنقل بين مقاهي باريس. وكنت أنا أيضاً أطارد سارتر من خلال كتبه، كأنني أشاركه رحلة التنقل من مكان سكنه إلى مقهى الفلور إلى شقة والدته. كانت كتبه التي بدأت بقراءتها قد حددت نوع القارئ الذي سأكونه، مثلما كانت الكتب قد شكلت حياة وتفكير جان بول سارتر منذ أن وجد نفسه يعيش في بيت جده: «في حجرة جدي كانت الكتب في كل مكان، وكنت لا أعرف القراءة بعد، ومع ذلك كنت أحترم هذه الحجارة المرفوعة. وسواء كانت قائمة أم مائلة، متزاحمة كقطع الطوب على أرفف المكتبة أم منفصلة بعضها عن بعض، فإني كنت أشعر أن ازدهار عائلتي موقوف عليها» -الكلمات، ترجمة محمد مندور- انتبه الجد إلى أن حفيده مغرم بشيء اسمه القراءة ويسترجع سارتر كيف أجلسه جده أمامه وكان في السابعة من عمره ليقول له بكل صرامة: «من المفهوم بالطبع أن الولد سيصبح كاتباً»، ثم نبهه الجد إلى أن الأدب لن يملأ معدته في يوم من الأيام.

في العشرين من أيلول عام 1939 يلتحق سارتر بالجيش بصفته جندي احتياط، في مقاطعة الألزاس يعيش هناك في غرفة صغيرة مع أربعة أشخاص يعملون جميعاً في وحدة الأرصاد الجوية: «الحرب اشتراكية، فهي تختزل الممتلكات الفردية للشخص في الشيء، وتعوضها بالممتلكات الجمعية. لم تعد ثيابي، مرقدي، أو أغذيتي ملكاً لي، لم يعد لي مسكن. كل ما أستعمله ملك للمجموعة» -سارتر، دفاتر الحرب الغريبة، ترجمة عبد الوهاب الملوح-. اعتاد سارتر خلال الأشهر الثمانية التي قضاها في هذا المكان أن يقرأ ويكتب بمعدل 11 ساعة في اليوم، فقد أنهى قراءة كتب فرانز كافكا، وتمتع بقراءة أسرار أندريه جيد كما سطرها في يومياته: «شرعت في قراءة أندريه جيد. كانت قراءة باذخة عموماً» -دفاتر الحرب الغريبة-. كانت

الكتب ترسلها له سيمون دي بوفوار كل أول شهر، إضافة إلى ذلك كان يواصل الكتابة في روايته سن الرشد، ويكتب في دفتر صغير ملاحظات فلسفية ستغدو فيما بعد كتاباً كبير الحجم بعنوان «الوجود والعدم»، الذي يدور حول العلاقة مع الآخرين، وسنجده من أيلول عام 1939 وحتى حزيران عام 1940 يملأ أكثر من خمسة عشر كرّاساً يسطر فيها وجهة نظره عن الحرب: «لقد كنت أخوض حرباً على صورتي، حرباً بورجوازية أنا الذي اخترت السلاح الذي أخوض الحرب به، فبما أنني كنت من أصحاب النزعة السلمية اخترت سلاحاً مسالماً بفضل توصية مكنتني من ذلك. وبما أنني كنت مناضلاً ضد النزعة العسكرية أردت أن أخوض الحرب بوصفي جندياً بسيطاً، أنا الذي كنت ضد الحرب لكوني مثقفاً. ثم بسبب عدم قدرتي على الحياة الطبيعية لإصابتي بالحول جُنّدت مع القوات الاحتياطية، أي مع الرجال المتزوجين الذين لديهم أطفال. ومن هنا كانت تلك الحرب بالنسبة إلينا حرباً غريبة بل مضحكة. كانت حرباً تعكس رغبتنا العميقة في عدم خوض القتال نحن الذين كنا نعرف أن هتلر لن يهاجمنا، وبالتالي كنا نتطلع إلى ترك الحرب نفسها تتعفن مدركين كنه مشاعرنا. بمعنى أنني كنت أرى نفسي معكوساً في تلك الحرب التي كانت هي بدورها تنعكس فيّ وتعيد إليّ صورتي. وكانت النتيجة أنني رحت أول الأمر أكتب عن الحرب لينتهي الأمر بي إلى أن أكتب عن ذاتي إذ باتت الحرب بالنسبة إلي أشبه بفترة نقاهة». -دفاتر الحرب الغريبة-

في الحادي والعشرين من حزيران عام 1940 يُعتقل سارتر، كان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، وسينقل بعد أيام إلى معسكر في ألمانيا باعتباره أسير حرب، يكتب في رسالة إلى سيمون دي بوفوار، أنه سعيد جداً، يشعر بأنه حر، كان يقرأ هيدغر، يخبرنا في حوار أجرته معه سيمون دي بوفوار -نشر في كتاب مراسم الوداع، ترجمة قاسم المقداد- أن أفكار كتاب «الوجود والعدم» تكونت انطلاقاً من دفتر صغير كتبه خلال الحرب.. وفي الأسر عندما يسأله أحد الضباط الألمان عما ينقصه، يجيب سارتر فوراً: هايدغر، ليحصل بعد أسابيع على نسخة مجلدة من كتاب «هايدغر» «الوجود والزمن»، كان هايدغر الذي نشر كتابه «الوجود والزمن» عام 1927

قد بحث عن الدور الفريد الذي يلعبه الإنسان في العالم، فالإنسان كما يرى هايدغر هو المخلوق الوحيد القادر على فهم «الوجود». بمعنى أنه قادر على التصرف بوعي إزاء نفسه، وإزاء الواقع الذي يعيش فيه. من هذه النقطة يبدأ سارتر الذي يخبر سيمون دي بوفوار في إحدى رسائله من المعتقل في تموز عام 1940 أنه بدأ بتحرير كتابه «الوجود والعدم». يؤمن سارتر كما يؤمن هايدغر بأن الإنسان قادر على التصرف بوعي إزاء «وجوده»، ويمكنه أن يقرر شيئاً، وأن يشكل كينونته، كما يمكنه أن يقول لا أيضاً.

في تشرين الأول من عام 1943 ينشر سارتر كتابه الأهم «الوجود والعدم»، لم يحقق الكتاب نجاحاً عند صدوره، لكن بعض المشتغلين في الفلسفة أدركوا أن حدثاً هاماً قد حصل، فللمرة الأولى وجدوا من يطبق الفلسفة على الحياة اليومية، ظل سارتر يقول إن مهمة الكاتب أن يتكلم بوضوح وبساطة، ويقول لألبير كامو في أول لقاء بينهما: «إذا فشلت الكلمات في تأدية واجبها فإن وظيفة الكاتب يجب أن تحول هذا الفشل إلى نجاح». في الوجود والعدم الذي سيصبح الركيزة الأساسية للوجودية الفرنسية يوضح سارتر ماذا تعني الحرية للإنسان، إنها: «المتأمل، والمتخيل، قوة العقل، قابليتها للحركة، سلبيتها المعطاة، قدرتها على النهوض من الأوضاع، الموصلة، إن أحجار المنزل لا تبني سجناً»، أما الإنسان فهو: «الوجود الذي يطمح أن يكون إلهياً». ذكر أندريه جيد أن سارتر يريدنا أن نقرأ الفلسفة كرواية مثيرة ومشوقة، فيما يخبرنا سارتر في الوجود والعدم، ومن ثم في معظم كتبه أننا نفعل كل شيء للهروب من حريتنا، فنحن نتحول إلى شيء يقول: ليس هذا خطئي، ولا نقول «هذا ما قررت أن أكون» هذه النية السيئة كما يسميها سارتر أحد المبادئ التكنيكية التي يتبناها كل فرد كي يتوقف عن تَحمل حريته. في أكثر من سبعمئة صفحة يقدم سارتر عرضاً للحرية بوصفها سمة من سمات تجربتنا التي تُمكننا من أن نلعب دوراً في هذه الأنشطة الإنسانية الفريدة مثل القراءة والمناقشة والتفكير والاختيار. التقط كتاب «الوجود والعدم» مزاج الحرب في فرنسا التي انهار فيها كل يقين قديم، حيث أدت الحرب إلى الفوضى في كل شيء؟ أراد سارتر أن يقدم طريقة جديدة في فهم الوجود. تُمكن الناس أن يختاروا مستقبلهم بكامل حريتهم. يقول

سارتر إننا لسنا مسؤولين ببساطة عما نفعله. نحن مسؤولون عن عالمنا. إن كل فرد يعيش «مشروعاً» معيناً في حياته وبالتالي فإن كل ما يحدث معنا يجب أن يكون مقبولاً كجزء من هذا الأمر. ويمضي ليقول إنه «ليس هناك من صدفة بالحياة». يقوم كتاب سارتر على تمييز أساسي بين أشكال الوجود المختلفة. ويثير سارتر الانتباه إلى الاختلاف القائم بين الوجود الواعي من جهة والوجود اللاواعي من جهة أخرى، فيسمي الأول «الوجود لذاته»، أما الثاني فيدعوه الوجود في ذاته. إن الوجود لذاته هو الوجود الذي يختبره البشر. ويلعب العدم كما يقترح عنوان الكتاب دوراً محورياً في عمل سارتر. حيث يعتبر الوعي البشري فجوة في صلب وجودنا، أي أنه عدم، فالوعي هو دائماً وعي شيء ما، فلا يكون ذاته أبداً. إنه ما يسمح لنا بإسقاط أنفسنا في المستقبل وإعادة تقييم ماضينا. إن العدم يدخل في تركيبة الإنسان، في تركيبة وعيه، لأن الإنسان محكوم عليه بالعمل كل يوم، وبالتالي هو يتغير باستمرار، وبالتالي لا يعود كما كان سابقاً، يقول سارتر إن «الإنسان هو ما ليس هو، وهو ليس ما هو» وقد يعتقد البعض أن الجملة لعب من ألعاب الألفاظ، لكنها عند سارتر تعني أن الإنسان هو ما ليس هو، يعني أن الإنسان لا يُكونه ماضيه، عليه أن ينسى كل ما كان، كل ما فعله سابقاً، عليه أن يعدم كل لحظة سابقة للحاضر، وينتزع نفسه من كل الماضي، وبالتالي الإنسان لا يصبح على الإطلاق وجوداً بسبب تراكم الماضي، إنه باستمرار يتخلص من الماضي، وينساه ويصبح قبل كل عمل يقوم به عبارة عن ورقة بيضاء جديدة، وبالتالي هو ما ليس، أي ما لم يقم به بعد.

ورغم أن سارتر مدين في عنوان كتابه «الوجود والعدم» لكتاب هايدغر «الوجود والزمان» فإن سارتر أصر أن يؤدي التحية من خلال كتابه إلى ديكارت بدلاً من هايدغر.

-15-

من أين نبدأ مع فيرجينيا وولف؟

لم أعد أذكر متى عثرت المرة الأولى على كتاب فيرجينيا وولف «القارئ العادي»، ولكني أتذكر أنني كلما أشاهد نسخة من الكتاب في شارع المتنبي أتوقف أمامها ثم ألتقطها من «البسطية»، بعدها أشعر بنوع من السعادة، وكان آخرها اليوم الجمعة عندما مددت يدي في جيبي لأدفع ثمن الكتاب، وبعد دقائق سأكتشف حتماً أن هذه ربما النسخة الخامسة أو السادسة التي أحتفظ بها في مكتبتي، وفي كل مرة أعترف أنني أقرأ هذا الكتاب الغريب للمرة الأولى، ولن أنتهي منه بعد.. وأيضاً لم أنته من قراءة روايات فرجينيا وولف وكل ما يتعلق بها.

مع قراءتي المتكررة لكتاب «القارئ العادي» -ترجمة عقيلة رمضان-، وجدت نفسي أشد تعلقاً بعالمها، إنها الكاتبة الأكثر جرأة في إظهار عوالمنا الداخلية، وما يختبئ داخل النفس البشرية. ولهذا أجد أن ما كتبته في «القارئ العادي» أشبه بنافذة نتلصص من خلالها على ما كانت تقرأه هذه المرأة التي أنهت حياتها غرقاً.

«يمكنني أن أتذكر الانفعالات التي ولّدتها الكتب الأولى في نفسي»، هكذا كتبت فرجينيا وولف في رسالة عام 1918، وجهتها إلى قارئة تسألها عن أهمية الكتب في حياة الإنسان.. اعتادت وولف أن تقرأ في الصالة الخضراء في منزلها الذي اشترته، وهو بيت بسيط في إحدى القرى مشيد بالحجر وسط حديقة كبيرة، حيث كان هذا البيت بالنسبة لها ملجأ للهدوء والطمأنينة: «هذا البيت عبارة عن مركب يحملني فوق أمواج القراءة والكتابة المقلقة والمخدرة في آن واحد». وفي غمار الحرب انزوت الكاتبة الشهيرة

في ركن من الصالة لتُعيد قراءة شكسبير ولتتعرف على أهواء النفس البشرية وهي تواجه الدمار وآلة القتل: «إن شكسبير يزوّدنا برؤية واضحة ومخيفة عن الطبيعة البشرية ومصير الإنسان».

في يومياتها التي نشرت بعد وفاتها سنكتشف أن فرجينيا وولف كانت تعتبر القراءة والكتابة جزءاً من حياتها، فقد كانت تعشق الكتب، وتبدي رأيها في كل ما تقرأه وجردة لعناوين القارئ العادي سنجد أسماء: «مونتاني.. شارلوت برونتي وشقيقتها إميلي.. كونراد، شكسبير الذي تعيد قراءته بانتظام، جين أوستن: «وفي قائمة القراءة الخاصة بها هناك شكسبير دائماً وهنري جيمس ودستويفسكي وجيمس جويس تكتب: «أعتقد أن بإمكاني العيش هنا سعيدةً والقراءة حتى انتهاء الزمن».

كيف نقرأ فرجينيا وولف؟ تنصحنا صاحبة «السيدة دولاواي» أن النصيحة الوحيدة التي تستطيع أن تسديها حول القراءة هي أن لا يتبع القارئ أي نصيحة، أن يتبع حواسه، أن يستخدم عقله، وأن يتوصل إلى استنتاجاته الخاصة. وتقدم لنا نصيحة أخرى أن قراءة الكتب ليس هدفها إلقاء الضوء على الأدب، ولا لكي نتآلف مع أشخاص الرواية، بل لكي نوقظ ونمرن طاقاتنا المبدعة.

قرأت رواية «السيدة دالاواي» للمرة الأولى في منتصف الثمانينيات، في النسخة التي أصدرتها دار المأمون بترجمة القدير عطا عبد الوهاب، في ذلك الوقت لم أفهمها كثيراً. كنت بعيداً عن أجواء مثل هذه الروايات، وأتذكر أنني أخبرت الراحل فؤاد التكرلي بالمحنة التي تعرضت لها، وشرحت له بعض اعتراضاتي على غرابة الرواية وبعدها عن هموم الناس، في ذلك الوقت تلقيت نصيحة ثمينة عندما قال لي: «إن الكتابة المغايرة تقدم رؤيا أصيلة للعالم عندما تستند إلى أساس فكري»، ثم شرح لي أفكار فرجينيا وولف، ومن ضمن حديثه تطرق إلى كتاب «القارئ العادي» الذي كان يقبع في زاوية من زوايا المكتبة التي أعمل فيها، فقررت أن آخذه معي إلى البيت لأعرف كيف تفكر هذه السيدة الغريبة. بعد قراءة الكتاب وتعرفي على رؤية فرجينيا وولف للأدب وللقراءة، شعرت بالخجل، لأنني تبجحت أمام فؤاد التكرلي عندما تحدثت عن مفهومي للأدب.

كان فؤاد التكرلي قد قال لي إن شخصيات فرجينيا وولف في السيدة دالاواي تقدم لنا لمحة عن الحياة وقلق الوجود، والمواقف التي يتخذها الإنسان في مواجهة الحياة.

في مقال ممتع بعنوان بعنوان «السيد بينيت والسيدة براون» -ترجمة خضير اللامي- تقدم لنا فرجينيا وولف تصوراً للقارئ والكاتب على أنهما غريبان يتعرف كل واحد منهما على الآخر بطريقة غير شخصية. تكتب وولف: «في الحياة وفي الأدب من الضروري أن يكون لدينا بعض الوسائل لهدم الهوة بين الكاتب وقارئه المجهول» ثم تضيف «يجب على الكاتب أن يتواصل مع قارئه بأن يحفز خياله، ويجعله مستعداً للتعاون». يتعلم القارئ، الذي تم تحفيزه بشدة، كيف يكون شريكاً للكاتب فيما أسمته وولف فن «قراءة الشخصية»: ممارسة الملاحظة والتأمل حول الناس، سواء في الحياة أو في الخيال.

بعد مرور ما يقارب الـ «40» عاماً على تعرفي للمرة الأولى على فرجينيا وولف من خلال روايتها «السيدة دالاواي» أعترف أنني فشلت آنذاك في أن أكون قارئاً جيداً، أمام تلك السيدة التي تريد أن تشعرنا أن للساعات في حياتنا أهمية كبيرة علينا أن نعرف جيداً كيف نقتنص لحظات الفهم والمعرفة فيها. كنت قارئاً كسولاً أو بتعبير أدق قارئاً عادياً مثلما تصفنا فرجينيا وولف في كتابها الممتع (القارئ العادي)، هذا القارئ الذي دائماً ما يبحث عن الأشياء السهلة التي تقدّم له بعضاً من المعلومات الضعيفة والبعيدة عن الدقّة. صادفتني السيدة دالاواي وأنا لا أملك خبرة في قراءة الرواية الحديثة.

حين وُلـدت فرجينيا وولف في الخامس من يناير 1882، لعائلة أرستقراطية تعيش في ضواحي لندن، ظن الجميع أنها لن تعيش طويلاً فقد كانت ضعيفة البنية، وكادت تموت تحت مرأى والديها، سترافقها الأمراض طيلة حياتها وتلزمها باتخاذ احتياطات طبية صارمة. هذا المرض تحول مع مرور الزمن إلى فرصة لأن تنسحب إلى عالمها الداخلي وتتفرغ لكتبها وأوراقها، في التاسعة من عمرها كتبت قصصاً قصيرة، كتمت منذ الصغر حباً محرماً لوالدها، توفيت والدتها وهي في الثالثة عشرة، فأصيبت بنوبات من الهيستريا، كانت تخاف الظلام. توفي والدها بعد عامين آخرين فأصيبت

بانهيار عقلي، حاولت الانتحار أكثر من مرة، اعتقد المقربون منها أن زواجها يمكن أن يداوي آلام غياب الأب، تعرفت إلى زوجها ليونارد عن طريق أصدقاء مشتركين. عندما طلب الزواج منها استاءت وكتبت إليه رسالة حادة ينقلها لنا كوينتين بيل في سيرة حياتها: «أشعر بالغضب من طلبك، تبدو أجنبياً للغاية، وأنا مضطربة إلى درجة تثير الخوف. كما قلت لك بفسوة، لا أشعر بأي انجذاب جسدي نحوك. مع ذلك يغمرني اهتمامك بي». ونجدها في نفس اليوميات تعترف أنها لم تشعر قطّ بمتعة جسدية مع زوجها، رغم حبها الشديد له.

حار الأطباء في معرفة نوع مرضها وأسبابه، وعزاه عالم النفس جاك لاكان إلى الحساسية المفرطة التي لازمتها طوال حياتها وإلى الخوف من الجنس بعد أن تعرضت للتحرش الجنسي وهي في سنّ السادسة.

في رواية السيدة دالاواي التي أعدتُ قراءتها من جديد بعد سنوات، وجدت نفسي أمام سيدة تتهيأ للاحتفال بعيد ميلادها، وهو حادث مهم تضطر السيدة دالاواي لأن تغرق بسببه في الذكريات التي تزدحم بالأحاسيس والانطباعات والأسرار، ومن خلال «المونولوج الداخلي» نعرف كل شيء عن حقيقة هذه السيدة، ورغم أن الرواية تعرض لنا ثلاثة أزمنة من حياة دالاواي، فإن أحداثها تدور في يوم واحد هو يوم عيد ميلادها، لكنها تستغرق أيضاً مساحة أخرى عريضة في حياة صاحبتها، مضافةً إليها مساحات زمنية أخرى تمثل علاقتها بالآخرين، وتستخدم وولف حيلة فنية وهي الاستعانة بساعة (بيك بن) الشهيرة التي لا تكفّ عقاربها عن الدوران بشكل منتظم، بينما الزمن الخاص الذي تنتمي إليه السيدة دالاواي ينبسط وينقبض، يتأخر ويتقدم كأنه شريط سينمائي حافل باللقطات القريبة والبعيدة والمتوسطة، يتأرجح ما بين الماضي والحاضر، ونرى فرجينيا وولف تأخذ دور المونتير في السينما، فهي تلتقط اللقطات التي تسجلها العدسة ثم تحاول إعادة ترتيبها وتوليفها، لتستقر في النهاية على نسخة العرض النهائية من الفيلم -الرواية، وهكذا نجد أنفسنا أمام روائية تحاول أن تضع الزمن الخارجي جنباً إلى جنب مع الزمن الداخلي، فنلاحظ أن السلوك العام لكل من (كلاريسا دالاواي) و(بيتر والش) و(سيبتيموس سميث) إنّما محكوم

بالزمن المادي، بينما يسيطر الزمن الداخلي- في نفس الوقت - على كل ما يجري في أذهانهم من صور وذكريات وأوهام.

في العام 1927 تنتهي فرجينيا وولف من كتابة روايتها (أورلندو) -ترجمة توفيق الأسدي- وتهديها إلى إحدى صديقاتها التي جعلتها شخصية متحوّلة تبدأ حياتها فتىً، وتنتهي امرأة. أسرت بكتابتها جيلاً من الكتّاب الذين اعتبروها «منارة الرواية الحديثة»، تناولت في (الأمواج) -ترجمة عطا عبد الوهاب- ستّ شخصيات تروي حياتها من الطفولة إلى الشيخوخة. يخبرنا ابن شقيقتها، بأن كل رواية كتبتها كانت تثير عندها صداعاً مزمناً وتهيّجاً عصبياً وفقداناً للشهية، حتى عدّها الأطباء مجنونة، لكنها تغلبت على حالات الكآبة ومضت تعالج نفسها بالانصراف إلى الكتابة، ويضيف كوينتين بيل: «إن لحظات الاكتئاب كانت تعقبها لحظات الإبداع، وأن بوسع فرجينيا أن تنتفع من أمراضها».

من بين الذكريات المهمة في حياة فرجينيا وولف لقاؤها بعالم النفس الشهير سيجموند فرويد. في كتاب ممتع بعنوان (الأسس الثقافية للتحليل النفسي) -ترجمة سارة اللحيدان- من تأليف بول روزان أحد أشهر مؤرخي حركة التحليل النفسي، يخبرنا أن اللقاء الأول تمّ عام 1938، كان ليونارد وولف زوج الروائية فرجينيا وولف ناشراً للكتب ومعجباً بمؤلفات سيجموند فرويد الذي كانت شهرته آنذاك واسعة، وعندما وصل فرويد إلى لندن عام 1938 ذهب ليونارد وفرجينيا للسلام عليه، في مذكراته يكتب ليونارد: «أدخلتنا ابنة فرويد آنّا إلى مكتبه.. كنت أحمل معي قصاصة جريدة نشرت موضوعاً حول محاكمة لص في لندن كان من بين سرقاته كتاب فرويد الشهير (مدخل إلى التحليل النفسي) -ترجمة جورج طرابيشي- وكانت الحادثة قد تناقلتها الصحف خصوصاً بعد أن أصدر القاضي حكماً بسجن اللص ثلاث سنوات وهو يقول له: «أتمنى أن أحكم عليك بقراءة كافة كتب فرويد». في ذلك اللقاء يقدم فرويد زهرة نرجس إلى فرجينيا، وتذكر فرجينيا وولف في يومياتها أنها قالت لفرويد: «إننا نشعر بالذنب -تقصد البريطانيين- لأننا كسبنا حرب 1914، لو لم نكسبها لما كان هناك نازيّون ولم يكن لهتلر أي وجود»، ويجيبها فرويد أن مثل هذه

التحليلات خاطئة، لأنّ هتلر سيوجد ومعه حركته النازية سواء فازت ألمانيا بالحرب أو خسرت.

بعد ذلك تكتب فرجينيا وولف في يومياتها وصفاً دقيقاً لفرويد: «كان يجلس في مكتبة كبيرة حوله تماثيل صغيرة مرتّبة بدقة فوق طاولة كبيرة ولامعة. جلسنا على الكراسي كالمرضى، أمام رجل كبير بالسن منكمش وينظر بعينين رقيقتين، بالكاد تصدر منه حركات متشنجة ولكنه في وضعية تأهب دائمة. وحول هتلر قال إنه لو عاش متأخراً بجيل سيكون للسمّ مفعوله. وعن شهرة كتبه يقول: كنت سيّئ الصيت أكثر من كوني مشهوراً، لم أجنِ 50 جنيهاً من كتابي الأول. كان حواراً صعباً، ساعدتنا ابنته وابنه مارتن بإمكانيات جبارة كشعلة مضيئة. لدى مغادرتنا كان يحدثنا عن موقفنا وما نحن فاعلون أمام الحرب الإنكليزية».

في اللقاء تحدّثت فرجينيا وزوجها عن كتب فرويد، كان زوجها معجباً بكتاب فرويد (علم النفس في الحياة اليومية)، واعترفت فرجينيا أنها أقل اطلاعاً على كتب علم النفس، وتخبرنا في يومياتها أنها بعد لقائها بفرويد خصصت وقتاً كبيراً لقراءة معظم أعماله.

كان فرويد مهتماً بقراءة الأدب، وكانت فرجينيا وولف حريصة على أن تهديه بعضاً من كتبها، وقد أخبرها فرويد أنه قرأ روايتها (الفنار). صدرت الرواية عام 1927، وقد اهتم بها أصحاب مدرسة التحليل النفسي كثيراً، لكنه توقف كثيراً عند روايتها (السيدة دالاواي) بسبب من أحاسيس مبهمة، وقد قال لها إنه مدمن قراءة هذا النوع من الروايات لأن «القراءة العميقة نوع من الإدمان». يخبرنا إدغار بيش في كتابه الشهير (فكر فرويد) -ترجمة جوزف عبد الله- أن مؤسس مدرسة التحليل النفسي كان مولعاً بقراءة الأعمال الأدبية، وأنه يولي اهتماماً خاصاً للأعمال التي تتحدث عن النفس البشرية، ولهذا كتب عن دوستويفسكي ودافنشي وفان كوخ. كان فرويد يدرك أن فرجينيا وولف تعاني من مشاكل نفسية، لكنه لم يحاول أن يكلمها في الأمر رغم أنه مازحها في اللقاء الأول، إن كانت ترغب في الجلوس على كرسي الضيوف أو على أريكة المراجعين. لم تذهب فرجينيا وولف إلى طبيب نفسي من قبل رغم اضطراباتها النفسية، ويخبرنا زوجها أنها

رفضت لسنوات قراءة أعمال فرويد خوفاً من أن يتداخل التحليل النفسي مع إبداعها الأدبي.

تعمدت فرجينيا وولف أن تفهم التحليل النفسي بطريقتها الخاصة، وكان البعض يرى فيها أنموذجاً لفرويدية من طراز خاص. في روايتها (الفنار) -ترجمة إيزابيل كمال- تضع معادلين نفسيين للحياة والموت كأساس للأحداث، وعلى لسان الشخصية الرئيسة في الرواية الأب تقول لنا: «نحن جميعاً هالكون لا محالة». وفي يومياتها تكتب فرجينيا وولف عن هذه الرواية: «هذا العمل قد يكون أمراً عاطفياً: أبي وأمي، والطفل في الحديقة، والموت، والإبحار إلى الفنار، وشخصيات الرواية، والطفولة، وهذا الشيء غير الذاتي الذي تجرأتُ على إنجازه بمساعدة الأصدقاء وهو التحليق في الزمن».

كتبت فرجينيا وولف ثلاث رسائل وداع، قالت في واحدة منهن: «إنني أجنُّ ثانية، وأشعر أنني لا أستطيع مواجهة وقتٍ صعب آخر. لن أشفى هذه المرة. بدأتُ أسمع أصواتاً ولا أستطيع التركيز، لذا سأقوم بما يبدو أفضل ما يمكن فعله... لا أستطيع إفساد حيوات القريبين مني أكثر مما فعلت». رأى زوجها الرسائل الثلاث وركض إلى النهر. كان الحذاء الذي انتعلته يعوم، تمنت بطلة رواية «أورلندو» ألّا يجدوا جثتها، لكن جثة كاتبة بريطانيا الشهيرة وجدها الأطفال تطفو قرب الجسر، دُفنت في حديقة منزلها ومثلما طلبت في وصيتها بالعبارة الأخيرة من روايتها الأمواج: «عليك ألقي نفسي بلا هزيمة أو استسلام يا موت».

-16-

كيف تتعلم من الأفكار التي لا تعجبك

كنت أتطلع إلى الكتاب الذي يأخذ مكانه في الرف المخصص لكتب الفلسفة، آنذاك كنت أخطو خطواتي الأولى في قراءة الفلسفة وأحاول أن أنهجّى مصطلحاتها. كان العنوان مغرياً «نظرية أرسطو المنطقية» تأليف الدكتور ياسين خليل، في تلك السنوات كانت علاقتي بالمرحوم أرسطو تتوطد شيئاً فشيئاً، قرأت كتاب عبد الرحمن بدوي عنه، ثم وجدت ضالتي في ترجمات أحمد لطفي السيد، وهو مفكر مصري، يعد من رواد النهضة العربية الحديثة، وقد ترجم إلى العربية بعض كتب أرسطو أشهرها السياسة، الكون والفساد، وكتاب علم الأخلاق، وقد ترجم لطفي السيد هذه الكتب في عشرينيات القرن الماضي حيث وجد فلسفة أرسطو الأقرب إلى تفكيرنا الحديث، ونجده يقول: «إن بعض الناس سيتساءلون هل نحن بحاجة إلى أرسطو في عصرنا الحاضر» ويجيب: «إن فلسفة أرسطو أساس من أسس المدنية الغربية، وسيظل التفكير الغربي عندنا مستعاراً ما لم يتطور تاريخ الفكر عندنا على غرار تطوره في أوروبا».

لعل نقطة البدء في فلسفة أرسطو هي تمجيد العقل، لأنه يؤمن بأن الناس مخلوقات عقلانية تتخذ القرارات التي تقودها إلى الخير، وأن ملكة العقل هي أسمى الخيرات: «إن التأمل والمعرفة جديران بأن يسعى إليهما الإنسان، إذ بغيرهما يستحيل على المرء أن يحيا الحياة التي تليق بإنسانيته». وككائنات عقلانية تأتي سعادتنا العظمى من الخيارات التي وصلنا إليها من خلال العقل، وأرسطو في الواقع أساس النزعة الإنسانية الأوروبية كلها. فالفلسفة

كما أراد لها أرسطو هي المحاولة الجادة المستمرة لوضع العقل في مكانه الصحيح من العالم. وذات يوم قررت أن آخذ كتاب ياسين خليل إلى البيت، ممنياً النفس بوجبة معرفية دسمة، لكن فرحتي لم تدم سوى بضع دقائق، بعد أن وجدت الراحل ياسين خليل – وهو واحد من ألمع أساتذة الفلسفة في العراق، رحل عن عالمنا في منتصف الثمانينيات بعد أن قدم للمكتبة العربية ذخيرة من الكتب التي تعد اليوم مصادر فلسفية مهمة – قد وضعني في حيص وبيص منذ السطور الأولى من مقدمته التي يخبرنا فيها أن معظم الذين درسوا منطق أرسطو في الجامعات العربية وأضاف إليهم الذين كتبوا في المنطق لا يعرفون شيئاً من أصول المنطق الرياضي، عندما وصلت إلى هذه العبارة أيقنت أنني وضعت نفسي في مأزق كبير، فمالي أنا ومنطق أرسطو. في اليوم التالي أعدت الكتاب إلى مكانه إلى جانب مجلدات عبد الرحمن بدوي الثلاثة منطق أرسطو، وكتاب جون ديوي الضخم «المنطق»، ومع مرور الزمن وتنوع القراءات نسيت أمر الكتاب إلى أن وقع بيدي بعد سنوات كتاب آخر بعنوان «الذرية المنطقية» والمؤلف هو أيضاً الدكتور ياسين خليل، وفي هذا الكتاب سأجد برتراند راسل يحتل موقعاً متميزاً مع تلميذه الذي تمرد عليه فتغنشتاين، حيث يكتب الدكتور ياسين خليل أن الذرية المنطقية اتجاه فلسفيّ معاصر بدأ على يد برتراند راسل ومن بعده لودفيغ فتغنشتاين، ويخبرنا أن هذا التيار الفلسفي اتخذ مكان الصدارة في الفلسفة الحديثة بعد أن أثر فيها تأثيراً بليغاً.. كالعادة بحثت عن المصادر التي اعتمدها المؤلف وكانت قائمة كبيرة من الكتب لم تترجم إلى العربية وهناك مصادر عربية أشهرها كتاب تاريخ الرياضيات لبرتراند راسل وكتاب «تحقيقات فلسفية» لفتغنشتاين، ووجدت بين سطور المصادر اسم زكي نجيب محمود وكتابه «المنطق الوضعي»، وقد كانت هناك نسخ منه في المكتبة التي أعمل فيها. أتذكر الآن أن الكتاب كان مجلداً ضخماً بجزأين، الأول بعنوان «المنطق الوضعي»، والثاني وُضع له عنوان فرعي «فلسفة العلوم».. هكذا ستبدأ رحلتي الجديدة مع هذا الكتاب الذي تعرفت من خلاله على أسماء أسمع بها للمرة الأولى، فمن هو موريس شيلك الذي يكيل له زكي نجيب محمود المديح، والذي يصف فلسفته بأنها تقوم على التجارب والخبرات؟ وما هو

الدور الذي لعبه رودلوف كارناب؟ وما علاقتهما بأينشتاين وبرتراند راسل؟ ما هي هذه الفلسفة التي يقول زكي نجيب محمود عنها إنها: «لا تقول من عندها شيئاً، بل تترك للعلماء حق الحديث عن العالم بما لهم من أدوات الملاحظة والتجارب العلمية، وعلى الفيلسوف واجب واحد، هو أن يحلل العبارات اللغوية التي يستخدمها هؤلاء العلماء أو غيرهم تحليلاً يقوم على منطق اللغة ذاتها، وبذلك يفرقون بين ما يجوز قوله وما لا يجوز».

أطلق على «الوضعية المنطقية» الطفل المدلل والمشاغب لفلاسفة القرن العشرين، وإذا عدنا بالتاريخ لأكثر من تسعين عاماً سنجد جماعة من الفلاسفة والعلماء يخوضون مناقشات حادة وجدالات حامية حول الدور الذي يجب أن تلعبه الفلسفة في مجال العلوم. كانت الوضعية المنطقية فكرة طورها موريس شليك الذي كان يعقد في بيته اجتماعاً فلسفياً كل يوم خميس، كان شيلك متخصصاً في علوم الفيزياء، وتقدم للحصول على الدكتوراه برسالة بعنوان «الضوء» تحت إشراف «ماكس بلانك» صاحب نظرية الكم، وعن طريق بلانك يعقد توماس شليك صداقة متينة مع ألبرت أينشتاين، الذي أدهشه كتاب شليك «المكان والزمان في الفيزياء المعاصرة» الذي صدر عام 1917، وسيلحقه بعد عام بكتابه «النظرية العامة للمعرفة» الذي رسخ اسم شليك كواحد من فلاسفة العلم، الأمر الذي دفع جامعة فيينا لأن تجلسه على كرسي الفيلسوف والفيزيائي الشهير إرنست ماخ الذي توفي إثر أزمة قلبية في التاسع عشر من شباط عام 1916. في فيينا سيلتقي موريس شليك بفيلسوف مشاغب آخر اسمه «رودلوف كارناب»، وكان الاثنان يجلسان لساعات طويلة يتناقشان في فلسفة لودفيغ فتغنشتين الذي كان في تلك السنوات يمثل صورة الفيلسوف المحبط، حيث قرر أن يترك عائلته ليصبح معلماً في إحدى المدارس الابتدائية. وانتقل عام 1920 إلى قرية جبلية في أطراف النمسا ليهرب من العالم، ويؤكد بعض كتّاب سيرة فتغنشتاين أن فترات الانعزال في حياته، ربما كانت بسبب ميوله الجنسية المتقلبة ونراه يكتب إلى شقيقه قائلاً: «أصبحت الأمور تعيسة في الآونة الأخيرة.. فقط بسبب حساسية تعفني، لقد فكرت دائماً بإنهاء حياتي، ولا تزال تلك الفكرة تراودني الآن، لقد غرقت حتى القاع»، كانت جماعة فيينا

تنظر إلى كتاب فتغنشتين «رسالة منطقية فلسفية» باعتباره لوحاً فلسفياً مقدساً، وكان موريس شليك ينتظر بشغف حضور فيلسوفه الكبير، لكنه خيّب أمله حيث ذهب ليعمل بستانياً في أحد الأديرة قرب فيينا، وعندما حضر فتغنشتين اجتماعات جماعة فيينا لم يرق له أعضاء الجمعية الذين وجدهم سوقيين ويلبسون بشكل سيء.

كانت جماعة فيينا قد أعادت الاعتبار إلى فلاسفة اعتبرتهم رواداً في الوضعية المنطقية أمثال ديفيد هيوم وأوغست كونت الذي كان يرى أن العلم هو الصورة الوحيدة للمعرفة البشرية، فمعيار العقل الوحيد عنده هو العلم، وكان يرفض اعتبار اللاهوت أو الميتافيزيقا ميادين للمعرفة، فالعالم الذي يصفه العلم هو العالم الوحيد الموجود، وهو يرى أن مسائل الدين والأخلاق يجب أن تخضع لمعايير العلم. وقد أيقن كونت أن فلسفته تنطوي على أسس لعقيدة جديدة للبشرية وأنها هي وحدها الملائمة في نظره لعقل البشر في عصر علمي، فالأديان التقليدية تقتضي قبول معتقدات لاهوتية غير علمية، وأضافوا للقائمة فيما بعد إرنست ماخ وجيرمي بينثام وماركس، وبدأت الجماعة بإصدار مجلة باسم «المعرفة»، لكن جماعة فيينا ستصاب بهزة عنيفة إثر مقتل مؤسسها موريس شليك على يد طالب كان قد تقدم بأطروحة في علم الأخلاق ورفضها شليك، وبعد فترة ستواجه الجماعة مضايقات من الأجهزة الأمنية التي كانت تراقب نشاطها، فتوجه عددٌ من أعضاء الجمعية للاستقرار في أمريكا وكان أبرزهم رودلوف كارناب الذي يصفه زكي نجيب محمود بأنه من أهم شخصيات الوضعية المنطقية، فهو استطاع أن يترجم أهداف هذه الفلسفة من خلال كتابة «البناء المنطقي للعالم» -ترجمه إلى العربية يوسف تيبس- صدر عام 1928 ويمثل أول كتاب موسع لكارناب وضع فيه تصوراته الفلسفية، ونجد أن مهمة الكتاب تتلخص في مسألتين: الأولى هي تعليل المعرفة العلمية من خلال إعادة بنائها عقلانياً، والثانية هي إقصاء الفكر الميتافيزيقي من مجال المعرفة.. وطبقاً لكارناب فإن الفلسفة الوضعية المنطقية مهمتها تحليل كل المعرفة، وكل تأكيدات العلم والحياة اليومية.

ولد رودلوف كارناب في الثامن عشر من أيار عام 1891، لعائلة غنية،

كان والده قبل أن يملك مصنعاً، يعمل حائكاً، استطاع بمهارته أن يصبح واحداً من الصناعيين في مدينة رونسدورف الألمانية، وكان الأب الشديد التدين يخير ابنه بين أن يصبح قساً أو يعمل معه في المصنع، لكن الأم التي كانت قد حصلت على تعليم جيد قررت أن تنمي قدرات ابنها من خلال الكتب التي كانت تشتريها له، ويتذكر كارناب أن أمه كانت مغرمة برحلات جلفر التي كتبها جوناثان سويفت، في كل مساء تطلب من ابنها أن يقرأ هذه الرحلات لينمي خياله، تلقى في طفولته تعليماً برجوازياً، بعدها درس في جامعة فرايبورغ متخصصاً في الفيزياء والرياضيات، وكان ينوي كتابة أطروحة عن الفيزياء، إلا أن قراءته المتأنية لكتاب إيمانويل كانط «نقد العقل المحض» جعلته يقرر أن يتوجه إلى الفلسفة ويجد نفسه تحت تأثير برتراند راسل: «تأثرت كثيراً براسل، وانحصر هدفي في ذلك الوقت في تحليل المفاهيم العلمية مستعيناً بتطبيق المنطق الحديث». قال إنه لم يكن يدور في ذهنه أن يؤسس حركة فلسفية، يقدم أطروحته للدكتوراه بعنوان «المكان. محاولة للإسهام في نظرية العلم»، بعدها سيتفرغ لكتابة مؤلفه الكبير «البناء المنطقي للعالم» الذي ما إن انتهى منه حتى وضعه في حقيبة وقرر أن يعرضه على جماعة فيينا التي وجدها تبالغ في تقدير لودفيغ فتغنشتين حسب قوله، وحين التقى بالفيلسوف النمساوي لم يعجبه شروده، ولم يترك تأثيراً عليه: «كان تأثير فتغنشتين قليلاً، فقد سبق لي القول إنني مدين بالكثير لبرتراند راسل»، عام 1935 تلقى عرضاً للتدريس في جامعة شيكاغو، حيث سيستقر في أمريكا هرباً من ملاحقة النازيين له، وقد أصدر في تلك السنوات عدداً من الكتب اهتمت بدراسة علم اللغة من أبرزها «مقدمة في علم المعاني» الذي نشر عام 1942 وكتاب «الصياغة الصورية للمنطق»، بعدها عاد إلى موضوعه المهم فلسفة العلوم فأصدر كتاب «الأسس المنطقية للاحتمال» وكتاب «أسس المنطق والرياضيات»، اعتزل التدريس عام 1961، لكنه واصل إلقاء المحاضرات حتى وفاته في الرابع عشر من أيلول عام 1970.

في مقال لبرتراند راسل بعنوان «فلسفة القرن العشرين» يقول إنه في عام 1900م بدأت الثورة على المثالية الألمانية بعملاقيها كانط وهيغل، التي مثلت قوة طاغية إبان القرن التاسع عشر، موازيةً لفلسفة العلم وللفلسفة

العلمية ومحتلة لأراض على حسابهما.. هكذا جعل الوضعيون المنطقيون العلم هو النشاط العقلي الأوحد، الذي ينقسم بين فئتين، فئة العلماء الذين يقومون بجمع المعلومات ووضع النظريات، ثم فئة فلاسفة العلم الذين يقومون بتحليلات منطقية تساعد على تقدم العلم وازدهاره. قد يقوم العالم نفسه بهذه التحليلات، وفي هذه الحالة سوف يصبح فيلسوفاً بعد أن كان عالماً، أو يصبح «العالم - الفيلسوف» بالمفهوم الوضعي المنطقي للفلسفة الذي يعني المطابقة بينها وبين التحليل المنطقي للعلم، فتغدو الفلسفة بأسرها علمية، ولا يعود ثمة متسع للميتافيزيقي السابح في أجواء الغيبيات، أو الأخلاقي الحالم بمجتمع الفضيلة أو السياسي الباحث عن اليوتوبيا أو الجمالي الهائم في العالم الخلاب.

من بين الكتب التي وجدت فيها ضالتي حول الفلسفة والعلوم، كان كتاب زكريا إبراهيم «مشكلة الفلسفة» وهو جزء من مجموعة من الكتب تناولت المشكلات في حياة البشر مثل «مشكلة الحب»، «مشكلة الفن»، «مشكلة الحياة» و«مشكلة الحرية»، و«المشكلة الخلقية» حيث يدير زكريا إبراهيم مناقشات طويلة في أحد فصول كتابه «مشكلة الفلسفة» عن علاقة الفلسفة بالعلم، وفي بداية مناقشته يؤكد أن «الفلسفة جديرة بلقب العلم لأن اهتمام الفيلسوف بالتفسير العقلي هو لا شك خاصية تميزه عن كل من الفنان والأديب، هذا إلى أن الفيلسوف في بحثه عن الصلة، كثيراً ما يمضي أبعد مما يمضي إليه العالم»، ويمضي زكريا إبراهيم في متابعة مناقشة الصلة بين الفلسفة والعلم، فيتحدث عن أوغست كونت فيقول إنه: «لم يكن مجرد فيلسوف، وهو قدم لنا فلسفة وضعية أراد أن تكون فلسفة علمية، تقوم على إخضاع المعرفة الفلسفية إخضاعاً تاماً للمعرفة العلمية» ويضيف زكريا إبراهيم أن برتراند راسل حاول أن يتابع موقف كونت لأنه أراد أن يجعل من الفلسفة تابعة للعلم، وهو الأمر الذي سخر منه الروسي نيقولاي برديائيف حين قال إن فلسفة العلوم هي فلسفة أولئك الذين ليس لديهم شيء يقولونه على الإطلاق.. وهو ما يؤيده زكريا إبراهيم قائلاً: «ليس أيسر علينا من أن نقول إن العلم خلع الفلسفة عن عرشها مرة واحدة وإلى الأبد، لكننا عندئذ لا نتكلم باسم العلم بل باسم تلك النزعة العلمية المتطرفة».

-17-

كتب بلا ضفاف

لم يلتزم كثيراً بنصيحة القيادي موريس توريز حين حذره من الانزلاق إلى مواقف تتعارض مع السياسة التنظيمية للحزب الشيوعي الفرنسي، الذي كان عضواً في لجنته المركزية.. لكنه واصل طرح وجهات نظر مغايرة لتلك التي كان يطرحها أيام شبابه حين عُرف عنه تعلقه بستالين وعشقه له، لكنه في هذه المرة أخذ يهاجم الجمود لدى الأحزاب الشيوعية الأوروبية لأنها تمارس دور الكومبارس للساكنين في الكرملين. الانعطافة الكبرى كانت عام 1966، غارودي قد بلغ عقده الخامس عندما ظهر في الأسواق كتابه «ماركسية القرن العشرين» ليحدث ضجة، فالشيوعي المعجب بمنطق ستالين وكتب عنه في رسالته للدكتوراه «النظرية المادية في المعرفة» -ترجمه للعربية إبراهيم قريط- مؤكداً فيه أن: «مؤلف ستالين عن المشكلات الاقتصادية للاشتراكية، يفتح طرقاً غير مستكشفة في التاريخ ويرسم، للممارسة العملية الإنسانية آفاقاً من العظمة والسعادة لا حد لها»، وجد أن ستالين حول المبادئ الشيوعية إلى نظام مستبد وجامد. بعد سنوات سيقول لمراسل صحيفة لوموند: «لماذا يريدون مني أن أموت وأُفقي ضيق، لقد تعلمنا أن نعيش في الحزب، ولم نتعلم العيش في الحياة، ها أنا أنظر أبعد من الجدران التي يريدون مني أن أعيش داخلها، الأفق يخلق عالماً آخر».

يكتب غارودي في مقدمة «ماركسية القرن العشرين» -ترجمه إلى العربية نزيه الحكيم- أن الماركسية فلسفة نقدية على عكس ما صورها الستالينيون من أنها «جامدة» ثابتة لأنها لو أصبحت كذلك لتعرضت للفشل، وحتى

الزوال شأن الفلسفات المثالية: «إن الماركسية تطمح اليوم إلى التوحد مع الأشياء وفعل الإنسان الذي يغيّر هذه الأشياء ومن هنا اتصفت بأنها مادية وهي جدلية، لأنها لا تتوجه إلى بناء مذهب قطعي مكتمل الأركان كلي شامل يصطدم بأية تغيرات في الوجود» -ماركسية القرن العشرين- أما الاقتصاد فإنه حسب غارودي يلعب دوراً حاسماً في التاريخ من دون أن يكون هو المحرك الوحيد، وبقدر ما كان «ماركسية القرن العشرين»، يحمل طرحاً جديداً لتأكيد النظرية الماركسية، فإنه يحمل أيضاً رفضاً لإضافات شوّهت نقاء فكر ماركس.. وفي حوار أجراه معه شاكر نوري نشر في كتاب «هذه وصيتي» يقول غارودي: لسنا بحاجة للعودة إلى الماركسية، بل ينبغي علينا أن نعثر على ماركس، وليس ترديد مقولاته فقط».

أثار غارودي الكثير من الجدل والتساؤلات حول تنقله من اليمين إلى اليسار، ومن الماركسية إلى الإسلام، أمضى في عالمنا قرناً إلا عاماً -توفي عام 2012 عن 99 عاماً- كان له حضور مكثف في الثقافة العربية منذ أن ترجم كتابه «النظرية المادية في المعرفة» في الستينيات وصدر في دمشق عن سلسلة مصادر الاشتراكية العلمية، وقد اعتبر الكتاب من أشهر الكتب في شرح الفلسفة الماركسية، وكان مع كتاب جورج بوليتزر «مبادئ الفلسفة الماركسية» الذي ترجمه إلى العربية شعبان بركات، أبرز الكتب التي كان القارئ العربي المغرم بالفلسفة الماركسية يبحث عنها.. أتذكر أنني قرأت اسم روجيه غارودي للمرة الأولى على غلاف كتاب صغير بعنوان «ما هي المادية» صدر عن سلسلة من الكتب كانت أغلفتها تلون بألوانٍ مختلفة وبعناوين جذابة «ما هي الماركسية؟، ما هي الوجودية؟ ما هي الفوضوية؟ ما هي السيريالية؟» وغيرها، وكنت أبيع الكتاب الواحد منها في المكتبة التي أعمل فيها بسعر 100 فلس عراقي آنذاك، وعندما تجرأت ذات يوم وقررت أن أقرأ كتاب «ما هي المادية» -ترجمه إلى العربية محمد عيتاني-، أصابتني خيبة أمل باءت فيها جهودي بالفشل ولم أستطع حل لغز صفحاته التي لم تتجاوز المئة صفحة، فقد وجدت نفسي في غابة من الأسماء الغريبة التي أسمع بها للمرة الأولى «بركلي، مالبراش، اشبلنجر، ديدرو» وغيرها، إلا أن الاسم الوحيد الذي جعلني أصر على تكملة الكتاب هو اسم جان

بول سارتر الذي كان يطالعني أمامي بين الصفحات ومعه اسم ماركس ولينين، وكنت أعرف شيئاً قليلاً عن ماركس، لكني بالمقابل مهووس بسارتر، دون أن أفهمه آنذاك لمجرد أن اسمه يتردد كثيراً بين رواد المكتبة الذين يحرصون على شراء كتبه والبحث عنها، بعد سنوات سأكتشف أن كتاب «ما هي المادية؟» هو فصل من كتاب «النظرية المادية في المعرفة» وأن هذا الكتاب كان رسالة الدكتوراه تقدم بها غارودي لجامعة السوربون، وقد نشر بالفرنسية عام ١٩٥٣، وكان قبله قد نشر أربعة كتب هي، مساهمة تاريخية في الحضارة العربية الإسلامية عام ١٩٤٥، وكتاب الماركسية والأخلاق عام ١٩٤٨ وكتاب الكنيسة والشيوعية والمسيحيون عام ١٩٤٥، وكتاب المصادر الفرنسية للاشتراكية العلمية عام ١٩٤٥. كثيراً ما كنت أشاهد كتب روجيه غارودي تتوزع على أرفف المكتبة التي كنت أعمل فيها، فقد حظيت كتبه باهتمام المترجم العربي، ربما لم يحظ به كثير من المفكرين الفرنسيين باستثناء جان بول سارتر وألبير كامو، فغارودي، لم يسقط اسمه من لسان المثقفين العرب حتى وإن اختلف البعض منهم مع منهجه وتحولاته، كتبه التي تجاوزت السبعين، وجدت لها رواجاً كبيراً عند القراء العرب وخصوصاً في السبعينيات والثمانينيات ومروراً بنهاية التسعينيات عندما قرر غارودي أن يخوض آخر معاركه في الحياة وكانت مع الحركة الصهيونية وأساطيرها، الأمر الذي أدى إلى محاكمته بتهمة معاداة السامية وإنكار المحرقة النازية ضد اليهود. كانت بعض كتبه ممتعة مثل كتاب «واقعية بلا ضفاف» وروايته «من أكون في اعتقادكم» وثلاثيته عن هيغل وفيورباخ وماركس، والبعض الآخر كان أشبه بالألغاز بالنسبة لقارئ مثلي، عندما فكرت في قراءة كتابه «النظرية المادية في المعرفة»، لم أكن أعرف أن هذا الكتاب الملعون سيدخلني في متاهات ودهاليز، كنت مضطرباً وأنا أتنقل بين الصفحات التي يختلط فيها العلم مع الفلسفة مع الفيزياء، مازلت حتى هذه اللحظة تتخللني حالة من التأهب عندما أمسك كتاباً في نظرية المعرفة، فمثلما شكل كتاب غارودي إحدى صدمات حياتي مع الكتب، لكنني بعد ذلك كنت أرى أهمية هذه الكتب خصوصاً أن سؤالاً كان ولا زال، السؤال المحوري في الفلسفة، سؤالاً انبثقت عنه نظريّة المعرفة، وتفرعت منه المناهج الفلسفيّة

ثروة، وليس هناك من علم يستعد لتعميد نفسه علمًا حقيقيًا، إلّا وهو رهن سؤال المعرفة.

روجيه غارودي المولود يوم السابع عشر من تموز عام 1913 يقول إنه ولد مرتين في النار، المرة الأولى عشية الحرب العالمية الأولى، والمرة الثانية عندما بلغ العشرين من عمره حين خيمت على أوروبا ظلال هتلر.. عاش حياة صعبة في بداياته، كان والده المحاسب البسيط قد تُوفّيَ وهو لم يزل صغيراً، وعملت أمه في العديد من المهن. ولذلك قال يوماً لأراغون: «ما دامت أمي قضت حياتها تعمل وتكدح فأنا منحاز لماركس حتى وإن اختلفت مع الحزب الشيوعي»، يدين صاحب واقعية بلا ضفاف بتفوقه في الحياة لجدته التي علمته أنه لا شيء مستحيلاً في الحياة.

في روايته «من أكون في اعتقادكم» -ترجمها إلى العربية سهيل إدريس- نجد البطل أحد أفراد الجيل الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية، والذي سمي جيل الغضب، الجيل الذي يقول عنه غارودي إنه يبهره، جيل عانى أحلام تشي غيفارا وقلق السلاح النووي، جيل «لم يكن به جوع للحياة بعد إلا جوع الانتقام».

تلقى دراسته الابتدائية في مدارس مارسيليا، ثم انتقل إلى مدرسة هنري الرابع في باريس. كانت والدته تتمنى أن يصبح طبيباً، لكنه اختار دراسة الأدب في الفترة الممتدة بين عامي 1935 -1936- حيث حصل على منحة دراسية مجانية بعد أن اعتبر والده من مشوهي الحرب العالمية الأولى. في الجامعة يعيش بين كتب ماركس وكيركغارد، كان كيركغارد يؤمن أننا إذا تجاوزنا منطقنا البسيط وأخلاقياتنا المؤقتة، يمكن أن تنبثق مطالب بلا حدود: «لقد وجدت في تلك الفكرة ما يقضي على فكرة الفردية السخيفة» أما ماركس الذي كان قد قرأه بحماسة شديدة يصفها بـ «حماسة فكرية» حيث يؤكد «أن الإنسان عليه أن ينضم إلى قوة لمقاومة الفوضى».. ومن خلال ماركس يخوض النضال السياسي والحزبي لمدة أربعين عاماً، ستنتهي بطرده من الحزب عام 1970، بعد أن أعلن آنذاك أنه لا يمكن اعتبار الاتحاد السوفيتي دولة اشتراكية.

عام 1937 يعين أستاذاً للفلسفة في إحدى الثانويات، في هذه المرحلة يعكف على قراءة أعمال رومان رولان، وخصوصاً ثلاثيته المسرحية التي

تناولت الثورة الفرنسية «دانتون.. 14 يوليو.. انتصار الحرية» وقد حاول أن يلتقي الأستاذ كما كان يصفه، إلا أن رومان رولان كان يعاني آنذاك من المرض، فقرر أن يرسل إليه مسودة مسرحية أهداها إليه.. في نفس العام يلتقي موريس توريز الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي، وقد لعب هذا اللقاء دوراً مهماً في حياة غارودي. في تلك السنوات سيصبح غارودي داعية للحزب الشيوعي، يطوف في القرى مطلعاً على أحوال الفلاحين.

يُطلب للتجنيد عام 1939 ليلتحق بفصيل للمشاة في أفريقيا الشمالية، يعتقل عام 1940 وكانت التهمة، الإضرار بالأمن الوطني، في السجن لم يكن يملك سوى كتابين.. التوراة وكتاب هيغل علم المنطق. أطلق سراحه عام 1942.. يفضل العيش في الجزائر حيث عمل رئيساً لتحرير نشرة الأخبار في راديو فرنسا، يؤسس في الجزائر جامعة شعبية، ويصدر مجلة أسبوعية بعنوان «الحرية».. وخلال إقامته في الجزائر يتفرغ لدراسة الحضارة والفلسفة العربية الإسلامية وقد صدرت الدراسة عام 1946 في كتاب بعنوان «مساهمة تاريخية في الحضارة العربية»، وبسبب مقالاته التي تنتقد الاستعمار الفرنسي في إفريقيا اضطر للاختباء حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، انتخب عام 1945 نائباً عن منطقة تاران، يترك العمل البرلماني بعد صدور القانون الانتخابي عام 1951 الموجه ضد الحزب الشيوعي، وقد استغل هذه الفترة لإتمام رسالته للدكتوراه حول «النظرية المادية للمعرفة» وقد ترأس لجنة المناقشة الفيلسوف غاستون باشلار، يسافر إلى الاتحاد السوفيتي ليناقش رسالة ثانية بعنوان «الحرية» أمام معهد الفلسفة في أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي. فكان الفرنسي الأول الذي يحصل على لقب الدكتوراه في العلوم من موسكو، يعود للعمل البرلماني وخلال هذه الفترة يسافر إلى كوبا لتدريس الماركسية في الجامعة، يلتقي هناك فيدل كاسترو ويجري معه حواراً مطولاً، وقد ظل غارودي معجباً بكاسترو، رغم عدم تأييده لتوجهه السياسي، انتخب نائباً عن باريس عام 1956، كما انتخب نائباً لرئيس الجمعية الوطنية، عام 1962 يترك العمل البرلماني ليتفرغ لوظيفته أستاذاً للفلسفة، يقوم بتدريس فلسفة الجمال.. شكلت اعترافات نيكيتا خروشوف صدمة لروجيه غارودي الذي وجد نفسه في أزمة ثقافية، دفعته

إلى إعادة التفكير بكل ما اعتبره في يوم من الأيام يقيناً، ولم يكن متشككاً في الماركسية، بل أراد أن يراجع ما طرأ على أفكار ماركس وخصوصاً عند الأحزاب الشيوعية، في هذه الفترة يصدر كتابه المهم «واقعية بلا ضفاف» الذي يعيد فيه التفكير بأسس علم الجمال الماركسي، يطرح من خلاله موضوعة عمل الفنان الخلاق، وقد تأثر بأفكار صديقه الشاعر لويس أراغون الذي سيكتب مقدمة للكتاب يصفه فيها بالقول: «إننا بصدد كتاب من تأليف إنسان معين، يتكلم عن موقعه، حيث يعيش ويعمل، ومن وجهة نظره التي يراها سليمة ومتمشية مع أعماله ومع المبادئ التي تستند إليها. لسنا بصدد إنسان عكف على الكتابة لمجرد إعجابه الطارئ بقصيدة لسان جون بيرس أو بلوحة لبيكاسو أو محاولة إعادة اكتشاف كافكا.. أكتب هذا الكلام في وقت تفضح فيه وتكشف أخطاء لم تُعهد من قبل، في وقت يضطر فيه من ينسبون أنفسهم إلى الماركسية إلى غربلة كل معتقداتهم، أي أفكارهم التي اعتقدوها صحيحة، لا تقبل الجدال». يؤكد غارودي أن كتابه «واقعية بلا ضفاف» لم يكن الهدف منه مراجعة الماركسية، بل تنقيتها من الشوائب.

عام 1968 وأثناء تظاهرات الطلبة في أيار، يدخل في أول صدام مع الحزب الشيوعي الفرنسي عندما تبنى وجهة نظر هربرت ماركيوز حول أهمية الطلبة في تثوير المجتمع، ونجده يحرص على إبراز القاسم المشترك بين تطلعات الطلبة ومطالب العمال، وبدأ بتأثير من أفكار غرامشي ينادي بكتلة تاريخية تضم العمال والطلبة ومختلف طبقات المثقفين، وهو الأمر الذي دفع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي إلى التنديد بهذه الأفكار واعتبارها تحريفاً للماركسية. في أيلول من عام 1968 يندد بالتدخل العسكري السوفيتي في براغ، ويبحث في مقال نشره، في الجذور السياسية لهذا الانحراف الاشتراكي، ليوجه أصابع الاتهام إلى القيادة السوفيتية.. عام 1969 يهاجم مشروع المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي الفرنسي، فيقرر الحزب أثناء انعقاد مؤتمره في السادس من شباط عام 1970 استبعاد غارودي من المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب ومن إدارة مركز الدراسات الماركسية باعتباره صاحب مشروع «تحريف الفكر الماركسي».. إثر هذه الخلافات يُصدر كتاباً بعنوان «كل الحقيقة» يروي فيه دوره في

قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي. عام 1973 يصدر مجلة بعنوان «البديل الاشتراكي» وسيصدر في نفس العام كتابه «البديل» -ترجمه إلى العربية جورج طرابيشي- وفيه يؤكد أن على الأحزاب الماركسية أن تغير طريقة طرح الأسئلة، وأن تهتم بطرح الأسئلة الحقيقية، انطلاقاً من المشكلات التي تربط بيننا لا من الأيديولوجيات التي تفرق بيننا: «السياسة ما عادت تعني أن ننتخب أو ننتمي إلى حزب، بل أن يخترع كل واحد منا المستقبل».. وهذا المستقبل الذي يتمناه غارودي مستقبل لا ينتمي إلى الرأسمالية، ولا البيروقراطية أو الستالينية، وإنما ينتمي لحركة المجتمع بأكمله، ويوجه من خلاله دعوة للقاء جديد بين الماركسية والإيمان.

على مدى سنواته الطويلة ظل روجيه غارودي أكثر المفكرين تعرضاً للنقد، كانت البداية مع النظرية المادية في المعرفة التي لفتت الانتباه إليه والتي وصفها الزعيم الشيوعي الفرنسي موريس توريز بأنها أهم دراسة عن الماركسية في العصر الحديث، لكن توريز كان يلاحظ دوماً أن غارودي يكثر النقاش حول مسائل في الماركسية من المفروض أنها مسلمات، ولهذا قال له ذات يوم: «كن حذراً بخصوص استنتاجاتك، وكن معتدلاً ولا تدر ظهرك لماركس بهذا الشكل».

كان غارودي في الثلاثين من عمره حين استعد لمراجعة مخطوطات ماركس، عرض عليه توريز بدلاً من ذلك أن يدرس هيغل ليكون مدخلاً للكتابة عن المعلم، استغرق كتاب «فكر هيغل» -ترجمه إلى العربية إلياس مرقص- خمس سنوات من العمل الجاد ومراجعة كاملة للفلسفة الألمانية يخرج الكتاب إلى النور فيكتب توريز: «لقد أعطانا غارودي مفتاح المضي في فلسفة تؤول العالم إلى كفاح شعاره في البدء كان العمل».

من بين الكتب التي شغفت بها، كتاب روجيه غارودي «واقعية بلا ضفاف» الذي صدرت طبعته الأولى في القاهرة بداية السبعينيات بترجمة حليم طوسون وبمقدمة جميلة كتبها الشاعر الفرنسي لويس أراغون وقد تناول غارودي في كتابه ثلاث شخصيات أثير لغط كثير حول موقفها من الحياة والسياسة والإنسان، وهذه الشخصيات هي بيكاسو، كافكا، سان جون بيرس، حيث قدم دراسة نقدية لأعمال كل واحد من هؤلاء وتطورها،

وكذلك عوالمهم الفنية والفكرية، وكان الفصل المخصص لكافكا من أجمل الفصول التي أثارت حفيظة النقد الأدبي الماركسي، حيث كتب عنه الناقد السوفيتي الشهير بوروس بوروسوف فصلاً في كتابه «الواقعية أينما وأبداً» -ترجمه إلى العربية كاميران قرداغي- يستهل غارودي دراسته عن كافكا بالقول إن عالم كافكا هو نفس عالمنا، عالم الغربة، ونجد غارودي يسخر من اللاهوتيين والماركسيين والوجوديين الذين أراد كل واحد منهم أن يُدخل عالم كافكا في دائرة فكره واتجاهه العقائدي، وغارودي يؤكد أن أعمال كافكا لا يمكن أن تكون مجرد تعبير لهذا الرأي أوذاك، لأن الرواية عند كافكا ليست فكرة مجردة ولكنها صورة للحياة بكل أبعادها، ولم يكن كافكا حسب رأي غارودي إنساناً يائساً، ولكنه شاهد على العصر، ولم يكن ثورياً، لكنه يفتح العيون على الثورة ضد الاستبداد والظلم، ورواياته لا تقدم تفسيراً للعالم، ولا تريد أن تغيره، لكنها تقدم لنا صورة عن قصور هذا العالم وعجزه، إنها كفاح ضد الغربة في عالم غريب.

في سنواته الأخيرة يناقش فكرة الصهيونية ويحاول أن يحاكم النموذج الأميركي، ويبحث عن الإيمان الصوفي، إلا أن الرجل الذي ثار على أفكار ستالين وقمعه، وجد نفسه يروج لنظرية القذافي ويدافع عن نظام صدام الذي اعتبره مقاوماً للأمريكان، وهي أخطاء كبرى بالنسبة لفيلسوف بحجم غارودي، لكنها بالتأكيد لا يمكن أن تلغي مسيرته الفكرية والفلسفية التي ساهمت في رسم مسار فكر القرن العشرين.

رحل روجيه غارودي عن عالمنا في الثالث عشر من حزيران عام 2012، بعد أن عاش حياة مليئة بالنجاح والفشل، تمكن خلالها من اختيار طريقة في الحياة تتلاءم مع أفكاره، خاض من خلالها معارك مع أقصى اليسار وأقصى اليمين، إلا أن رحيله لم يترك الكثير من الصخب والاهتمام مثل غريمه جان بول سارتر، حيث وصفت صحيفة «لوموند» خبر وفاته بأنه حدث منذ سنوات، وأضافت أن الفيلسوف الذي كان يثير الزوابع حوله لم يعد له أي حضور، ولا أثر في الحقل الثقافي..، لكن رغم كل ما قيل عنه وكتب فإن تراث غارودي الفكري لا يزال متوزعاً على العديد من المذاهب والمدارس الفكرية.

-18-

لماذا أصدع رأسي بمعارك الرفاق؟

تلقى أول صفعة على وجهه عندما كان في العاشرة من عمره. كان الأب يحاول أن يقنع ابنه بالدخول إلى مدرسة اللاهوت. لكن «بيير جوزيف برودون» لم يكن يفكر إلا بالبؤس الذي تعيش فيه عائلته. الأب يعمل صانعاً للبراميل والأم طباخة في مطعم صغير، فيما كان الصبي يعمل راعياً، وفي أوقات الفراغ يحاول تعلم اللغة اللاتينية لكن من دون الاستعانة بقاموس، فلم تكن العائلة تملك المال اللازم لشراء كتب لابنها المتفوق في الدراسة. كان ينظر إلى وجه أبيه ويتساءل هل الفقر يجعل الإنسان قاسياً؟ كتب في دفتر يومياته: «إني أعلم ما هو البؤس، فقد عشت فيه. وأنا مدين بكل ما أعلم لليأس».

الأب الذي أدمن على الخمر، لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه كان دائم الحضور إلى الكنيسة مع زوجته وأولاده، أمنيته الوحيدة أن يجد ابنه «بيير» ذات يوم واقفاً مكان القس يلقي موعظة الأحد، وكان بالإمكان أن تصنع الحياة البائسة من هذا الصبي رجلاً ساخطاً على الحياة، لكن شغفه بالقراءة ومتابعة أحوال الناس وذكاءه جعلت منه فيلسوفاً مشاغباً، أو كما سيسميه الناقد الفرنسي الشهير سانت بوف بـ «رجل الفكر والنضال والجرأة»، فقد أقسم على أن يكرس حياته لتحرير «إخوته ورفاقه»، يكتب في إحدى رسائله: «أنا ثائر ولست بهدام». وعندما صار شاباً، قرر أن يثور على «البؤس». لم تكن عائلته معنية بالثورة، كان الأب يطمح أن يساعده ابنه في تحمل مسؤولية الأسرة المكونة من خمسة أفراد. هكذا فقد هدد ابنه بأن يصفعه إن لم يترك

هذه الكتب التي لعبت بعقله. وفي المدرسة لم تكن الأمور أحسن حالاً، فقد اضطر بسبب الحاجة أن يقطع دراسته.

كانت الفترة الأولى من حياة برودون أشبه بالضربات المتتالية، ومع كل ضربة كان يشعر بحقيقة البؤس والظلم الذي تعيشه الطبقات الفقيرة: لا بد من حل. إنها الثورة: «رأيت من واجبي التذكير أن هناك أحوالاً تصبح فيها الثورة حتماً وواجباً معاً.. أنا أدفع للثورة بجميع الوسائل. بالكلام والكتابة والصحافة والعمل وضرب المثل».

ولد «بيير جوزيف برودون» في الخامس عشر من كانون الثاني عام 1809 في بيزانسون الفرنسية القريبة من الحدود السويسرية، الابن الثالث لعائلة تتكون من خمسة أبناء، توفي اثنان منهم في سن مبكرة. لم يتلق برودون أي تعليم عندما كان طفلاً، لكن والدته تكفلت بتعليمه القراءة في سن الثالثة. عندما بلغ الثانية عشرة من عمره دخل المدرسة. كان شغوفاً بالتعليم يقضي معظم وقته في مكتبة المدرسة ليستكشف العالم جيداً.عمل في إحدى المطابع التي تتولى طباعة الكتب الدينية، فكان يقضي الساعات في قراءة كتب الفكر المسيحي، سيخبرنا فيما بعد أن رحلته الدينية بدأت بالبروتستانتية وانتهت بكونه مسيحياً جديداً. يتحول للعمل في الصحافة، في هذه الفترة يتعرف على المفكر الفرنسي شارل فورييه تدور بينهما حوارات حول مجموعة متنوعة من القضايا الاجتماعية والاقتصادية الفلسفية.. وقد تركت هذه المناقشات انطباعاً قوياً عند برودون وأثرت عليه طوال حياته. في هذه الفترة يتفرغ لقراءة أعمال مونتاني وروسو وفولتير وديدرو، لكن من بين هؤلاء سيغرم بمونتسكيو وكتابه «روح الشرائع» ويتمنى ذات يوم أن يكتب كتاباً مثله. عام 1830 يحصل على منحة لإكمال دراسته، يصدر له أول كتبه «أبحاث حول المقولات القواعدية». كان في التاسعة والعشرين عندما تقدم للحصول على شهادة البكالوريا. وفي خريف عام 1938 قرر أن يسافر إلى باريس لإكمال دراسته الجامعية. في العام 1839 سيلفت الأنظار إليه حيث أصدر كتاباً «حول الاحتفال بيوم الأحد»، لكنه سيضطر لترك باريس إثر الضجة التي أثارها كتابه «ما هي الملكية؟» وهو الكتاب الذي أثار اهتمام كارل ماركس فخصص له صفحات في كتابه العائلة المقدسة: «إن كتاب

برودون ما هي الملكية؟ هو البيان العلمي الناطق باسم البروليتاريا» -العائلة المقدسة ترجمة حنا عبود-.

سيواصل برودون إثارة الضجيج حول أعماله. العام 1841 يصدر عدداً من الكتابات أشبه برسائل كانت واحدة منها بعنوان «تحذير إلى المالكين»، يقدم للمحكمة التي ستبرئه. وبسبب مواقفه ورفعه شعار «الملكية = سرقة» تم التضييق عليه وبفصل من عمله، إلا أن صداقته مع الشاعر تيوفيل غوتيه ستنقذه من وضعه المادي البائس، حيث وجد له عملاً في إحدى شركات النقل، مما أتاح له دخلاً شهرياً ثابتاً.. خلال السنوات الخمس التي أمضاها برودون في هذه الوظيفة نشر كتابين هما «إقامة النظام لدى البشرية» وكتاب «نظام التناقضات الاقتصادية» الذي اشتهر باسمه الثاني «فلسفة البؤس» وهو الكتاب الذي أثار حفيظة كارل ماركس فكتب رداً عنيفاً عليه في كتاب بعنوان «بؤس الفلسفة» نشر عام 1847.

يسعى لتأسيس مصرف تعاوني لكنه يفشل، عام 1849 يتزوج من عاملة شابة، وينشر كتاب «اعترافات ثوري» وهو مؤلف يسرد فيه الأحداث التي شهدتها فرنسا، وبعد ذلك نشر كتاباً بعنوان «الفكرة العامة للثورة في القرن العشرين» قدم فيه نظرة عامة شاملة عن مفهوماته السياسية والاقتصادية. يتيسر لتجربته أن تؤتي ثمارها، ولم يحل هذا بينه وبين الزواج في العام 1849م نفسه من عاملة شابة باريسية، وفي العام نفسه ينشر كتابه «اعترافات ثوري» وهو مؤلف يسرد فيه الأحداث التي شهدتها فرنسة، واتخذ مواقف مناوئة للوحدة الإيطالية والثورة البولندية، وبعد ذلك بثلاث سنوات نشر مؤلفاً هو «الفكرة العامة للثورة في القرن العشرين» يقدم فيه نظرة عامة شاملة عن مفهوماته السياسية والاقتصادية.

يمارس برودون العمل السياسي من خلال صحيفة يومية أطلق عليها اسم «ممثل الشعب»، ينتخب نائباً في الجمعية الوطنية، ويعلن داخل الجمعية: «إنني في صف العمال ضد رأس المال» مؤكداً أن البروليتاريا هي الوحيدة القادرة على إنجاز الثورة الاقتصادية.. يواجه هجمة شرسة من أعضاء الجمعية الوطنية حيث يصدر قرار بإدانته، وسيتذكر ماركس في تأبينه لبرودون: «أن موقفه في الجمعية الوطنية لا يستحق سوى كل إطراء

وتقدير.. فلقد كان هذا الموقف يعبر عن شجاعة فائقة». بعد تنصيب نابليون الثالث إمبراطوراً عام 1851 بدأ برودون يخوض مواجهات جديدة ضد الإمبراطور، كتب عدداً من المقالات هاجم فيها نابليون: «إن الإمبراطور ما هو إلا مغامر سافل، انتخب في جو من الوهم الشعبي ليهيمن على مقدرات الجمهورية»، يصدر عليه حكم بالسجن ثلاث سنوات، يهرب إلى بلجيكا، إلا أن مغامرته بالعودة إلى باريس مكنت السلطات من القبض عليه ليقضي سنوات في السجن، يخرج بعدها ليبدأ مواجهة جديدة وهذه المرة مع الكنيسة بعد أن صدر كتابه الضخم «حول العدالة في الثورة وفي الكنيسة» تمت مصادرة الكتاب ومن جديد يجد نفسه هارباً ليقضي أربع سنوات في بلجيكا يعود منها عام 1862 بعد صدور عفو عنه، كانت الأمراض قد حاصرته ليتوفى في التاسع عشر من كانون الثاني عام 1865 ويدفن في مقبرة مونبارناس في باريس.

قيل عن برودون إنه واحد من أشد محطمي أصنام القرن التاسع عشر، ويضعه البعض إلى جانب كارل ماركس باعتباره اقتصادياً ومفكراً وثائراً وسياسياً وفيلسوفاً كبيراً، فهو يوصف بأنه «جد» النقابية، والأب الشرعي للاشتراكية العلمية -قالها ماركس قبل أن يشتد الخصام بينهما-، والأب المغذي للماركسية وواحد من أهم مؤسسي علم الاجتماع. وقد جعلت منه كتاباته رجل الطليعة في الاشتراكية الأوروبية، وفي روسيا مارس تأثيراً كبيراً على دوستويفسكي وتورجنيف وفوضوية باكونين وعلى تولستوي الذي كان يصفه بـ «الرجل القوي جداً». ظل ماركس حتى عام 1846 يشيد بدور برودون في تنمية أسس الاشتراكية العلمية ونجده يكتب في الأيديولوجية الألمانية: «إن أهم ما في كتاب برودون (في خلق النظام عند البشر) هو جدله، ومحاولته إيجاد طريقة تبدل بها الفكرة المستقلة بعملية التفكير» -الأيديولوجية الألمانية، ترجمة فؤاد أيوب-.

كانت الكتب بالنسبة لبرودون أهم شيء في حياته، وعندما عثرت على كتاب «مختارات برودون» -ترجمة عمر شحاريرو- قرأت في المقدمة التي وضعها المترجم أن البيت الصغير الذي عاش فيه برودون سنواته الأخيرة في إحدى ضواحي باريس كان عبارة عن مكتبة، الكتب في كل مكان، حتى

سريره ازدحم بالمجلدات وكان يقول زواره «إن الكتاب سر الحياة»، وقعت في حب سيرة حياة برودون وتعلقه بالكتب، وفشلت في حل طلاسم كتاباته. أن نعرف كيف نقرأ فهذا يعني أن نمارس فعلاً ملموساً يستدعي تشغيل الجهاز الدماغي، فالقراءة كما يصفها فانسوف جوف هي: «عملية إدراك وتحديد، وتخزين للعلامات، تسبق كل تحليل للمحتوى» -القراءة، ترجمة محمد آيت العميم-، كنت أشعر أن السيد برودون بكتاباته الفوضوية يريد أن يخنقني وأن سطوره متخشبة، لا أعرف أين قرأت هذا الوصف الذي يقول: «إن تصفح كتب الفلسفة تشبه شخصاً يُجبر على أكل طبق من الشوك». قرأت فيما بعد أن أشواك التي عذبني بها برودون أثارت اهتمام ماركس كثيراً. كان ماركس قد التقى برودون أثناء إقامته في باريس عام 1844 وستدور بينهما حوارات حول هيغل، وفي واحدة من رسائله إلى أنجلز يكتب ماركس: «أمضينا مناقشات طويلة كثيراً ما كانت تمتد ليلة بأكملها، كنت أحقنه حقناً هيغلية كبيرة» - المراسلات ترجمة فؤاد أيوب، قبل أن ينشب الخلاف بين برودون وصاحب كتاب رأس المال، كان ماركس يحمل تقديراً خاصاً لبرودون الذي كان يراه أفضل اشتراكي فرنسي، ويقدر موقفه من الدين، فقد كان برودون يعتبر الدين عقبة أمام التقدم العلمي والاجتماعي، لكنه لم يطالب بإزالته نهائياً، وأيضاً كان ماركس معجباً بنقد برودون للاقتصاد السياسي البرجوازي. أثناء إقامته في باريس يجد ماركس عند برودون عناصر عديدة تؤيد تصوراته، ليس نقده المعمق للملكية الخاصة فقط، بل تأكيده أيضاً أن الاقتصاد السياسي يؤلف قاعدة التاريخ وضبط التطور الاجتماعي.

عام 1844 يطرد ماركس من باريس، ليستقر في بروكسل مع أسرته، لينضم إليه أنجلز. وقررا وضع خطط لإنشاء لجنة مراسلات شيوعية، وقد طلب من برودون أن يكون مراسلاً له في فرنسا، غير أن هذا الأخير رفض ذلك رفضاً قاطعاً. كان برودون منزعجاً من تأسيس مذهب فلسفي وفي واحدة من رسائله يعلن: «ليس لي مذهب وأرفض رفضاً صريحاً التفكير في المذاهب. لن يعرف للإنسانية مذهب إلا نهاية البشرية.. إن الأمر الذي أهتم به هو أن أجد للإنسانية طريقها أو أفتح لها الطريق إن استطعت» -برودون، مؤلفات مختارة ترجمة عمر شخاشيرو-. ونجده يرد على إحدى رسائل

ماركس بالقول: «عزيزي السيد ماركس. إني أرضى عن طيب خاطر ان أصبح طرفاً من أطراف مراسلتك التي تبدو لي ذات هدف وتنظيم في غاية الفائدة. لنبحث معاً إذا سمحت عن قوانين المجتمع وعن الصيغة التي تتحقق فيها هذه القوانين وعن مدى التقدم الذي نتوصل بموجبه لاكتشافها. ولكن بالله عليك يجب ألا نفكر بعد أن دمرنا كل العقائد القبلية بأن نخضع الشعب بدورنا إلى عملية تبشير. لنتجنب الوقوع في التناقض الذي وقع فيه مواطنك مارتن لوثر الذي شرع في الحال بعد أن أسقط المذهب الكاثوليكي في تأسيس المذهب البروتستانتي مستعيناً بالحروم واللعنات. علينا ألا نجعل من أنفسنا ونحن على رأس الحركة رؤساء لتعصب جديد، وألا نضع أنفسنا موضع الرسل لديانة جديدة ولو كانت هذه الديانة دين المنطق ودين العقل. علينا أن نصغي لجميع الاحتجاجات وأن نشجعها. لننتدد بكل حرمان وبكل صوفية. علينا ألا ننظر مطلقاً إلى أية مسألة على أنها منتهية. بهذا الشرط أدخل مسروراً في شركتك وإلا فلا» -مختارات برودون ترجمة عمر شخاشيرو-

صدر كتاب كارل ماركس «بؤس الفلسفة» في صيف عام 1848. وكان قد تفرغ لكتابته طيلة شتاء عام 1846 أثناء إقامته في بروكسل، وقد كتبه بالفرنسية. وفي مراسلاته مع أنجلز نعرف أن الكتاب تأخر طبعه بسبب مصاعب الحصول على ناشر له. في الكتاب يحاول ماركس أن يكشف عن تناقضات برودون: «إن طبيعة برودون تدفعه إلى الجدل، لكنه إن لم يفهم الجدل حقاً فإنه لن يمضي إلى أبعد من السفسطة». ويذهب ماركس أبعد من ذلك حين يصنف برودون بأنه برجوازي صغير يريد الاشتراكية لكن من دون الثورة: «إنه يريد أن يحلق -كرجل من رجال العلم- فوق البرجوازيين والبروليتاريين، وهو ليس إلا البرجوازي الصغير، الذي يتأرجح بين رأس المال والعمل، بين الاقتصاد السياسي والشيوعية» -بؤس الفلسفة، ترجمة حنا عبود-

كان ماركس قد قرأ كتاب برودون «نظام التناقضات الاقتصادية» أو فلسفة البؤس فور صدوره. وقد أدرك أن برودون وضع كتابه انطلاقاً من المناقشات والرسائل التي كانت تدور بينهما حول الفلسفة والاقتصاد، وقد رأى في كتاب برودون محاولة لإيجاد دواء مؤقت للمعاناة الاجتماعية التي

تعيشها الطبقات المسحوقة، وأن هذه المحاولة جزء من مجتمع برجوازي يحاول أن يحوّل هذه المعاناة إلى جمعيات خيرية ومنظمات مهنية.. إنها الاشتراكية البرجوازية التي تريد أن تكون بديلاً عن الاشتراكية الثورية. كان ماركس يرى أن برودون مثل جميع المصلحين، المدافعين عن مصالح الطبقات الوسطى، مدفوع بالرغبة في حماية الملكية الصغيرة الخاصة. فبرودون من وجهة نظر ماركس يقف في آن واحد ضد حق الملكية المطلق الذي يعزز رأس المال الكبير وضد الشيوعية التي كان يعتبرها خطراً أكبر بالنسبة للطبقات المتوسطة ما دامت تتعرض لمبدأ الملكية الخاصة.

في كتابه «فلسفة البؤس» يوجه برودون اللوم إلى الشيوعية التي تنادي بحق الملكية المطلق لأنه يقود إلى الاحتكار، ويدافع عن الملكية الصغيرة التي يعتبرها كفيلة بتأمين استقلال الإنسان العامل. ولهذا يتهمه ماركس بأنه يتخذ موقعاً وسطاً بين الرأسمالية والاشتراكية.

يحاول ماركس في كتابه «بؤس الفلسفة» أن يضع تحليلاً علمياً لنمط الإنتاج الرأسمالي، وقواعد لأسس الاقتصاد السياسي الماركسي، فنجده يدرس بعمق الوضع الاقتصادي والدور التاريخي للبروليتاريا في الصراع الطبقي فيكتب: «إن الشرط لانعتاق الطبقة العاملة هو القضاء على كل طبقة. وفي الوقت نفسه فإن التطاحن بين البروليتاريا والبورجوازية هو صراع طبقة ضد طبقة، صراع يكون تعبيره الأقصي ثورة كلية. وفي نظام الأشياء حيث لا توجد طبقات وتطاحنات طبقية أخري، تكف الانتفاضات الاجتماعية عن أن تكون ثورات سياسية. وإلى أن يحين ذلك الوقت، وفي عشية كل تغير للمجتمع، تكون الكلمة الأخيرة دائماً للعلم الاجتماعي» -بؤس الفلسفة-.

ويبدو أن ماركس أراد تصفية حسابه مع برودون ونظريته الاقتصادية وجداله حول هيغل فيكتب: «إن من سوء حظ السيد برودون أن يكون مجهولاً في أوروبا. ففي فرنسا، قد يكون من حقه أن يعتبر اقتصادياً سيئاً، لأنه يمكن أن يعتبر فيلسوفاً ألمانياً. وفي ألمانيا، قد يكون من حقه أن يعتبر فيلسوفاً سيئاً، لأنه يمكن أن يعتبر اقتصادياً فرنسياً قوياً. أما نحن فإننا، بصفتنا ألماناً واقتصاديين في الوقت نفسه، نجد أن من حقنا أن نشجب هذا الخطأ المزدوج». بالنسبة إلى ماركس فإن برودون لا يرى في البؤس سوى البؤس،

وقد فانه أن يرى فيه جانبه الثوري الهدام الذي سيتمكن من القضاء على المجتمعات القديمة. أما برودون فقد كان يرى أن خطيئة ماركس الكبيرة أنه يتجاهل واقع أن الاقتصاد ليس سوى جزء من علم الاجتماع. فهو يرى أن علم الاجتماع هو الوحيد القادرعلى الكشف عن المعنى الحقيقي لكل التناقضات الاقتصادية عن طريق وضعها ضمن أطرها الاجتماعية.. ولهذا نجده يأخذ على ماركس وجماعة الماديين عدم اهتمامهم بالثنائيات الماثلة في حياتنا: «لا سيما ثنائية الخير والشر». ويسخر ماركس من برودون الذي يجده يستهدي بنظرية هيغل من دون أن يكون قد فهمها جيداً. فهو يكتب تاريخاً للبشرية لا يقسم هذا التاريخ إلى مراحل زمنية بل إلى مراحل فكرية.

في رسالته إلى ماركس يرفض برودون فكرة الثورة التي: «ليست سوى اهتزاز. لا ينبغي علينا أن نطرح العمل الثوري كوسيلة للإصلاح الاجتماعي، لأن تلك الوسيلة المزعومة يمكن أن تكون مجرد دعوة للجوء إلى القوة والاستبداد.. يجب أن ندخل إلى المجتمع، بواسطة تركيبة اقتصادية أخرى. وإنني على يقين من امتلاكي وسيلة حل تلك المعضلة في المدى القصير».. وكانت الوسيلة هي كتابه «فلسفة البؤس» الذي سيسميه ماركس بدستور البرجوازية الصغيرة: «كان برودون هذا نفسه يعتبر ثورياً متطرفاً سواء من جانب رجال الاقتصاد السياسي أو الاشتراكيين، وهذا هو السبب في أنني لم أشارك فيما بعد أولئك الذين أطلقوا الصرخات من خيانته للثورة فليس خطأه أنه لم يحقق الآمال التي لم يكن لها ما يبررها».

ظل برودون طوال حياته يؤمن أنه مصلح مهمته أن يهدي العالم: «كل مصلح صانع للمعجزات أو يتمنى على الأقل أن يكون كذلك.. أما أنا فأستقبح المعجزات كما أكره أنواع السيطرة ولا أهدف إلا إلى المنطق».

أما أنا فقد ظل كابوس برودون يلاحقني حتى بعد أن غامرت وقرأت كتاب كارل ماركس «بؤس الفلسفة»، فقد كنت لا أمل ولا أهدأ في بحثي الدائم عن الكتب الغريبة، فكما عثرت على «مختارات برودون» على الرصيف في شارع المتنبي قبل أكثر من أربعين عاماً، عثرت أيضاً على كتب كارل ماركس وأنجلز وبليخانوف، ولا أنسى بالتأكيد دفاتر لينين في الديالكتيك، كلها كتب لعبت دوراً في التاريخ وبالمقابل لعبت دوراً مؤثراً في حياتي.

-19-

هل يمكن أن نضع العالم في قشرة جوز؟

لم أفق من صدمة نسبية أينشتاين وتعقيدات فنغنشتاين، وملل جيمس جويس، حتى وجدت نفسي غارقاً في قراءة بعض الكتب العلمية. كنت قد كتبت من قبل أنني بدأت بقراءة بعض الكتب العلمية في سن مبكرة، ولا أستطيع الادعاء بأنني استطعت حل ألغازها، والبعض منها لم أستطع إنهاءها، وإذا سألتني إن كنت أحب مثل هذه الكتب، فسأرد بالإيجاب. كان الشاعر والناقد الفرنسي مالارميه يقول إن: «العالم يبدأ لينتهي بكتاب»، وأنا كنت أعتبر نفسي محظوظاً لأنني عشت بالقرب من مكتبة، ولهذا كنت أشعر بأنني بالقرب من مركز الكون، فكم من الكتب التي استدرجتني إلى عوالمها الخفية، وكم من السطور لعبت دوراً حاسماً في حياتي، كم منها أمسكتها بيديَّ. وكم منها أطلت النظر إليها. أعجبتني بعض الكتب ولم تعجبني أخرى. يكتب ألبرتو مانغويل أن الكتب السيئة بالنسبة له تتمثل في النص الذي ينغلق أمام القارئ كأنه سطح بحيرة متجمد. هكذا كانت بعض الكتب بالنسبة إلي، صفحاتها ناعمة تسمح لي بالنظر إليها بمتعة، لكن ما إن أغوص فيها حتى يتكسر السطح وأغرق في بحيرة من الجليد.

عندما كان ستيفن هوكينغ في الرابعة عشرة من عمره اشترى نسخة من كتاب أينشتاين «النسبية الخاصة والعامة»، بعد أيام سيسأل والده كيف استطاع أينشتاين أن يؤلف مثل هذا الكتاب، إنه صعب للغاية ولا يمكن للقارئ أن يحرز تقدماً فيه.

«غامضة» هذا هو النعت الذي توصف به الكتب العلمية عادة، لكن

ستيفن هوكينغ كسر القاعدة عندما أصدر عام 1988 كتابه الأول والأشهر «تاريخ موجز للزمان»، -صدرت الترجمة العربية للمرة الأولى بداية عام 1990 عن دار المأمون، وقام بها باسل محمد الحديثي بعدها بسنوات صدرت ترجمة مصطفى إبراهيم فتحي-.

يعد كتاب «تاريخ موجز للزمان» من أكثر الكتب رواجاً. يكتب هوكينغ أنه شعر أن الكتب التي كتبت عن الكون لم يخاطب أيٌّ منها القارئ العادي، كما أنها لم تطرح أسئلة من عينة: من أين أتى الكون؟ وكيف ولماذا بدأ؟ وهل سيصل إلى نهاية، وما هو شكل النهاية هذه؟ ومن الطريف أن هوكينغ يقرر عدم وضع معادلات رياضية في كتابه: «لقد أخبرني البعض بأن كل معادلة أضعها في الكتاب ستقلل المبيعات، ولهذا قررت ألا تكون هناك أي معادلات باستثناء واحدة هي معادلة أينشتاين، وأرجو ألا يؤدي هذا إلى أن يهرب نصف قرائي المحتملين خائفين» -تاريخ موجز للزمان-.

لم يتوقع هوكينغ أن يحظى كتابه بكل الاهتمام وأن يظل على قائمة «نيويورك تايمز» للكتب الأكثر مبيعاً لمدة ثمانية وعشرين أسبوعاً، وأن يترجم إلى ما يقارب ثلاثين لغة وتتجاوز مبيعاته عشرة ملايين نسخة.

يقدم الكتاب إجابة لأسئلة تدور في بال الكثيرين منا، منها على سبيل المثال السؤال التقليدي من أين جاء الكون وهل كان موجوداً دائماً هنا؟ وسؤال آخر حيّر العلماء حول نسبية الزمن، كيف يبدو الثقب الأسود؟ وما هو أصغر جزء من المادة؟ ولماذا نتذكر دائماً الماضي وليس المستقبل؟ هل ينكمش الكون بدلاً من أن يتمدد؟ وهل يرتد الزمن وقتها إلى الوراء فيرى البشر موتهم قبل ميلادهم، وهل للكون بداية أو نهاية وكيف تكونان وهل للكون حدود؟ إن أينشتاين قد جعل للمكان_الزمان أربعة أبعاد، فماذا لو كان للكون أبعاد أكثر؟

يقدم هوكينغ في «تاريخ موجز للزمان» النظريات العلمية بأسلوب مشوق، ويحاول أن يشرح أصعب نظريات الفيزياء والفلك والكونيات بطريقة تمكن القارئ العادي من متابعتها، وقد روى هوكينغ أن فكرة الكتاب خطرت بباله عام 1982، وكان الهدف الأول من تأليفه هو الحصول على

المال لدفع المصاريف الدراسية لابنته إلا أن الكتاب سيتأخر ست سنوات بسبب إصابته بمرض في الحنجرة قضى على قدرته على الكلام، خلال هذه السنوات كانت ابنته قد وصلت إلى السنة الأخيرة في دراستها، ليبقى السبب الرئيسي وهو كيف يصل كتاب علمي عن الكون إلى عدد أكبر من الناس. اضطر لإعادة كتابة «تاريخ موجز للزمان» عدة مرات بناءً على طلب محرر دار النشر، من أجل تسهيل فهمه على جمهور القراء من العامة. لكنه يخبرنا أنه ندم بعد ذلك عندما قرأ الكتاب، فقد اكتشف أن هناك مفاهيم صعبة كان يمكن توضيحها بشكل أكبر.

يكتب ريتشارد دوكنز: «لا يمكن أن يكتمل كتاب عن الكتابة العلمية دون قبس من ستيفن هوكينغ، ومن كتابه تاريخ موجز للزمن. إن ما يحكيه لنا هوكينغ هو حكاية من أعظم الحكايات على الإطلاق. نحن محظوظون أيضاً أن نعيش في قرن يمكن فيه لتلك الملحمة أن تُحكى لنا. ومحظوظون أيضاً أن نسمعها من واحد من أكبر المكتشفين».

يكتب هوكينغ في تاريخ موجز للزمان: «حتى الآن فإن معظم العلماء مشغولون بتطوير نظريات جديدة للإجابة عن سؤال (ما) هو الكون؟

ولم ينشغلوا بسؤال (لماذا) الكون موجود؟

أما هؤلاء الذين من صميم علمهم أن يسألوا (لماذا) فهم الفلاسفة الذين لم يستطيعوا مجاراة تطور النظريات العلمية.

في القرن الثامن عشر اعتبر الفلاسفة أن كل المعارف الإنسانية بما فيها العلم من اختصاصهم وناقشوا أسئلة مثل: هل للكون بداية؟

ولكن في القرنين التاسع عشر والعشرين أصبح العلم تقنياً جداً ورياضياً جداً، وأعقد من أن يفهمه الفلاسفة أو أي إنسان عدا حفنة قليلة من العلماء.

لقد تقلص نطاق بحث الفلسفة إلى الدرجة التي قال عنها وينغنشتين أشهر فلاسفة القرن: «إن المهمة الوحيدة الباقية للفلسفة هي التحليل اللغوي».

ياله من انحدار ياله من انحدار سيئ للتقاليد الفلسفية العظيمة من أرسطو إلى كانط!

ومع ذلك فلو قُدر لنا أن نكتشف نظرية شاملة، فإنها يجب أن تكون مفهومة في خطوطها العريضة لكل الناس وليس لحفنة من العلماء.

عندها سنكون جميعاً فلاسفة وعلماء وأناساً عاديين قادرين على المشاركة في النقاش والتساؤل عن: لماذا نحن والكون موجودون؟

لو أننا وجدنا الإجابة عن هذا السؤال فسيكون ذلك أكبر انتصار للعقل البشري، لأننا ساعتها قد نعرف فكر الله.

يتساءل هوكينغ وهو يرى الكتاب يحقق مبيعات كبيرة: لماذا أقدم كل هؤلاء الناس على شراء الكتاب؟ ويجد أن أكثر المراجعات التي كتبت عن الكتاب كانت عاجزة عن تقديم تفسير، البعض من التفسيرات ربط بين حالته الصحية وفضول القراء لمعرفة كيف تمكن إنسان أسير مقعده المتحرك، ولا يستطيع الكلام، ولا يمكنه تحريك إلا عدد محدود من أصابعه أن يؤلف كتاباً يجيب فيه عن أكبر سؤال: من أين أتينا وإلى أين نحن ذاهبون؟ ويعترف هوكينغ أن جزءاً من القصة حول نجاحه في أن يكون عالم فيزياء بالرغم من إعاقته ربما ساعدت نوعاً ما في نجاح الكتاب: «غير أن أولئك الذين اشتروا الكتاب من زاوية الاهتمام الإنساني، ربما أصيبوا بخيبة الأمل، لأن الكتاب لا يحتوي إلا على بضع إشارات لحالتي، لقد كتبت الكتاب ليكون تاريخاً للكون وليس لي أنا» -ستيفن هوكينغ، الثقوب السوداء والأكوان الناشئة، ترجمة محمد إبراهيم الجندي-

ولد ستيفن ويليام هوكينغ في الثامن من كانون الأول عام 1942 في مدينة أكسفورد، كانت ولادته قد صادفت ذكرى مرور 300 عام على رحيل عالم الفلك الشهير غاليليو: «أعتقد أن نحو مئتي ألف طفل آخر ولدوا في ذلك اليوم، ولست أدري ما إذا كان أي منهم قد اهتم في حياته لاحقاً بعلم الفلك أم لا» -ستيفن هوكينغ، موجز سيرتي الذاتية، ترجمة محمد الجندي-، كان أكبر أطفال عائلة والدها يعمل باحثاً في أمراض المناطق الحارة، يأمل أن يصبح ابنه طبيباً، لكن ستيفن كان منذ صغره يهوى فك الساعات والراديوهات ليعرف كيف تعمل، الأم من أصول إسكتلندية تخرجت من أكسفورد وعملت في وظيفة مفتشة ضرائب. عندما بلغ ستيفن الرابعة عشرة من عمره قرر أن يدرس الرياضيات، وحصل من والده على هدية ثمينة وهي نسخة نادرة بيعت في المزاد من كتاب نيوتن «النظريات الرياضية للفلسفة الطبيعية»، كان الأب قد حضر مزاداً لبيع الكتب القديمة وعندما سمع باسم نيوتن أصر على شراء

الكتاب لابنه، ولم يهتم لما قاله بعض المعارف من أن هذا الكتاب صعب على صبي لم يتجاوز الرابعة عشرة، وَذكره صديق له بما كان يروى عن كتاب نيوتن هذا من أن عشرة فقط في العالم قرأوه ولم يفهموا منه شيئاً، فكان جواب الأب أنه يثق بقدرات ابنه وسيتمكن من حل ألغاز نيوتن. فيما اشترى ستيفن من مصروفه الشخصي نسخة من كتاب أينشتاين «النظرية النسبية».

في الجامعة التي دخلها عام 1959، اتخذ هوكينغ قراراً بأن يتخصص في علم الكونيات، ففي ذلك الوقت سيطر عليه سؤال محير، وهو من أين يأتي الكون؟ ويتذكر أحد أساتذته أن هوكينغ كان معتاداً على أن يسأل الأسئلة الأكثر إحراجاً، أسئلة يصعب جداً الإجابة عنها.

في تلك الفترة بدأت آثار المرض الخطير تظهر عليه، في أول سنة كان هناك نقص في القدرة على استخدام اليد وشلل بسيط جعل من الصعب عليه أن يربط حذاءه، وقد شخّص الأطباء مرضه، ضمور عضلي سمي بمرض العصبة الحركية، وظلت حالته تتدهور، وقيل له إنه سيعيش لمدة عامين فقط، ويقول هوكينغ لكاتب سيرته: «لقد أصابني الإحباط تماماً من هذا التوقع لسير المرض، ودفعني ترقب الموت إلى الإصابة بالاكتئاب، وخلال انتظار الموت أنفقت معظم وقتي في حجرتي، لا أخرج منها، أستمع لموسيقى فاغنر، وأعيد قراءة روايات هـ. ج ويلز، وشغفت بروايته آلة الزمن، وحفظت مقاطع كاملة من رواية حرب العوالم» -موجز سيرتي الذاتية-.

وبعد مرور سنتين وجد هوكينغ نفسه حياً، فأدرك أن الموت لم يعد وشيكاً، وارتفعت معنوياته، واكتشف الأطباء أن المرض لم يؤثر على ذهنه، واختفى الاكتئاب، في تلك الفترة حدث تحول مهم في حياته حيث تعرف على جين وايلد التي سيرتبط معها عام 1965 حيث شكل الزواج نقطة تحول في حياته: «لقد جعلتني جين مصمماً على أن أعيش وأواصل طريقي، فقد أعطتني الإرادة لأن أعيش».

في كلمته بالجمعية الملكية البريطانية قال هوكينغ: «إن غاليليو أول عالم بدأ بالفعل في استخدام عينيه، وهو بهذا مسؤول عن عصر العلم هذا الذي نستمتع فيه».

في أيار عام 1990 نشرت مجلة تايم صورة لستيفن هوكينغ وتم ذكره باعتباره نظيراً لأينشتاين، وحين سئل عن هذه المقارنة ضحك وقال: «لا تصح أبداً المقارنة بين شخصين مختلفين، أنا أقرب إلى نيوتن، وكنت أتمنى أن أصبح مثل ويلز كاتب روايات خيال علمي، في الرابع عشر من آذار عام 2018 ودع ستيفن هوكينغ عالمنا بعد أن عاش فيه باعتباره الشخصية الأكثر تميزاً في مجال العلم، وأصدرت عائلته آنذاك بياناً قالت فيه «نحن حزينون بشدة لأن والدنا الحبيب قد توفي اليوم. لقد كان عالماً عظيماً ورجلاً غير عادي سيعيش عمله وتراثه لسنوات عديدة. لقد ألهمت شجاعته وإصراره بذكائه وروح الدعابة الناس في جميع أنحاء العالم. لقد قال ذات مرة: «لن يكون هناك الكثير من الكون إذا لم يكن موطنًا للأشخاص الذين تحبهم. سنفتقده إلى الأبد».

في حياته التي استمرت 76 عاماً اتخذ هوكينغ دوراً شبه أسطوري في العقل الحديث، العبقري الشاهق الذي تتناقض براعته العقلية، بشكل عجيب وغريب، مع ظروفه الصحية حيث كان مصاباً بمرض العصب الحركي الذي تركه محصوراً في كرسي متحرك معظم حياته، كان فيها يتواصل مع العالم المحيط به.

في العام 2016 يوجه البابا فرنسيس دعوة إلى ستيفن هوكينغ، لزيارته في الفاتيكان، بالرغم من معرفة البابا بحقيقة آراء هوكينغ، المشكّكة في أسس الكنيسة ونظريات الوجود، من منطلقات فيزيائية بحتة. وسبق لهوكينغ أن صرح بآرائه، قائلاً إن الفيزياء الحديثة لا تترك مجالاً للإيمان بخلق الكون.. فمثلما أزاحت النظرية الداروينية الحاجة إلى ذلك في مجال علم البيولوجي، فإن عدداً من النظريات الجديدة شكّكت في عملية خلق الكون. وأن ما يعرف باسم «الانفجار الكبير» لم يكن سوى عواقب حتمية لقوانين الفيزياء، ولأن هناك قانوناً مثل الجاذبية، فقد صار بمقدور الكون أن يخلق نفسه من العدم. والخلق العفوي هذا هو السبب في أن هناك شيئاً بدلاً من لا شيء، وفي وجود الكون ووجودنا نحن.

وكان هوكينغ سبق أن ذكر في كتابه تاريخ موجز للزمن، أنه لا يعترض على المعتقدات الدينية، وأوحى بأن فكرة الإله الخالق لا تتعارض مع الفهم العلمي للكون، وأن بالإمكان اكتشاف نظرية مكمّلة تيسر لنا الانتصار

النهائي العظيم للعقل البشري؛ إذ سيكون بوسعنا أن نحيط علماً بالطريقة التي وجد فيها الكون.

ولكن الكتاب الأخير «المشروع العظيم»، قدم نظرية جديدة شاملة تفضي إلى أن الإطار العلمي الكبير لا يترك حيزاً للتكهن بكيفية وجود الكون.

العام 2015، اختارت صحيفة الغارديان عشرين كتاباً قالت إنها غيّرت العالم، فكانت القائمة تضم، تاريخ مُوجز للزمن، لستيفن هوكينغ، الدفاع عن حقوق المرأة، لماري ولستونكرافت، نقد العقل المحض، لإيمانويل كانط، رواية 1984، لجورج أورويل، أصل الأنواع، لتشارلز داروين، الاستشراق، لإدوارد سعيد، الربيع الصامت، لراشيل كارسون، البيان الشيوعي، لكارل ماركس وفريدريك أنجلز، الأعمال الكاملة، لوليام شكسبير، الخصي المؤنث، لجيرمين غرير، صنع الطبقة العاملة الإنجليزية، لإدوارد تومسون، معنى النسبية، لألبرت أينشتاين، القرد العاري، لديزموند موريس، كتاب الأمير، لميكافيللي، الجمهورية، لأفلاطون، حقوق الفرد، لتوماس بين، الجنس الآخر، لسيمون دي بوفوار، فوائد القراءة والكتابة، لريتشارد هوغارت، ثروة الأمم، لآدم سميث، وطرق الرؤية لجون بيرجر.

أجاب هوكينغ على سؤال حول الموت قائلاً: «لست خائفاً من الموت لكني لست في عجلة من أمري لدي الكثير مما أود معرفته قبل الموت».

وقال رداً على سؤال ما هدفه من الحياة: «هدفي من الحياة سهل وبسيط: أريد أن أفهم تماماً هذا الكون، لماذا هو على ما هو عليه، ولماذا أصلاً وجد الكون»، وقال في مقابلة صحافية مع الغارديان، قد أرحل قبل أن أكتشف تماماً أسباب كل نظريات الكون، لكنه كما قال في كتابه «تاريخ موجز للزمن»: «أنا راض تقريباً عما حققته في حياتي».

من بين الكتب التي تحمل عنواناً طريفاً كتاب الكون في قشرة جوز -ترجم للعربية للمرة الأولى عام 2003 وصدر عن سلسلة عالم المعرفة بترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، صدرت له ترجمة أخرى قام بها محمد إبراهيم الجندي-.

أصدر ستيفن هوكينغ كتابه «الكون في قشرة جوز» عام 2002، وربما

يسأل البعض هل كان هوكينغ يسخر عندما وضع هذا العنوان؟ وستكون الإجابة على لسان هاملت في مسرحية شكسبير الشهيرة: «قد أكون مكبلاً داخل قشرة جوز، وأعد نفسي ملكاً على فضاء بلا حدود» التي يضعها هوكينغ كافتتاحية للفصل الثالث من الكتاب والمعنون «الكون في قشرة جوز» يكتب هوكينغ: «ربما كان قصد هاملت هو أنه على الرغم من أننا نحن البشر محدودون للغاية مادياً، فإن عقولنا طليقة لاستكشاف الكون بأكمله، والمضي بشجاعة حتى إلى أماكن تخشى سلسلة ستارتريك أن تطأها». في هذا الكتاب أيضاً يحاول هوكينغ أن يقدم لنا الكون في عرض مبسط وميسر حتى لغير المختصين من أمثالي، وكأنه في سهولة قشرة الجوز، ويقصد أيضاً المعنى الحرفي للتشبيه لقشرة الجوز، حيث إن الكون يبدأ كما يقول هوكينغ، في شكل كرة مفلطحة في أجزاء منها تشبه قشرة الجوز في حجمها وشكلها. وهو في هذا الكتاب المليء بالأفكار والصور التي استحوذ أينشتاين على نصيب وافر منها، يكشف للقارئ عن المبادئ الأساسية التي تحكم الكون وما فيه من القوى الأساسية.. ويبين لنا أنه كثيراً ما تبدو الحقائق العلمية أكثر غرابة وتشويقاً من روايات الخيال العلمي. كما يتناول فيه أسرار أحدث الانفجارات العلمية التي تمت في الفيزياء بعد ما يقارب الخمسة عشر عاماً على صدور كتابه «تاريخ موجز للزمن»، ويقوم هوكينغ بدور الدليل. يبدأ الرحلة مع القارئ بالحديث عن نظريات أوائل القرن العشرين التي مازالت لها كل الأهمية، بدءاً من النظرية النسبية التي يخصص لها فصلاً بعنوان «تاريخ موجز للنسبية» ومروراً بنظرية الجاذبية الفائقة، ثم نظرية الأوتار الفائقة، وكنت قد قرأت عن هذه النظرية التي حيرتني في كتاب برايان غرين «الكون الأنيق» -ترجمه إلى العربية فتح الله الشيخ- وهذه النظرية حسب ما فهمت تحاول أن تحقق التكامل بين عالم الاحتمالات وفيزياء نيوتن. حيث يناقش برايان غرين إحدى أهم المشكلات في علم الفيزياء الحديثة: وهي توحيد النسبية العامة لألبرت أينشتاين وميكانيكا الكم لماكس بلانك. وهو موضوع يطول شرحه ولا أعتقد أن هذه المساحة تسمح به، مثلما لا أعتقد أن شخصاً مثل حالي مؤهل للحديث في مثل هذا الموضوع.. وأعود إلى ستيفن هوكينغ الذي يتحدث فيما بعد عن نظرية الانفجار الكبير.. حيث

الثقوب السوداء لم تعد كاملة السواد، وإنما تشع وتتبخر لتتلاشى، وحيث ينشأ الكون من بذرة حجمها وشكلها كثمرة جوز، هذا الكون الذي يقول عنه في نهاية كتابه: «إنه العالم الغشائي الجديد.. عالم يحتوي مخلوقات مثلنا». -العالم في قشرة جوز-.

-20-

لكن كتبك باللغة الألمانية يا سيدي!

قد يبدو الحديث عن كيركغارد أو كانط أو حتى شوبنهاور في هذا الوقت غريباً إلى حد ما.. فما بالك وأنت تريد أن تتحدث عن فيلسوف لا يزال البعض يعتبره لغزاً من ألغاز الفلسفة وأعني به هيغل.

في شبابي مارست بعض الكتب نوعاً من أنواع الاضطهاد تجاهي، كتب كانت تصيبني بالعجز، أتأمل صفحاتها وأسأل كيف تسنى لمؤلفيها أن يسودوا مئات الصفحات التي تصيب القارئ بالحيرة، ومن بين هؤلاء الكتاب، هيغل وكانط وهايدغر وهوسرل وليبنتز.. وكان عليّ لكي أتجاوز هذه الحيرة أن أبدأ بقراءة الكثير من الكتب عن السادة «المحيرين» هؤلاء. قبل أن أقترب من هيغل كنت أتصور نفسي القارئ «الخطير» الذي لا يشق له غبار، وأن باستطاعتي أن أهتك أسرار أي كتاب يقع بيدي، وأن بإمكاني أن أقرأ نصوص الكتب قراءة جيدة، إلى أن قررت يوماً أن أجرب حظي مع كتاب «مبادئ فلسفة الحق» للفيلسوف الألماني هيغل، وكان الكتاب من إصدارات وزارة الثقافة السورية لعام 1973 ترجمة تيسير شيخ الأرض. -صدرت بعد ذلك ترجمة أخرى للكتاب بعنوان أصول فلسفة الحق قام بها إمام عبد الفتاح- ما الذي استهواني في الكتاب حتى دفعت مبلغاً وقدرة «ثلثمائة فلس عراقي» عداً ونقداً للمرحوم بناي جار الله صاحب مكتبة التحرير لشرائه. كان الفضول الدافع الأول، والدافع الثاني حديث بعض الأصدقاء عن أن ماركس كان متأثراً بهيغل، والدافع الأهم أنني أردت أن أعرف ماذا يريد أن يقول هذا الفيلسوف الذي شاهدت صورته الملونة في مجلة المعرفة ويبدو

متضايقاً من العالم. بعد ذلك كانت العبارة المكتوبة على الغلاف الأخير للكتاب حافزاً لكي أخرج النقود من جيبي وأسلمها لصاحب مكتبة التحرير، فقد كتب المترجم أن هذا الكتاب من أواخر كتب هيغل، وأنه يحوي على مجمل فكره، وأن الموضوعات التي يطرحها تتعلق بالإنسان.. في البيت هيأت نفسي لقراءة ممتعة، لكن ما إن وقعت عيني على السطور الأولى من التقديم التي تقول: «ما من أحد ينكر الصعوبة الناجمة عن تفسير الفلسفة الهيغلية»، حتى تيقنت أنني وضعت نفسي في ورطة، وأن الكتاب سيأخذ بخناقي ويضعني في قائمة القراء «الغشمة»، إذ لم أكن قد تحولت بملء إرادتي إلى قارئ غشيم.. وتخيلت نفسي وأنا أصارع كتاب «مبادئ فلسفة الحق» مثل سيزيف الذي قرأت عنه في كتابات ألبير كامو، أدفع بكتاب هيغل الذي تحول إلى صخرة إلى قمة جبل من الغموض، ثم أتابع هذه الصخرة وهي تسقط في حضني من جديد. وضعت صخرة سيزيف -مبادئ فلسفة الحق- في مكان داخل مكتبتي البيتية التي بدأت تنمو، على أمل أن أجد يوماً من يساعدني على حمل مثل هذه الصخور.

في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» يصف برتراند راسل، هيغل بأنه «الفيلسوف الأصعب»، فيما اعترف هو بأنه: «من السهل أن تكون غير مفهوم بدرجة عالية، من أن تكون مفهوماً بطريقة بسيطة». ويصف بعض كتاب سيرته بأن كتاباته بالنسبة للفلسفة مثل قمة إيفرست لمتسلق الجبال.. ويروى عنه أنه في مساء يوم وفاته، أرسل إلى أحد تلامذته ليخبره بآخر رغباته في الحياة قائلاً: «أريدك أن تترجم أعمالي.

- فأجاب الطالب: الأمر جيد جداً، ولكن بأي لغة؟ -

* قال هيغل بصوت هامس بالألمانية.

- لكن كتبك باللغة الألمانية بالفعل»!

ورغم مكانة هذا الفيلسوف الكبيرة في الفكر العالمي، فإن الوجودي كيركغارد كان يرى في هيغل وفلسفته أنهما «يشكلان مقالاً في الكوميديا». وعندما قرأت مقال كيركغارد الذي ترجمه مجاهد عبد المنعم مجاهد ونشر في كتابه «رحلة في أعماق العقل الجدلي»، قلت مع نفسي إن هذه الكوميديا

التي يسخر منها كيركغارد، لا تزال تشكل بالنسبة لي إحدى قمم الجبال التي لا يمكن الصعود إليها من دون أن نتسلح بكل أدوات التسلق.

عندما أكتب في صفحتي على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك» عن هيغل أو كانط أو سبينوزا تكون خشيتي من أن بعض الموضوعات ربما تكون جافة وصعبة ولا تتحملها أجواء الفيسبوك التي تتطلب مقالات سريعة وقصيرة، وأيضاً خوفي من أن يقول البعض يا رجل ما لنا وما لفلاسفة أكل الدهر عليهم وشرب. فيما يتساءل البعض لماذا نولي اهتماماً لفلاسفة مثل هيغل ونحن نعيش عصر السرعة والتغريدة القصيرة وهيمنة الـ «التك توك»، ويكون جوابي دائماً أن هؤلاء الفلاسفة استطاعوا أن يناقشوا معظم المسائل التي تحيرنا في الوقت الحاضر ووجدوا إجابات مهمة لا نريد للأسف أن نتعمق فيها.

كان هيغل تجسيداً حياً للفلسفة من حيث هي عمل يشتغل به الإنسان، ولم يكن يخجل من أن يوصف بأنه فيلسوف محترف، إذ إن الفلسفة عنده حرفة، لها قواعدها ولغاتها وأحوالها.

ولد جورج فيلهلم هيغل في مدينة ستيغارت الألمانية عام 1770، لعائلة فقيرة، فقد أمه التي كان يحبها كثيراً في الحادية عشرة. وقتل أخوه في الحرب، وجنّت أخته التي كان متعلقاً بها كثيراً، كان الوالد موظفاً بسيطاً، والأم ربة بيت لا تعرف القراءة والكتابة، ولم يبلغ عامه التاسع عشر حتى اندلعت الثورة الفرنسية التي أطلق هو عليها فيما بعد «الفجر الجديد». عاش هيغل في العصر الذهبي للأدب الألماني، وبالرغم من كونه أصغر من غوته بعشرين عاماً، ومن شيلر بعشرة أعوام، فقد استطاع أن يتقرب من حلقتهم الضيقة ويصبح أحد مريدي غوته، وهناك يرتبط بعلاقة صداقة مع شاعر ألمانيا الكبير هولدرلين.

كان هيغل أكبر إخوانه، وكان والده يرى فيه طفلاً ذكياً، قرر أن يجعل منه كاهناً، فسجله في الفصل الأكاديمي بجامعة «تونجن» لدراسة اللاهوت، وهناك تعرف على شيلينغ الذي سيصبح أقرب أصدقائه وكان يصغره بخمسة أعوام، إلا أن دراسة اللاهوت لم تستهوه فقرر الانصراف

لقراءة مؤلفات أفلاطون وسبنكا ومونتسكيو، ثم وجه اهتمامه إلى جان جاك روسو وكان كتاب «العقد الاجتماعي» بمنزلة كلمة السر التي تراءت لهيغل الشاب من أجل قيام فلسفة ثقافية حديثة الأسلوب، وقد دفعته آراء روسو إلى أن يشكل نادياً للسياسة كانت تناقش فيه الثورة الفرنسية، الأمر الذي دفع السلطات الألمانية إلى مطاردة أعضاء النادي، فقرر هيغل الهرب إلى مدينة برن، وهناك استطاع أن يجد وظيفة في أحد بيوت الأثرياء، بعد أن توسط هولدرلين في تعيينه، وفي تلك الفترة عكف على دراسة مؤلفات هيوم وميكافيللي ولايبنتز وسبينوزا، كما قام بدراسة مؤلفات كانط. في تلك الفترة نلاحظ اتجاه هيغل نحو فصل الدين عن الدولة، وفي رسالة إلى هولدرلين عام 1795 يكتب: «لا سبيل إلى هز صرح الكنيسة الأرثوذكسية، طالما أن مهامها ترتبط بمصالح دنيوية، وتتداخل في بناء الدولة، وطالما أن الكنيسة مصرّة على أن تجعلنا نضع أيدينا في جحورنا ونتكاسل في انتظار أن تأتي مملكة الله، العقل والحرية سيظلان كلمة السر التي بيننا ونقطة اتحادنا، هي الكنيسة غير المرئية». بعد وفاة والده عام 1799 يتخلى هيغل عن وظيفة المعلم الخاص، ليلتحق بصديقه شيلينغ في جامعة ينا، وكان شيلر وفيخته هناك أيضاً، الآن شيلينغ حقق شهرة ومكانة سمحتا له بالتوسط لتعيين صديقه هيغل مدرساً في الجامعة براتب متواضع، وفي تلك الفترة يؤسس مع شيلينغ مجلة للفلسفة ينشر فيها الفصول الأولى من كتابه «علم ظهور العقل»، في تلك الفترة احتل الفرنسيون مدينة ينا فأغلقت الجامعة ما اضطر هيغل لأن يعمل صحفياً بالقطعة، ثم قبل وظيفة مدير مدرسة ثانوية.

في عام 1801 يقدم رسالته للدكتوراه وفيها يخالف آراء نيوتن، ويعود للجامعة ليصبح عام 1805 أستاذاً فوق العادة، إلا أن الحرب التي لم تنته بددت آماله بحياة مستقرة، فسُرق منزله، ولم ينجح سوى في إنقاذ واحد من ممتلكاته وهو الأكثر قيمة لديه: مخطوط فينومينولوجيا الروح «ظاهريات الروح» الذي كان يحتفظ به في جيب معطفه أثناء حريق المدينة واضطر لطلب مساعدة غوته. عام 1806 استطاع أن يقنع أحد الناشرين بطبع كتابه الذي لم يجد إقبالاً من القراء حيث وجدوا صعوبة في حل ألغازه، لكن رغم

المصاعب فإن هيغل كان يرى أن العالم يتحضر لمعركة كبيرة سينتصر فيها الإنسان، إنسان الأزمنة الحديثة.

بلغ هيغل الأربعين من عمره ولم يتزوج، ونراه عام 1811 يكتب إلى أحد أصدقائه يزف إليه نبأ خطوبته: «أعلم أنك تود لي السعادة من كل قلبك.. اسمها ماري فون توخر»، كانت ماري أصغر منه باثنين وعشرين عاماً، وقد أراحه الزواج وساعده على زياده إنتاجه الفلسفي، فقدم بعد عام كتابه الأشهر «علم المنطق»، كان قد صار علماً في سماء الفلسفة عندما طلبت إليه جامعة هايدلبرغ أن يقبل فيها منصب الأستاذية، حيث أمضى في هذه الجامعة عامين قبل أن يتولى منصب أستاذ الفلسفة في برلين، كان يتمنى منذ زمن طويل الاستقرار في مركز الحياة الثقافية والسياسية في ألمانيا، وقد وفرت له جامعة برلين حقلاً واسعاً للكشف والدراسة، واستطاع أمام جمهور مختار من الطلبة أن يقدم محاضراته الشهيرة حول فلسفة الدين والجماليات وفلسفة التاريخ ونشر عام 1821 كتابه «مبادئ فلسفة الحق».

غير أنه أثار منذ وصوله برلين، حفيظة الأوساط المحافظة التي اتهمته بأنه يغلف أفكاره السياسية الإصلاحية بتعابير فلسفية غامضة، وقد أغضب السلطات بمحاضراته وأعماله، مما أدى إلى أن تتم مراقبته من قبل الشرطة، ولم يقتصر خصومه على اتهامه بوحدة الوجود وإنكار خلود النفس، وإنما كانوا يهزأون من كل تفكيره الديني، وقد كانت شهرته سبباً في تكاثر أعدائه وتزايد الحملات عليه، لكنه لم يهتم وواصل عمله، إلا أن إصابته بمرض الكوليرا لم تمهله طويلاً، فمات في الرابع عشر من تشرين الثاني عام 1831 ولم يكن أحد ينتظر له مثل هذه الميتة.

كتاب «مبادئ فلسفة الحق» هو آخر كتاب كتبه هيغل، وكان ولا يزال من أكثر الكتب التي أثارت الجدل والهجوم في نفس الوقت حيث اتهم هيغل بأنه ألف كتابه لخدمة سيده فريدريك فيلهام ملك بروسيا. واتهمته أنا وأنا أقرأ الصفحات الأولى من الكتاب أنه كتبه ليزيد حيرة القراء من أمثالي، أو ليصيبنا بالملل مثلما فعل بكتابه اللغز «ظاهريات الروح» في «مبادئ فلسفة الحق» يبرر هيغل قيام الدولة انطلاقاً من الوجهة التشريعية والأخلاقية. فالقانون عنده هو التعبير عن الإرادة العقلانية التي تحقق ذاتها كحرية بشكل

يسير قدماً ومن ثم كان لتطوره طابع منطقي وتاريخي في نفس الوقت. لقد رفض هيغل النظرة العقلانية للقانون كشيء مطلق خارج التاريخ مستمد من المبادئ الخالدة والصادقة بشكل مطلق والتي تنطبق على جميع المجتمعات وتحكم التطور التاريخي جميعه، وانتقد هيغل العقلانية على عنايتها بالفرد في الإنسان لا عنايتها بالعنصر الاجتماعي، وعلى جعل القانون ثانوياً بالنسبة لإشباع رغبات الأفراد واحتياجاتهم من دون العناية بالضرورات الأعلى للمجتمع والدولة.

وقد وجه هيغل نقداً إلى الرومانسية الاجتماعية، وأكد أن القانون يجب أن يرتبط مع الواقع الاجتماعي والتطور التاريخي، وأن الفرد يجب أن يتلاءم مع النزعة الجمعية ويخضع لهذه النزعة. ويعد الخضوع الكامل للفرد للسلطة المطلقة للدولة المبدأ الرئيسي في كتابه «مبادئ فلسفة الحق».

عند هيغل يحدث اندماج المجتمع في الجماعة في دولة مثالية تكون مرآة وأداة للمجتمع. لم يتصور هيغل الحرية نفسها من جانبها الذاتي باعتبارها تعبيراً عن الإرادة الحرة، بل نظر إليها على أنها الخضوع للقانع بحرية من جانب الفرد للمبادئ العامة للأخلاقيات الموضوعية التي تكون الدولة خير تعبير عنها: «إذا خلطنا بين الدولة والمجتمع المدني، وجعلنا الغاية الخاصة من الدولة الأمن وحماية الملكية الخاصة والحرية الشخصية -لكانت مصلحة الأفراد بما هم كذلك الغاية النهائية التي اجتمعوا من أجلها، ويتج عن ذلك أن تكون عضوية الدولة مسألة اختيارية. غير أن علاقة الدولة بالفرد شيء مختلف عن ذلك أتم الاختلاف.. إن الفرد لن تكون له موضوعية ولا فردية أصيلة ولا حياة أخلاقية إلا بوصفه عضواً من أعضائها. إن الاتحاد الخالص والبسيط هو المضمون الحقيقي والهدف الصحيح للفرد، ومصير الفرد هو أن يعيش حياة كلية جماعية»- مبادئ فلسفة الحق -

يصر هيغل على أن تكون الدولة غاية لا مجرد وسيلة ويرفض التفكير فيها باعتبارها وسيلة لتحقيق أي مصلحة شخصية. ويذهب إلى أن التعامل مع الدولة باعتبارها آلية للحصول على غايات خارجية ومادية، تعمل على إشباع حاجات الناس، يخرجها عن طابعها الأخلاقي ويؤدي في النهاية إلى الفساد السياسي والانهيار الاجتماعي، ويؤدي كذلك إلى انهيار الدولة ذاتها.

يرى هيغل أن بذور الانهيار هي في إعلاء النزعة الفردية والتعامل مع الدولة باعتبارها وسيلة لتحقيق غايات اقتصادية جزئية، لكن ما الحل الذي يقدمه هيغل لهذه الأزمة، تلك التي يسميها تناقضات المجتمع المدني؟ يتمثل الحل في مفهومه عن الدولة، فهي في نظره القادرة على علاج هذه التناقضات. إن تكوين نظام سياسي وعقلاني ومرضٍ عند هيغل يتطلب إرادة جماعية كلية لا إرادة فردية جزئية.

يبين ألكسندر كوجيف في كتابه «مدخل لقراءة هيغل» -ترجمة عبد العزيز بومسهولي- أن نظرية الدولة عند هيغل كلها ترتكز على مفهومي الرضا والاعتراف. فالدولة توجد عندما يجد كل مواطن، في قلب الجماعة، تلبية للمصالح التي يقر بأنها معقولة، وكل واحد يعترف بالدولة عندما يتعرف على إرادته الشخصية المعقولة في الإرادة العامة التي تعبر عنها أجهزة الدولة.

في عام 1843 كتب شاب ألماني اسمه كارل ماركس كتاباً عنوانه «نقد فلسفة الحق عند هيغل»، في محاولة لتحديد طبيعة الدولة وعلاقتها بالمجتمع المدني أي بمجموع المصالح الاقتصادية والاجتماعية. وانتهى ماركس إلى أن نظام هيغل يقضي إلى التوفيق مع العالم كما هو وتكريس عقلاني للوضع البرجوازي. ففي كتاب هيغل رفعت الدولة إلى نظام عقلي، هو تجسيد وارتقاء للمنطق وتبرير للملكية ونظمها. فالدولة عنده هي منظمة وخالقة للمجتمع. هي دولة معقولة. بكل أنظمتها ووسائلها.

ورغم النقد الذي يوجهه ماركس في بداياته إلى هيغل فإنه سيعترف فيما بعد بأفضال هيغل عليه وسيكتب: «حين كنت أكتب الجزء الأول من رأس المال، كان أبناء الجيل الجديد، أولئك الادعياء المتهورون، يباهون بأنهم ينظرون إلى هيغل نظرتهم إلى (كلب ميت).. لذا بادرت وأعلنت صراحة أنني لست إلا تلميذاً لهذا المفكر العملاق». وفي الدفاتر الفلسفية يكتب لينين «يستحيل استحالة قاطعة أن نفهم رأس المال لكارل ماركس، ما لم ندرس منطق هيغل ونفهمه بأكمله».

عام 2020 بمناسبة الاحتفال بمرور 250 عاماً على ولادة هيغل كتبت

الفيلسوفة الأمريكية جوديث بتلر مقالاً بعنوان «أهمية هيغل لزماننا» قالت فيه إن التفكير في هيغل هذه الأيام سيبدو أمراً غريباً، فماذا بإمكان فيلسوف ولد قبل 250 عاماً أن يفعل في حياتنا، وما الذي سيقوله عن ثورة الاتصالات والكواكب.. وتضيف بتلر: «يرينا هيغل في كتابه ظاهريات الروح أننا لسنا مخلوقات متوحدة ببساطة، منفصلين بعضنا عن بعض، ففي منظوره، الأفراد الواعين لذاتهم ليسوا متوحدين تماماً البتة لأنه وفي جزء يعتمدون بعضهم على بعض ولا يمكنهم الاستغناء عن الآخرين. وهو يقدم لنا حسب تعبير بتلر تأملاً ذاتياً يتلخص في أن فرصتنا كأفراد تكمن في وعينا بذاتنا: «متى ما وصلنا إلى معرفة ذاتنا، قبضنا على السبيل الذي نغدو به مرتبطين جوهرياً بالآخرين». تقول بتلر في مقالها: «في قراءتي لهيغل، هذا الاكتشاف بأني مربوط بالآخر وأن الآخر مربوط بي وأن كلانا مربوط بعالم حي، ينير وضعنا كمخلوقات حية وعلاقتنا التبادلية المتجسدة وحساً من الالتزام الأخلاقي المتبادل الذي هو التزام أيضاً للمحافظة على عالم يجعل حياتنا ممكنة وجديرة بالعيش» - أهمية هيغل لزماننا، ترجمة فاطمة الشملان.

في زماننا هذا نقول إننا بحاجة إلى قراءة كتب هيغل، فهو يقدم لنا أفكاراً أكثر دقة، وهي بذلك أكثر قابلية للاستعمال، عن أنفسنا، وعن صعوباتنا، وعن مكاننا في التاريخ.

يتساءل الفيلسوف السلوفيني «سلافوي جيجيك»: ماذا لو حاولنا ربط هيغل بالعالم الذي نعيش فيه الآن؟ حيث يقول إنه من الضروري ألا نعود إلى هيغل فحسب، بل نكرر انتصاراته ونتجاوزها، ونتغلب على حدوده بأن نكون أكثر هيغلية من السيد هيغل نفسه، ويضيف أن: «هيغل لا يرسم نظاماً ويفرضه كشكل اجتماعي محدد، بل هو يرسم حالة اجتماعية بعد أن تجاوزها الزمن بوعي تام. حالنا اليوم يشبه فلسفة هيغل تماماً، أكثر بكثير من ماركس»، وبطريقته في الكتابة يربط جيجك هيغل بالعالم الذي نعيش فيه الآن، ويوضح سبب كونه أكثر متعة مما يمنحه أي فيلسوف آخر، ويتساءل: ولماذا لا يكون القرن الحادي والعشرون، قرن هيغل بامتياز؟

-21-

رحلة فكرية في عالم العقل وأوهامه

كتب فولتير في الخامس من كانون الأول عام 1726 رسالة إلى المركيزة دو بومبادور يقول فيها: «في هذه البلاد -يقصد إنكلترا- هناك نور قوي من المعرفة»، كان فولتير في الثانية والثلاثين من عمره، خرج قبل أشهر من سجن الباستيل وينفذ عقوبة الأمر الملكي الذي صدر في الأول من أيار والذي ينص: «على فولتير أن يتعهد بمغادرة فرنسا من دون استمهال، وأن يبحر في اليوم نفسه من مرفأ كاليه إلى لندن».

في تلك السنوات يعثر على كتب فرنسيس بيكون.. كان الفيلسوف الإنكليزي قد توفي قبل مئة عام من وصول فولتير إلى إنكلترا، فقد سقط فريسة المرض بعد أن حاول في يوم شديد البرودة أن يتأكد من فعالية الثلج في حماية اللحوم من التفسخ، فأصيب بالتهاب حاد أدى إلى وفاته، وتسحر فولتير كتب بيكون فيقرر أن يكرس سنوات المنفى لدراسته ونراه يصف شعوره في رساله يبعثها إلى شقيقه الأكبر: «وضعت كتبه إلى جانب السرير، لأنني أشعر أنها تبوح لي بالكثير من الأعاجيب». -فولتير أو العقل ملكاً، ترجمة عبود كاسوحة-، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام فيلسوف التجريبية، حيث أصبح بيكون يمثل حداً فاصلاً في حياة فولتير، لقد وصف لنا شعوره وهو ينتهي من مؤلفات بيكون: «لقد كان بيكون بالنسبة لي أشبه بمرآة أتطلع من خلالها إلى خفايا الفكر»، بعد ذلك سيكتب في يومياته: «لم يكن قاضي القضاة بيكون يعرف الطبيعة، بيد أنه عرف وحدّد جميع الدروب التي تقود إليها. لقد احتقر في سن مبكرة ما كان المجانين المعتمرون القبعات المربعة

ما يعلمونه باسم الفلسفة في البيوت الصغيرة المسماة معاهد، وقد بذل كل ما في وسعه كيلا تستمر تلك الجماعات، التي نصبت نفسها مدافعة عن كمال العقل البشري، في إفساد هذا العقل بماهياتها وبهلعها من الفراغ واستقباحها له، وبصورها الجوهرية، أي بكل تلك الكلمات التي اكتسبت هالة من الوقار بفعل الجهل، والتي أصبحت شبه مقدسة من جراء مزجها على نحو مثير للسخرية بالدين».

أحس فولتير أن كتابات بيكون تنبئ بولادة عصر جديد فجعل من نفسه مبشراً لها وبعد سبع سنوات ومن منفاه سيكتب أطروحته في الدفاع عن مذهب إرادة الحرية عند الإنسان وإثباته في وجه جميع الصعوبات: «إن شعور الحرية الحي في كل واحد منا حاضر على نحو مباشر، ولا يمكن أن يكون محض خداع، لأن وجود ظاهرة الإرادة في ذاته كاف كي يبرهن على حريتها» ثم يطلق فولتير مقولته العظيمة: «أن تريد وأن تفعل هذا هو تماماً ما يعني أن تكون حراً».

بعد وفاة فولتير بمئتي عام، سأجد نفسي في مواجهة بيكون، مستلقياً على أريكة خشبية ومعي نسخة من كتاب سلامة موسى «هؤلاء علموني»، كنت أستكشف من خلاله عدداً من الأسماء ساهمت في تغيير الدنيا كما يقول سلامة موسى في مقدمته.

في الفصل الخاص بفولتير يشير سلامة موسى إلى أن الفيلسوف الفرنسي كان يشيد بدور «بيكون داعية التجربة». من هو بيكون الذي أغرم به فولتير؟ نجحت بصعوبة في الحصول على كتاب بعنوان «فرنسيس باكون.. مجرب العلم والحياة» كتبه عباس محمود العقاد، تلقفته بفرح على أمل اكتشاف السر وراء إعجاب فولتير بصاحب القبعة الكبيرة الذي وضع العقاد صورته في الصفحة الأولى من الكتاب.. تمكنت من قراءة المقدمة رغم أنها تتحدث عن أوضاع إنكلترا في زمن بيكون ويتطرق فيها العقاد إلى شكسبير وكريستوف مارلو، وفاوست الإنكليزي، دون أن يكشف لي سر هذا الفيلسوف الفرنسي؟.. بعد أكثر من عشرين صفحة وجدت نفسي في مواجهة شخص يصفه العقاد بأنه لم يكن «من أصحاب الخلق الوثيق والبنيان الركين».. في تلك الأيام كنت معجباً بقدرة العقاد على الكتابة في كل الفنون،

الأدب، الفلسفة، الدين، علم النفس، وأسأل نفسي كيف له القدرة على جمع كل هذه المعلومات وصياغتها في كتب كانت تنفد ما إن تصل إلى المكتبة التي كنت أعمل فيها؟.. وفي مثل سني آنذاك كان العقاد مرشداً عقلياً لي، وبرغم أن بعض صفحات كتبه تبدو غامضة لعيني في عمري، فإنه كان أشبه بضوء ساطع يكشف أمامي طرقاً جديدة للمعرفة. كنت قد قرأت أن العقاد كان يمتلك مكتبة ضخمة جداً، بل يقال إن شقة العقاد كانت عبارة عن مكتبة، الكتب في كل مكان، في حجرة الاستقبال، وفي المطبخ، وعلى السرير وفي الممرات، كانت مكتبته تبهر كل من يراها حيث تتزاحم الكتب على رفوفها، وبسبب كثرة الكتب سيضطر العقاد إلى استئجار الشقة المقابلة لشقته ليملأها هي الأخرى بالأكوام من المجلدات. تمنيت أن تكون لي مكتبة مثل مكتبة العقاد، الكتب فيها تتكدس على الأرفف، وتتراكم قرب السرير، وتكاد تختنق بها الجدران. كتب تؤثث غرفتي وأمتلك من خلالها كل شيء، ألم يقل شوبنهاور: «اختلطت فكرة شراء الكتب بامتلاك محتواها».

كانت الرحلة مع كتاب العقاد عن فرنسيس بيكون رحلة ممتعة وغنية، ملهمة، وباعثة على الحياة، وعندما انتهيت منها، قررت أن أجرب رحلة أخرى مع هذا المواطن الإنكليزي، وهذه المرة مع كتاب بعنوان «فلسفة فرنسيس بيكون» تأليف حبيب الشاروني. بعد أن انتهيت منه شعرت بأنني قد قمت بإنجاز يستحق التقدير. فإذا كان كتاب العقاد أشبه بجولة في حياة وفلسفة بيكون، فقد كان كتاب حبيب الشاروني يشبه الذهاب في رحلة فكرية في عالم العقل والمعرفة. وستزداد معرفتي بالسيد بيكون بعد أن عثرت على أحد أعداد مجلة تراث الإنسانية وفيها تلخيص لكتابه «الأورغانون الجديد» قام بها فؤاد زكريا الذي يصف فيها كتاب بيكون بأنه: «محاولة لكشف القيم الجديدة التي تتضمنها الحضارة العلمية الحديثة في أول عهدها».

منذ لحظة ولادته في الثاني والعشرين من كانون الأول عام 1561 حدد له والده السير نيكولاس بيكون حامل أختام الملكة إليزابيث الأولى مستقبله: العمل في السياسة، يكتب فرنسيس بيكون: «إن مولدي ونشأتي وثقافتي كانت كلها تشير إلى الطريق الذي ينبغي أن أسلكه، السياسة، فكنت كأنني وضعت السياسة في طفولتي» إلا أن هذا الشاب المغرم بحياة البلاط

والمحب للمغامرات وحياة الترف كانت تنتزعه رغبة أخرى هي الاشتغال بالفلسفة.. وكان في كثير من الأحيان يبدو متردداً أيهما يؤثر السياسة بكل منافعها أم الفلسفة بكل متاعبها: «كنت أعتقد أنني ولِدت للقيام بخدمة البشرية.. ولذلك أخذت أسأل نفسي: كيف يمكنني أن أُفيد البشرية أكثر مما يمكن، فوجدت أن لدي استعداداً خاصاً بطبيعتي لتأمل الحقيقة».. لكنه وبسبب الظروف التي مرّ بها بعد وفاة والده عام 1579 يقرر العمل في السياسة فيضطر إلى ترك كليته للقبول بمنصب دبلوماسي في السفارة الإنكليزية في باريس، ولم تجلب له السياسة سوى الخصوم والمتاعب التي أدت واحدة منها إلى إعدام أقرب أصدقائه «الإيرل إسكس» الذي اتهم بالخيانة العظمى، وقد اختارت الملكة إليزابيث، فرنسيس بيكون بمنصب المدعي العام الذي قدم الأدلة على خيانة صديقه، الأمر الذي جعل بيكون يشعر بتأنيب الضمير والخزي فيكتب: «إن طموحي أشبه ما يكون بالشمس التي تنفذ من خلالها النجاسة والدنس، وبالرغم من ذلك تظل نقية كما كانت من قبل».. وبسبب مواقفه السياسية وعمله في القضاء حيث أكمل دراسة القانون في كمبريدج أصبح بيكون شخصية شهيرة وغنية وحصد المناصب الكبيرة، المدعي العام للمملكة، النائب العام، وأخيراً جلس على كرسي رئيس القضاة. إلا أن الأمور لم تجرِ بما يشتهي، فالخصوم كانوا يتحينون الفرص للإيقاع به، وفي احتفال أقامه بمناسبة بلوغه الستين عاماً وهو يشرب نخب «شرف رعايا الملك وأسعدهم حظاً» وصلت إلى قصره كتيبة من الجنود ومعها أمر بإلقاء القبض عليه بتهمة تقاضيه الرشوة.. حيث أودع في سجن برج لندن ولم تنفع رسائل الشكوى التي قدمها للملك جيمس بالعفو عنه، حيث أصدر القضاة قراراً بأن يدفع غرامة قدرها أربعون ألف جنيه لتنتهي مرحلة سجنه، ويقرر أن يعتزل الناس ليعيش في الريف آخر سني حياته متفرغاً لمعشوقته الفلسفة التي سرقتها منه السياسة وألاعيبها.. كان بيكون قد نشر عام 1605 أول مؤلفاته وهو كتاب «المقالات» متأثراً بكتاب الفيلسوف الفرنسي ميشال دو مونتاني. بعدها بعام نشر كتاب عن حكمة القدماء إلا أن عمله في السياسة لم يمنحه الفرصة لإكمال مشروعه الفلسفي فجاءت مرحلة العزلة ليكتب خلالها مؤلفاته الرئيسة كتاب «الإحياء العظيم» الذي صدر الجزء الأول منه

عام 1615، أما الجزء الثاني فقد ظهر بعنوان مختلف «الأرغانون الجديد». بعدها نشر أجزاء من مؤلفه «التاريخ الطبيعي والتجريبي لتأسيس الفلسفة» وكتاب «غاية الغايات» وأخيراً كتابه «أطلانطا الجديدة» وهو محاكاة ليوتوبيا توماس مور.

في معظم مؤلفاته حاول بيكون أن يعيد تقويم الفلسفة اليونانية، حيث وجد أن العيب الأساس في طريقة تفكير فلاسفة اليونان والعصور الوسطى هو الاعتقاد بأن العقل النظري وحده كفيل بالوصول إلى العلم، وأصرّ على الوقوف بوجه الفكرة التي تحتقر التجربة، ويشبه مؤرخو الفلسفة الدور الذي لعبه فرنسيس بيكون في الفلسفة بالدور الفعال الذي قدمه مارتن لوثر في حركة الإصلاح الديني فمثلما كان لوثر ومعه أصحاب الدعوة الإصلاحية يؤمنون أن غاية الدين أن يكون الفرد إنساناً صالح النوايا، وهو ليس بحاجة إلى سلطة يأخذ بتفسيراتها للدين، فإن بيكون كان يرى أن تحقيق غاية العلم هو أن يبدأ الإنسان كأنه طفل بريء، وأن يتحرر من كل سلطة مفروضة على ذهنه، وأن يستخدم عقله ويضع لنفسه منهجاً صحيحاً، وبذلك يصل إلى الحقيقة دون معونة من آراء القدماء. وكما نادى لوثر بأنه لا جدوى منها في الوصول إلى الخلاص، فكذلك حاول بيكون أن يثبت في فلسفته التنويرية، أن حكمة القدماء وفلسفتهم اللفظية لا جدوى منها في الوصول إلى الحقيقة وإنما هي عقبات تجعلنا نكتفي بمواجهة الألفاظ بدلاً من أن نواجه الطبيعة والأشياء بشكل مباشر. فمزيد من نور المعرفة يهدينا إلى عقيدة فلسفية.. ولهذا يعلن بيكون من مكان عزلته: «فلتعقل حتى يمكنك أن تعتقد» ونجده يستهدف في فلسفته تضييق مجال الظن ليتسع مجال اليقين: «إن المعرفة وحدها هي التي تطهّر العقل من كل الشوائب»، ويكرس سنواته الأخيرة لفكرة واحدة وهي أن المعرفة ينبغي أن تثمر، وأن العلم ينبغي أن يكون قابلاً للتطبيق في كل مجالات الحياة، وأن على الإنسان أن يضع أمامه هدفاً واحداً وهو أن يجعل من تغيير ظروف الحياة وتحسينها وتغييرها واجباً مقدساً.. ولهذا نجد صرخته العظيمة من أن العلم الذي يذهب ويختفي دون أن تتغير معه حياة الناس ليس علماً، والعلم الذي هو مجرد تكديس أفكار ونظريات مجردة دون أن ينعكس تأثيرها على أحوال الإنسان ليس علماً.. فقد وجد أن

العلم الذي يدرس في الجامعات ليس علماً، ولا بد من ثورة شاملة تحدد وظيفة هذا العلم وعلاقته بما حوله. ووجد بيكون أن الطريق إلى العلم الصحيح يكمن في التجربة العلمية، ولهذا أخذ يقوم بنفسه ببعض التجارب كالتبريد الصناعي وتلقيح النباتات لإنتاج أنواع مختلفة جديدة، ورسم خرائط لاختراع سفن تسير تحت الماء، وأخرى لمركبة تطير في الهواء.

وقد كانت خاتمة حياته مرتبطة بشغفه بالتجارب العلمية، ففي أحد أيام شهر آذار من عام 1626 وبينما كان مسافراً في الريف الإنكليزي أخذ يفكر في طريقة جديدة يمكن بها حفظ اللحوم من التعفن، فنزل من عربته واشترى دجاجة ذبحها ثم ملأها بحشوة من الثلج، وما إن فرغ من التجربة حتى أصيب بنزلة برد حادة تطوّرت إلى التهاب بالرئتين لم يمهله طويلاً.. وكانت وصيته أن يدفن في نوع من الكتمان: «إنني مودع روحي بين يدي الله، أما اسمي فإنني باعث به إلى سائر الأمم والعصور» ويقول فولتير إن بيكون كان بإمكانه أن يكتب على شاهدة قبره «لتكن أفكاري حجر الزاوية في بناء عالم جديد مليء بالنور».

بعد ما يقارب الأربعين عاماً سيتسنى لي قراءة كتاب الأرغانون الجديد -ترجمة عادل مصطفى- وكنت قبل العثور على ترجمة الكتاب قد قرأت كتاباً ممتعاً بعنوان «أوهام العقل» وهو قراءة لكتاب بيكون وفلسفته، تأليف عادل مصطفى، ولهذا الكاتب والمترجم القدير أفضال كبيرة على القراء العرب، قدم للمكتبة العربية ترجمات مهمة لكتب الفلاسفة الرواقيين والإبيقوريين، إضافة إلى مؤلفاته المتميزة.

صدر كتاب «الأرغانون الجديد» عام 1620، وهو الجزء الثاني من كتابه «الإحياء العظيم»، وكان قد كتب من قبل كتاب «النهوض بالعلم» فجعله الجزء الأول من كتابه. كان بيكون ينوي أن يتألف كتاب «الإحياء العظيم» من ستة أجزاء، لكن ظروفه لم تتح له سوى نشر الجزء المعنون «الأرغانون الجديد». وهو يكتب في مقدمته للكتاب: «السبب وراء قيامنا بنشر كتابنا على عدة أجزاء يعود إلى أن بعضه يمكن أن يوضع خارج دائرة الخطر، ونفس السبب يجعلنا نلحق قسما صغيراً من هذا العمل في هذه المرحلة.. هذا هو مخطط لتاريخ طبيعي وتجريبي مناسب للتأسيس لأرضية فلسفة من

نوع جديد» -الأورغانون الجديد، ترجمة منذر محمود. وهناك ترجمة قام بها عادل مصطفى-. والكتاب يعد تمرداً على منهج أرسطو. فكتب أرسطو في المنطق جمعها تلامذته وأطلقوا عليها «الأورغانون» التي تعني «الآلة»، وسميت بهذا الاسم لأن المنطق عند أرسطو هو «آلة العلم» أو وسيلة الفيلسوف للوصول إلى الصواب. وقد أراد بيكون بتسمية «الأورغانون الجديد» معارضة منطق أرسطو ولم يفعل ذلك لمصلحة الأفلاطونية أو النزعة الصوفية المسيحية، وإنما من أجل التقدم العلمي الذي يسعى لخدمة الإنسان. إن قيمة المعرفة وتبريرها، كما يرى بيكون، يكمنان في تطبيقها العملي وفائدتها، فوظيفة المعرفة الحقيقية أن توسع سيادة الجنس البشري وسيطرة الإنسان على الطبيعة، فنجده في الكتاب يلفت الانتباه إلى الآثار العملية لاختراع الطباعة والبارود التي غيرت مظهر الأشياء. وكان بيكون يرى أن العلم الذي يذهب ويختفي دون أن تتغير معه حياة الإنسان في شيء ليس علماً، فهو مجرد تكديس للأفكار والآراء دون أن ينعكس تأثيره على أحوال الناس، فالعلم كما يوضحه في «الأورغانون الجديد»، هو ذلك الذي يؤدي إلى تغيير حقيقي في حياة البشرية. وقد اتجهت دعوة بيكون إلى القيام بأنواع جديدة من الدراسات العلمية التي ترتبط بحياة الإنسان ارتباطاً وثيقاً، بحيث يكون هذا العلم أساساً متيناً تُبْنى عليه الفلسفة الجديدة، بدلاً من ذلك الأساس الأرسطي الواهي الذي يصفه بأنه مجرد تجريدات لفظية.

كان هدف فرنسيس بيكون الذي يطرحه في «الأورغانون الجديد» هو أن يكون العلم، القوة التي يملكها الإنسان في مواجهة ظروفه، ولكي يصل الإنسان إلى رأي صحيح في طبيعة الأشياء عليه أن يتحرر أولاً من كل الأحكام المسبقة، التي تقف عائقاً دون تقدمه. إن المعرفة هي بالحقيقة صورة عن الطبيعة دون تصورات تحمل على الخطأ، الأحكام المسبقة هي ما يسميه بيكون بالأوهام. وربما كان أشهر أجزاء كتاب «الأورغانون الجديد» وهو الجزء الذي يتحدث فيه بيكون عن الأوهام الأربعة التي تحيط بحياة الإنسان وهي:

ا. أوهام القبيلة: وهي ناشئة عن طبيعة الجنس البشري، ذلك أن العقل ومعنى الطبيعة عندنا لا يمكن أن ينشآ إلا تبعاً لمقاييسنا الإنسانية،

والعقل بمنزلة مرآة غير مستوية إذ هو يجنح إلى مزج ذاته بالأشياء وهو بذلك يقوم بمسخ الأشياء.

2. أوهام الكهف: وهي أوهام قائمة في الفرد وهي تنشأ عن استعداداته، عن تربيته، عن عاداته وميوله.
3. أوهام السوق: وفيها يعتقد بيكون أن اللغة تقود أيضاً إلى الخطأ من خلال تقديم دلالات خاطئة، عدا أن العبارات تقدم نفسها على الأشياء. من هنا تنشأ الخلافات حول الكلمات والأسماء والألفاظ.
4. أوهام المسرح: وهي أوهام متوارثة مع تعاليم المدارس الفلسفية. وقوامها استخدام أساليب برهانية معكوسة واختراع النظريات المبسطة. وهو يرى أن معظم الآراء الفلسفية السابقة، أشبه بمسرحيات غرضها التلاعب بعقولنا التي كثيراً ما تتقبل تلك الآراء دون مناقشة أو نقد.

وبعد أن ينتهي بيكون من عرض الأوهام الأربعة، يؤكد على ضرورة التخلص منها جميعاً حتى يكون دخولنا مملكة الإنسانية بلا أفكار أو أوهام مسبقة.. لكن ما هو الطريق إلى دخول مملكة العقل والعلم.. يؤكد بيكون أن بداية الطريق هي الشك الذي هو طريق التجربة والخطأ. فالشك يدفعنا إلى التجربة التي على ضوئها يتضح الطريق.

حظيت أفكار فرنسيس بيكون باهتمام الفلاسفة، وكتب عنه الفيلسوف الألماني ليبنتز: «إنه حتى عبقرية عظيمة مثل ديكارت لتخر زاحفة على الأرض إذا قورنت ببيكون من حيث اتساع النطاق الفلسفي والرؤية الرفيعة»، وقد اعتبره فلاسفة التنوير مؤسساً للعهد الفلسفي الحديث وأهدوا إليه موسوعتهم الفلسفية، وقال ديدرو: «إننا إذا انتهينا من وضعها بنجاح نكون مدينين بالكثير لبيكون الذي وضع خطة معجم عالمي عن العلوم والفنون في وقتٍ خلا من الفنون والعلوم». فيما أهدى إيمانويل كانط كتابه «نقد العقل المحض»: إلى بيكون معتبراً إياه المؤسس الأول للحداثة.

-22-

أيها القارئ العزيز، هل أنت براغماتي؟

ذات يوم وكعادته سيدخل المترجم والناقد يوسف عبد المسيح ثروت إلى المكتبة التي أعمل فيها، كان يتصبب عرقاً ويحمل مجموعة من الكتب التي وضعها على المنضدة.. قال لي بعد أن جلس: هذا أبو يعقوب -ويقصد صاحب مكتبة دار الكتب القديمة التي كانت تتخذ من إحدى شقق شارع الرشيد مقراً لها- أكبر نفعي، ولو كان وليم جيمس يعيش بيننا لنافسه على فلسفته البراغماتية.. تركت عبد المسيح يشرب الماء وأخذت أقلب في الكتب التي كان البعض منها قد تمزق غلافه، ثم التفتُّ إليه وأنا أسأله: معقولة أبو يعقوب يصير فيلسوف؟.. قال وهو يبتسم: بالفلوس تلكاه أكثر فصاحة من سقراط.. وقبل أن يبدأ يوسف عبد المسيح جولته في أرجاء المكتبة سألته: هل هناك كتب تشرح الفلسفة البراغماتيه؟، ابتسم وهو يلتقط كتاباً من أحد الرفوف: «ما إلها سوق بالعراق لأن قراء الفلسفة في العراق لو وجوديين لو ماركسيين» وأضاف وهو يهمس: «وأنت تعرف أننا بلد اشتراكي النزعة شلون تريد يستوردون كتب تروج للفلسفة الأميركية»، بعدها تركني، لبواصل هوايته بتفحص الكتب، وقبل أن يخرج قال لي: في المرة القادمة سأجلب لك كتاباً ممتعاً عن الفلسفة الأميركية.. وقد أوفى بوعده وكان الكتاب مجلداً ضخماً بعنوان «تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام» ترجمه إلى العربيه حسني نصار. كان يوسف عبد المسيح ثروت قد أخبرني أن هناك ترجمة لكتاب وليام جيمس البراغماتية إلى العربية، ورحت أبحث عنها إلى أن حصلت على نسخة في مكتبة الحرية التي أسسها آنذاك الصحفي الراحل علي حيدر.

كنت متلهفاً لقراءة كتاب وليام جيمس، ومن حسن حظي أيضاً أن كاتب مقدمة الترجمة العربية كاتبي المفضل زكي نجيب محمود. شعرت بالانتصار وأنا أطيل النظر إلى صفحات الكتاب الخمسمائة التي يخبرنا المؤلف وليام جيمس أنها محاضرات خلال أعوام 1906 و1907 ألقاها في جامعة كولومبيا، والغريب أن جيمس كان منزعجاً من اسم «البراغماتية» وكان ينوي تغييره لولا أن: «الوقت فات لتغييره» والسبب كما يقول إن البراغماتية: «قد قذفت بنفسها من حالق على نحو مفاجئ وبدون سابق إنذار» -البراغماتية، ترجمة محمد علي العريان- هل قرأت الكتاب كاملاً؟ لا بد أن أعترف أن الفصول الأولى كانت غامضة، ولا يمكن أن يفهمها سوى قارئ متبحر بالفلسفة والمؤلف نفسه يضع عنوان «المعضلة للمحاضرة الأولى من كتابه»، ويعترف بصعوبة الفلسفة حين يكتب: «لقد سمعت أصدقاء وزملاء يحاولون تقريب الفلسفة من ذهن الجمهور، لكنهم سرعان ما تيبسوا وأجلوا، ولم تكن النتائج مشجعة» -البراغماتية ترجمة محمد علي العريان-. كتاب وليم جيمس يتحدث عن الكثير من الأشياء، بعضها غامض، وبعضها أكثر غموضاً، والصفحات الأقل غموضاً، بالنسبة لي في تلك المرحلة من حياتي، وجدتها في الصفحات التي يشرح فيها مفهومه للحقيقة، لكن الفصول المتبقية من الكتاب فقدت قدرتي آنذاك على فهمها.

ظلت البراغماتية ولا تزال تعبيراً صادقاً عن الفلسفة الأميركية، بل إن البعض يربط بينها وبين السياسة الأميركية، حتى يقال إن البراغمانية كانت ولا تزال تعبر عن نظرة طبقة محددة إلى العالم، وهي الطبقة السياسية الأميركية، حيث صاغها ممثلوها لتكون أداة للسيطرة الفكرية على العالم..، ويذهب البعض مثل سلامة موسى إلى اعتبار البراغماتية محاولة لمواجهة الفلسفة الاشتراكية التي تؤمن بالتغير والحقيقة الموضوعية، ويذهب سلامة موسى إلى أن البراغماتية ضد التطور العلمي لأنها تؤمن بأن الوجود اعتقاد والنجاح معيار الحكم على الحق والباطل.. في كتابه «أفكار وشخصية وليم جيمس» -ترجمه إلى العربية محمد علي العريان- يكتب رالف بارتون أن موسوليني اعترف بفضل الفلسفة البراغماتية عليه عندما كتب: «أفادتني براغماتية

وليم جيمس فائدة جمة في مستقبلي السياسي. إذ علمني جيمس أن من الخير أن نحكم على الفعل على أساس نتائجه وليس على أساس مذهبي».

تخبرنا موسوعات الفلسفة وقواميسها أن الأصل اللغوي للبراغماتية يعني «ما هو عملي» وهذه الكلمة كانت من وضع الفيلسوف الأميركي تشارلز ساندرس بيرس» وهو صاحب العبارة الشهيرة «ما هو عملي هو تجريبي بالضرورة»، ويعد بيرس أول فيلسوف أمريكي يقدم للعالم فلسفة جديدة تتبلور فيها الحياة العقلية في أمريكا، وهذه الفلسفة التي سميت «البراغماتية» طورها من بعده الفيلسوفان الكبيران اللذان سارا على نهجه وهما وليم جيمس وجون ديوي. عاش تشارلز بيرس حياة قاسية، ولد في العاشر من أيلول عام 1839 في كمبريدج وكان الابن الثاني لأستاذ الرياضيات والفلك في هارفارد، تلقى منذ صغره تعليماً فلسفياً من والده الذي حبب إليه علم المنطق، فحفظ وهو صبي عن ظهر قلب كتاب إيمانويل كانط «نقد العقل المحض»، تخرج من هارفرد عام 1859، ليعمل في مؤسسة لعلم مساحة الأرض، وسيشارك في تأسيس النادي الميتافيزيقي الذي كان أحد مؤسسيه أيضاً وليم جيمس، بعدها يعمل أستاذاً محاضراً في هارفارد حيث ألقى محاضرات عن فلسفة العلوم، وكتب عدداً من المقالات في المجلة الفلسفية. عام 1887 يقرر بيرس الابتعاد عن الجو الأكاديمي بعد أن حصل على إرثه بعد وفاة والده، يسافر إلى بنسلفانيا وهناك يقرر التفرغ لكتابة «كتاب في المنطق» الذي قال في إحدى رسائله لوليم جيمس إنه سيكون بـ 12 مجلداً، وبسبب عدم معرفته إدارة أمواله، وجد نفسه يغرق في الديون.. كتب عدداً من الأبحاث التي تحولت إلى كتب، ومن أجل الحصول على المال ألقى بعض المحاضرات في بوسطن، لكن المكافأة لم تكن مجدية، عام 1875 تهجره زوجته الأولى بعد زواج استمر ثلاثة عشر عاماً، وتجبره الظروف على بيع مكتبته التي كانت تحوي كتباً نادرة في المنطق بمبلغ 550 دولاراً. عام 1883 يتزوج من الفرنسية جوليت آنيت، التي كانت مغرمة بأفكاره، لكنها قاست معه الحرمان وشظف العيش، لكنه رغم ذلك أصر على الانتهاء من كتابه الكبير في المنطق.. أصيب بالسرطان الذي لم يمهله طويلاً حيث توفي في 19

نيسان عام 1914، وكانت آخر كلماته لزوجته أنه سيودع هذه الدنيا وقد أنجز حلم حياته «فلسفته البراغماتية».

يختصر لنا بيرس موقفه الفلسفي بالقول: «إن فلسفتي يمكن وصفها بأنها محاولة فيزيائي أن يصور بنية الكون تصويراً لا يتعدى ما تسمح به مناهج البحث العلمي، مستعيناً في ذلك بكل ما سبقني إليه الفلاسفة السابقون، لكني لن أصطنع في هذا طرائق الميتافيزيقيين في الاستنباط الذي يقيمونه على فروض من عندهم». -جيرار ديلودال الفلسفة الأميركية، ترجمة جورج كتورة-

في كتابه «البراغماتيه» يحدد وليم جيمس المعنى الحقيقي للكلمة: «الاصطلاح مشتق من الكلمة اليونانية التي تعني (الفعل أو العمل أو الوقوع)». ويخبرنا جيمس أن بيرس هو الذي أدخل هذه الكلمة إلى الفلسفة للمرة الأولى عام 1878.

كان السؤال الرئيسي الذي يشغل بيرس في فلسفته «البراغمانية» هو: ما هي الفكرة؟ «فمن المعروف أن جميع الناس يقولون إن لديهم أفكاراً سياسية واجتماعية واقتصادية وأحياناً ثقافية وغيرها ويتساءل بيرس: متى تكون هذه الفكرة جديرة بهذا الاسم؟ يؤكد بيرس أن الذي يحدد الفكرة ليس «مقوماتها» بل ما تستطيع أن تفعله في دنيا الأشياء، فالفكرة أداة تُطلب أو تستخدم للغرض الذي تؤديه، وليست هي كالصورة الفنية ننظر إليها بذاتها، وبيرس يصف الفكرة مثل مفتاح الباب، ليس المهم أن يكون مصنوعاً من النحاس أو الحديد أو الخشب، بل المهم أنه يفتح الباب المغلق، فإذا لم ينفتح الباب، لا تكون هناك قيمة للمفتاح، مهما اتخذ لنفسه من صور المفاتيح، ولهذا عند بيرس أن الفكرة هي خطة للعمل، وقيمتها في نجاح تلك الخطة. هي مثل الخريطة التي يحملها المسافر، ليست أهميتها بنوع الورق وجمال الألوان، بل بكونها صالحة في إرشادنا إلى الطريق الصحيح حيث يتعرف من خلالها المسافر أين يقع المكان الذي سيذهب إليه.. فالفكرة تكون صادقة وعملية طالما أن اعتقادي فيها يكون مفيداً ومريحاً.. وطبقاً لتعريف وليم جيمس فإننا لا نستطيع أن نرفض أي فرض له نتائج مفيدة في حياتنا، فإذا كانت الأفكار مفيدة ونافعة لي فهي حق وواجب عليَّ أن أعتقد فيها وألتزم بها، مثل

ما هو واجب عليَّ أن أعتني بصحتي وأحصل على المال. فالفكرة النافعة حق والعكس صحيح، وكذلك فإن الفكرة غير النافعة أو الضارة هي فكرة زائفة.. ويحدد بيرس أنه لا فكرة صحيحة ما لم تكن هناك تجربة تدعمها.. ولهذا فالبراغماتية كما يتصورها بيرس ليست «رؤية عن العالم، بل هي منهج للتفكير من أهدافه أن يجعل الأفكار واضحة». -هربرت شنيدر تاريخ الفلسفة الأمريكية ترجمة محمد الشنيطي-.

كان بيرس يكره النظريات التجريدية التي لا تحدث فرقاً في الواقع، كان يعتبرها كلاماً فارغاً، فالحقيقة بالنسبة له هي ما ننتهي بالحصول عليه.

نشر وليام جيمس كتابه «البراغماتية» بعنوان فرعي «اسم جديد لبعض الأساليب القديمة في التفكير» في عام 1907، أي قبل وفاة زميله بيرس بسبعة أعوام، في ذلك الوقت كان جون ديوي يلقي محاضرات عن البراغماتية سيجمعها فيما بعد في كتاب بعنوان «تجديد في الفلسفة» -ترجم إلى العربية بعنوان إعادة البناء في الفلسفة-، وقبل صدور الكتاب كان وليم جيمس قد أمضى ساعات من النقاش حول مفهوم البراغماتية.. حيث لخص وليم جيمس مفهومه للحقيقة بأنها التي تنفع.. والغريب أن كتاب «البراغماتية» الذي كتبه وليام جيمس أثار حفيظة بيرس الذي قال إنه شوه نظريته، ولهذا أصر بيرس أن يطلق على فلسفته اسم «البراغماتية الدقيقة». في واحدة من رسائله يكتب بيرس: «على الرغم من أن جيمس يسمي نفسه براغماتياً -ولا شك أنه استقى أفكاره عن الموضوع عني- فإنه يوجد فرق جوهري جداً بين براغماتيته وبراغماتيتي».. وظلت العلاقة متذبذبة بين بيرس وجيمس، لكن الأخير كان يحمل الكثير من التقدير لبيرس وعندما خطط بيرس لكتابة كتابه الضخم عن «المنطق» أرسل وليم جيمس رساله إليه يقول فيها: «لقد غمرني الفرح من صميم فؤادي إذ أعلم أنك تستعد لنشر نتائج أبحاثك وتفكيرك الفلسفي في شكل كامل ومترابط، لا يوجد مفكر أكثر ابتكاراً منك في جيلنا برمته، لقد أوحيت لي شخصياً بأمور في غاية الأهمية أكثر من أي شخص آخر قدر لي أن أعرفه»، إلا أن الغريب أن وليم جيمس لم يهدِ كتابه «البراغماتية» إلى صديقه بيرس صاحب الفضل في تأسيس هذه الفلسفة وإنما أهداه إلى: «ذكرى جون ستيوارت ميل الذي تعلمت منه لأول مرة الانفتاح البراغماتي

للعقل، والذي يحب خيالي أن يصوره كزعيمنا لو كان حياً بين ظهرانينا اليوم»، لكنه كان قبل هذا التاريخ وبالتحديد عام 1896 أهدى كتابه «إرادة الاعتقاد» -ترجمة محمد حب الله- وسيكتب في الإهداء: «إلى صديقي القديم تشارلز ساندرز بيرس الذي أدين لرفقته الفلسفية في الأيام الخوالي وإلى كتاباته في السنوات الحديثة بالبحث والعون، أكثر مما في وسعي أن أعبر عنه أو أرد فضله.

ولد وليم جيمس في الحادي عشر من كانون الثاني عام 1842 وكان أكبر إخوته الخمسة الذين كان من بينهم شقيقه الروائي هنري جيمس، ولد لأسرة غنية، كان الأب من أسرة اغتنت من التجارة والاشتغال بالزراعة، معجباً بكتابات السويدي إيمانويل سويدنبورغ عن التصوف، وقد أنفق الأب معظم سنوات حياته في رحلات لا تنقطع بين أميركا وبلدان أوروبا، حيث كانت هذه الرحلات طريقه إلى التثقيف، ولهذا عاش وليم سنوات حياته الأولى متنقلاً بين نيويورك وجنيف وباريس، وقد أتاحت له هذه الرحلات إتقان عدد من اللغات منها الفرنسية والألمانية.. ومثل صديقه بيرس سيدخل جامعة هارفرد، لكنه لم يختر الفلسفة وإنما الكيمياء، بعدها ينتقل إلى دراسة الطب حيث يتخرج في الجامعة طبيباً مختصاً، ليسافر إلى أوروبا حيث أكمل دراسته العليا في اختصاص علم وظائف الأعضاء، وقد أخذ يلقي محاضرات عن صلة علم الأعضاء بعلم النفس، ونجده في هذه السنوات يؤسس أول معمل لعلم النفس التجريبي في أمريكا، وكان أول كتبه موسوعته الضخمة «أصول علم النفس» التي أرسى فيها دعائم جديدة لعلم النفس، فقبله كان علم النفس يقوم على مبادئ لاهوتية، إلا أن وليم جيمس أصر على أن يقوم هذا العلم على التحليل الفيزيولوجي، وسيكتب في إحدى رسائله إلى بيرس: «يبدو لي أن الوقت قد حان لكي يبدأ علم النفس أن يكون علماً».. عام 1897 يصبح جيمس أستاذاً للفلسفة، حيث راح يهتم بدراسة الأديان، وتعريف الحقيقة والمنهج في الفلسفة، وسينشر عام 1898 كتابه «إرادة الاعتقاد» -ترجمه إلى العربية محمد حب الله، وكتاب العقل والدين عام 1902- ترجمه إلى العربية محمد حب الله -تبعه كتابه الشهير «البراغماتية» عام 1907 وكتاب عالم متعدد عام 1909- ترجمه إلى العربية

أحمد الأنصاري -وكتاب «معنى الحقيقة»- ترجمه إلى العربية أحمد الأنصاري، وكتاب مشكلات الفلسفة الذي صدر بعد موته -ترجمه إلى العربية محمد فتحي الشنيطي- كان وليم جيمس يعاني من مرض القلب منذ صباه، وخلال السنوات الأخيرة أخذت حالته الصحية تسوء، سافر إلى باريس للعلاج عام 1910، لكن العلاج فشل ليعود إلى منزله حيث توفي في 26 آب عام 1910 وقد شخص الأطباء أسباب الوفاة، فشل في وظائف القلب، حيث تم دفنه في مقابر الأسرة في كمبريدج.

بعد سنوات عدت لقراءة كتاب وليم جيمس البراغماتية، وقد نجح الكتاب في المرة الثانية في إعادتي إلى قراءة الفلسفة بنظرة جديدة. وبعد الانتهاء منه سألت نفسي هل هذه هي البراغماتية؟ التي وصفها وليم جيمس بأنها الفلسفة الوحيدة التي تضع نفسها في خدمة الإنسان، فهو في كتابه يقترح علينا أن نتبنى فلسفة تلائم حاجاتنا وتطلعاتنا، وحسب رأي جيمس فإن البراغماتية تدلنا على طريقة حياة لا تستبعد أي فرضية إن كانت نتائجها ستكون مفيدة لحياتنا يكتب جيمس: «من هنا فإنه في مسرى نمط تفكيرنا، من المؤكد أن الحقيقي، مثل الصائب الذي لا يمكن على أية حال أن يكون ثمة غبار عليه من الناحية المنطقية والمبدئية، ليس سوى ذاك الذي يبدو ملائماً لنمط تحركنا وفعلنا وسلوكنا».. ويؤكد جيمس أن مهمة الفلسفة هي «رصد ما هو حقيقي»، والبراغماتيه في مفهوم جيمس هي فلسفة العمل، والفكرة التي تقوم عليها البراغماتية هي في أن نخضع سلوكنا بأكمله لاختبار مادي واحد وهو أن نسأل: هل لهذا المسلك ثمن مجز؟ وما هي القيمة الفورية لأي عمل نرغب في تأديته، ويوضح جيمس هذه الفكرة قائلاً: «ولكن لا تسيئوا فهم هذه الفكرة. فإذا ما ذكرت القيمة الفورية فإنني لا أعني رد الثمن بالدولارات والسنتات، وإنما أقصد بها الجزاء في صورة صحة أسلم، وعقل أقوى وروح أجرأ.. كان وليم جيمس قد قرر أن يطبق فلسفته البراغماتية على حياته،: «لقد منحتني هذه الفلسفة حافزاً أقوى على الحياة، وتسامحاً أحكم نحو الآخرين، ونظرة أصفى إلى الكون، وآفاقا أوسع، ورضا أعمق، وسلاماً أعظم».. ويقول وليم جيمس إنه ليس هناك ما نخشاه ما دام العالم هو بيتنا المشترك وسكانه جميعاً هم أفراد أسرتنا الواحدة، ويؤمن جيمس

ان الدين الحقيقي هو ذلك الذي يوحد الجنس البشري بأكمله، ويجعل منه أسرة واحدة.

وطبقاً للبراغماتية فإننا كبشر لا نستطيع أن نرفض أي فرض له نتائج مفيدة في حياتنا، فإذا كانت الفكرة مفيدة ونافعة لي في هذا الموقف الآن فهي حق واجب علي الاعتقاد فيها، ومن حقنا أن نؤمن بأي فكرة أياً كانت طالما أنها تقودنا نحو الهدف.

يكتب وليام جيمس: «أولى بالمفكر البراغماتي أن يدير ظهره في إصرار وعناد لكل القضايا القبلية والمجردات والمبادئ الثابتة والمبادئ المغلقة والمطلقات، وعليه فقط بالنتائج الملموسة والعمل والقوة». -البراغماتية، ترجمة محمد علي العريان-.

-23-

هل يمكن أن نقرأ الفلسفة مثلما نقرأ الروايات

وأنا أنظر إلى كتب الفلسفة التي امتلأت بها رفوف مكتبتي الشخصية، وعانيت معها سنوات وسنوات، تذكرت عبارة قرأتها للفيلسوف الفرنسي آلان بادیو يقول فيها: «لا تنتمي الفلسفة إلى قاعات الأكاديميين فقط؟ بل إنها تنتمي إلى حياة المجتمع».

كان أول كتاب فلسفي يقع في يدي بعنوان «المفكرون»، كتاب أبيض اللون عليه اسم عثمان نويه بارزا، قرأت في مقدمته: «لقد كانت قراءة الفلسفة إلى عهد قريب مقصورة على خاصة من العلماء، ولكنها بمضي الزمن قد عم نفعها الناس جميعاً، فلم تعد تستأثر بها طبقة من الناس دون طبقة»، الكتاب الذي صدر في منتصف الستينيات شجعني على اقتناء كتب الفلسفة، كانت القراءة بالنسبة لي آنذاك أشبه بفرصة لعيش الحياة بصورة أكثر متعة، وكانت الكتب تحمل لي العالم بين صفحاتها، قال لي أحد زبائن المكتبة ذات يوم وأنا أحدثه بحماسة قارئ مبتدئ عن كتاب «المفكرون»، إن كتاب مباهج الفلسفة لديورانت يقدم لك خلاصة مبسطة عن تاريخ الفلسفة. كنت أخشى من الاقتراب من كتب ول ديورانت، مجلدات ضخمة تحتل رفاً كبيراً. تعرفت من خلال كتاب «المفكرون» على كتيبة من الأسماء كانت كتبهم المترجمة إلى العربية تثير فزعي كلما نظرت إليها، إلا أن نصيحة الزبون ساهمت في فتح طريق جديد للولوج إلى عالم الفلسفة الواسع. كنز بديع اسمه «مباهج الفلسفة» -ترجمة أحمد فؤاد الأهواني- هنا الفلسفة ليست

مصطلحات ومفاهيم معقدة، وإنما هي فلسفة تحاول أن تفهم الحياة التي نعيشها، وأن تكشف عن سائر المشكلات الإنسانية.

ويليام جيمس ديورانت الذي يختصر اسمه إلى «ول ديورانت» مولود في الخامس من تشرين الثاني عام 1885، ورحل عن عالمنا بعد احتفاله بعيد ميلاده الـ «96» -توفي في السابع من تشرين الثاني عام 1981- قضى الجزء الكبير من حياته يبحث في تاريخ الأفكار وتطور الحضارات، كنت أسمع اسمه كثيراً من زبائن المكتبة وهم يتلهفون للحصول على نسخة من موسوعته «قصة الحضارة» التي صدرت أجزاؤها الـ «40» بشكل متسلسل بإشراف طه حسين، وقد قضى ديورانت ما يقارب نصف قرن في كتابة «قصة الحضارة» وكان ينوي في بداية الأمر أن تكون الموسوعة خمسة أجزاء، لكن البحث تطور وتشعب وأخذ ينتج مجلداً بعد آخر. كان الفضل لصاحبنا «ديورانت» أن فتح عيني على كنوز من الكتب كنت أتطلع إليها كل يوم، لكني أخشى الاقتراب منها، فقد كنت أؤمن قبل لقائي بديورانت أن الفلسفة عالم خاص ولغة خاصة وأنها تهم طائفة معينة من الناس، وهو ما أخبرني به ديورانت نفسه في «مباهج الفلسفة» عندما كتب في المقدمة عن فتنة الفلسفة التي فقدت ولم تعد محبوبة، لماذا؟ يقول ديورانت لأن أحفادها -ويقصد العلماء- سعوا إلى رميها إلى خارج الدار، إلا أن ديورانت لم يكتف بإلقاء اللوم على العلوم وإنما على الفلسفة أيضاً لأنها حسب رأيه: «فقدت روح المغامرة». قد يقول البعض إن الفلسفة اليوم لا ترتبط كثيراً بحياتنا، غير أن الواقع يقول إن الفلاسفة وإن اختلفت مسمياتهم وأشكالهم لا يزالون يبحثون عن إجابات لما يدور حولنا، وإن المؤلفات التي تخرجها لنا المطابع عن الفلسفة ومناقشتها للسياسة والأخلاق والمعرفة، تثبت أن الفلاسفة لا يزالون هم الأفراد الذين يسألون عن كل شيء كما أخبرنا ذات صباح مشرق عمنا «سقراط»، وأن الفيلسوف لا يزال هو «الفرد العارف بكل شيء» مثلما كان يردد بروتاجوراس زعيم الفكر السفسطائي الذي عاش أصحابه في أثينا في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد.

. في كتابه «ما هي الفلسفة؟» يرى الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز أنه لا يكفي القول إن الفلسفة «أم العلوم» لأن النضج الهائل للعلوم والتقنيات

يستدعي التساؤل عن سبب استمرار الفلسفة، ولهذا يطالب دولوز الفلسفة على إبداع أنماط جديدة من الفكر. ويتساءل دولوز: ما معنى أن نتفلسف في هذا العصر بالذات؟ الجواب سنجده عند ديكارت الذي يقول إننا نتفلسف اعتماداً على ذواتنا من دون أن يعني ذلك الاستغناء عن فكر الآخرين أو إلغاءه.

كيف سيتطور تاريخ الفلسفة في ظل ثورة المعلومات؟ يجادل الفيلسوف الإنكليزي «جوليان باجيني» بأن الناس في كل مكان يتعاملون مع نفس الفلسفة باعتبارها تبحث في الأسئلة الأخلاقية. يرفض باجيني ما يقوله البعض من أن الفلسفة تدور حول الأفكار، فهو يرى أن مهمة الفلسفة أن تتناول الحجج والأدلة: «لا جدوى من أن يكون لديك ما يبدو فكرة فلسفية عظيمة، كالقول مثلاً إنه ليس لدينا إرادة حرة، وذلك إن لم تتمكن من الإتيان بحجج أو أدلة تدعم هذا القول» -الفلسفة موضوعات مفتاحية، ترجمة أديب يوسف-، وباجيني الذي وجد في منصات التواصل الاجتماعي عاملاً مساعداً في نشر أفكاره يقول إن قوة الفلسفة تأتي من خلال قدرتها على مواصلة التأثير وهو يرى في مواقع التواصل الاجتماعي عاملاً مساعداً في نشر الأفكار، والتعرف على جمهور جديد لا يجد ضالته في الورق وإنما في شاشة الهاتف أو الكومبيوتر.

هل الفلسفة لا تزال مهمة يكتب آلان باديو: «إن الفلسفة دائماً في الخلف! الفلسفة تحاول دائماً اللحاق بالمستجدات غير الفلسفية! الفلسفة هي طير الحكمة، وطير الحكمة هو البومة. لكن البومة تطير فقط عند أفول النهار. الفلسفة هي النظام الذي يأتي في بداية الليل بعد نهار من المعرفة ومن التجارب» -الفلسفة تكراراً خلّاقاً، ترجمة أيمن الجندي-

في يوم من أيام الجمع حيث تأخذني قدماي صوب شارع المتنبي، ذهبت باتجاه دار الجمل فقد قرأت إعلاناً عن صدور ترجمة عربية لكتاب آلان باديو «بيان ثانٍ من أجل الفلسفة» -ترجمه إلى العربية فتحي المسكيني-، وقد أعادني الكتاب إلى قراءاتي الأولى لكتابات آلان باديو قبل أكثر من «30» عاماً، حين نشرت مجلة العرب والفكر العالمي عام 1990 مقالاً أشبه بكتاب صغير بعنوان «بيان من أجل الفلسفة» ترجمة الراحل مطاع صفدي.

في السبعينيات والثمانينيات وأنا بعد في مرحلة تقليب صفحات الفلسفة، كنت أتوقف بشيء من الفضول والإعجاب أمام تلك الصورة الشهيرة التي تجمع بين سارتر وسيمون دي بوفوار. كانت هذه الصورة ومعها كتب سارتر كافية للهيمنة على قارئ مثلي، لم يعرف من الفلاسفة آنذاك سوى سارتر وقليل من هيغل وأطياف من ماركس ومحاولات يائسة لفهم كانط، وصراع في سبيل الوصول إلى سبينوزا، وهروب من أفلاطون وجمهوريته.. وكثيراً ما كنت أنسى نصوص هؤلاء الفلاسفة وتبقى في ذهني كلمات سارتر وعباراته الرنانة.. كنت أنقاد بسهولة إلى كتب سارتر، ولا أرى في الفلسفة إلا وجهه، وكنت أؤمن أن الفلسفة الفرنسية تبدأ بسارتر وتنتهي عند سارتر أيضاً.. لقد رافق سارتر أول خطواتي لدخول مغارة الفلسفة التي اكتشفت فيما بعد أن لها آباء، وأيضاً أبناء. وكان آلان بادیو يعتبر نفسه ابناً لمجموعة كبيرة من الفلاسفة: «إن الفلسفة إلى حد كبير تكرار لعملها، سارتر مع ديكارت وهيغل دولوز مع ليبنيتز وسبينوزا. ميرلوبونتي مع برغسون. وعن نفسه يقول أنا مع أفلاطون وهيغل. سلافوي جيجيك مع كانط وشيلنغ. ومنذ ثلاثة آلاف عام عندما ظهر طاليس نجد الجميع مع الجميع» -الفلسفة تكراراً خلاقاً- ترجمة أيمن الجندي -.

يؤكد آلان بادیو أن الفلسفة لا يمكن أن تُعرف فهي مثل العدالة والحرية يجب أن تُعاش، ولهذا هو يؤمن مثل أبيقور أن التفلسف فعل يومي مستمر ومتوحد مع الحياة نفسها، التي يجب أن تتجدد في كل لحظة، فالفيلسوف مهمته أن يطرح أفكاراً جديدة ومشاكل جديدة. وهو بذلك يكتسب المزيد من المواجهة، كما أن عليه أن يكون قادراً على جذب عدد كبير من الناس إلى صلب مشكلات المجتمع. وبادیو يضع وراءه عبارة أفلاطون الشهيرة «إن الفلسفة إيقاظ» وأن هذا الإيقاظ يتطلب من الفيلسوف أو المثقف أن يقيم علاقة دائمة مع واقعه.. ويمضي ليخبرنا في «بيان من أجل الفلسفة» أن الفلاسفة الأحياء اليوم ليس منهم الكثير، والمثير أن معظم هؤلاء يقولون إن الفلسفة مستحيلة ويتساءل بادیو: هل صحيح أنه ليس لنا رغبة بالفلسفة؟ بادیو الذي ينظر بعين التقدير إلى مكانة الفلسفة في حياتنا اليومية، يقول إن معظم فلاسفتنا ماضون في البحث عن «كتابة ارتجاعية. وحوامل بعيدة

وارتجاعات انحرافية من أجل الوصول إلى مكان مزعوم لم يعد للفلسفة أن تأوي إليه» -بيان من أجل الفلسفة، ترجمة مطاع صفدي-.يكتب هايدغر في كتابه «مقدمة في الفلسفة» -ترجمة عثمان أمين-: «وإن لم تكن لدينا أية فكرة عن الفلسفة، لأن الفلسفة بداخلنا، وتنتمي إلينا بالمعنى الذي لم نتوقف فيه عن التفلسف».

يتذكر آلان بادیو المولود في السابع عشر من كانون الثاني عام 1937، أنه غادر مسقط رأسه الرباط وهو في السادسة من عمره، حين قرر والده أستاذ الرياضيات الهروب ليلاً من مدينة الرباط التي يعيش فيها ويعمل، بعد أن حذره أصدقاء له من أن الحكومة في فرنسا لا ترغب بوجوده في المغرب، كان الأب اشتراكياً يلقي الخطب التي تطالب باستقلال المستعمرات الفرنسية، مغرماً بأفكار تروتسكي، حتى إنه كان يبعث برسائل إلى صاحب نظرية الثورة الدائمة، يشرح له فيها أحوال المستعمرات الفرنسية التي تعيش حالة من التخلف في أوضاع إقطاعية تقوم جنباً إلى جنب مع أشكال الاستعمار الحديث. في باريس يصبح الأب عضواً في المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي، يتعرف على جان بول سارتر، وسيشاهد الابن آلان وهو في العاشرة من عمره، سارتر حين أشار له والده بأن الفيلسوف الوجودي كان صديقه من أيام المقاومة.. سيختبر الوجودية في شبابه، ومثل سارتر يحلم بأن تكون الفلسفة دليلاً هادياً للحياة في العالم المعاصر، يقول إنه أدرك قيمة الفلسفة بعد أن قرأ كتاب سارتر الشهير «الكينونة والعدم». في العشرين من عمره يكتب مقالاً عن سارتر يقول فيه إن سارتر علمني أن أقرأ الفلسفة مثلما أقرأ الروايات، كانت كتب سارتر، قد فتحت أمام بادیو نقطة الانطلاق: «سارتر مثل لي طريقة جديدة في فهم الوجود. يمكن للناس أن يختاروا مستقبلهم»، في السابعة والعشرين من عمره يقرر السير على خطى صاحب «الغثيان». كان سارتر قد أصدر أول أعماله الفلسفية على شكل رواية، أراد من خلالها أن يجد طريقة نحو فلسفة وجودية تطرح أفكارها من خلال الأدب، فكان قرار آلان بادیو أن يكون أول أعماله رواية بعنوان «الماجستيس» صدرت عام 1964، قال إنها تجسيد لمقولة سارتر التي اعتبرت التعبير الروائي نمطاً من التفلسف.. ومثل سارتر سيؤمن أن الرواية نوع من أنواع التعبير الأدبي

الملتزم بقضايا مجتمعه: «يعرف الأدب خيبة الإنسان وضعفه، وعلى أساس تلك المعرفة يقوم بتبديل وتحويل حتمية مصائر البشر»، ومن أجل تلك المعرفة يصدر عمله الروائي الثاني «جاذبية» عام 1969.

في الجامعة التي دخلها عام 1955 يلتقي بمعلم آخر سيكون له تأثير كبير عليه وهو «لويس ألتوسير»، وسيصبح باديو فيما بعد أحد أفراد المجموعة التي كانت تسمى «أبناء ألتوسير» وكان من بينهم جاك رانسيير وآلان باديو وإتيان باليبار، وقبلهم ميشيل فوكو وجيل دولوز، وسيطلق باديو على أستاذه ألتوسير لقب «الفيلسوف الماركسي العظيم» الذي يؤمن أن مهمة الفلسفة هي إعادة تنظيم جميع التجارب النظرية والعملية، من خلال اقتراح تقسيم معياري كبير جديد يقلب النظام الفكري القائم ويعزز قيم جديدة تتجاوز القيم المشتركة. وأن الفلسفة هي مخاطبة مجانية موجهة إلى الجميع، ولكن أولاً وقبل كل شيء، إلى الشباب، لأن الفيلسوف يعرف تماماً أن الشباب يجب أن يتخذ قرارات بشأن حياته، وأنه غالباً ما يكون أفضل استعداداً لقبول مخاطر ثورة منطقية.. لكن سرعان ما سيتمرد الطالب باديو على أستاذه ألتوسير، فالتلميذ يجد في الفلسفة فعلاً ديمقراطياً يبشر بقدوم مدينة فاضلة، تلك المدينة التي تجعله يدمن قراءة أفلاطون ويعيش تحت رغبة ملحة في إصلاح العالم، يختار سبينوزا موضوعاً لأطروحته في الدراسات العليا، وفي تلك السنوات يتعرف على عالم النفس جاك لاكان الذي يصفه باديو بأنه عقل في المقام الأول، يتعلم منه أن لا يكف عن التفكير، ويؤكد باديو أن لاكان وألتوسير قد «وجد كل منهما في حركة رجوعهما، الأول إلى فرويد والثاني إلى ماركس، أفكاراً جديدة لا تخص بالفعل أحداً سواهما».

ينخرط باديو منذ شبابه في نضالات ومساجلات وكتابات عديدة لاستعادة الفلسفة والتاريخ والسياسة والغد الأفضل للناس، ويساهم في تأسيس الحزب الاشتراكي الفرنسي، وتتجه أفكاره صوب الماوية حيث كان ناشطاً في تظاهرات 1968، واليوم يوصف بأنه أشبه بأفلاطون معاصر يصغي الجميع إلى حكمته، يعمل في المعهد العالمي للفلسفة. يكتب عدداً من المسرحيات يتخذ مواقف صلبة ضد الحروب والاضطهاد والعنصرية، يتناول العديد من الموضوعات بدءاً بالأيديولوجيا، ومروراً بالعنصرية،

التسامح، التعددية الثقافية، حقوق الإنسان، الفلسفة، العولمة، الوجود، الثورة والحب، ما بعد الحداثة، وليس انتهاءً بالسينما والدين. يكتب باديو: «إنّ كلّ فلسفة، وحتى وإن كانت مدعومة بمعارف علميّة معقّدة، وبآثار فنّية مجدِّدة، بسياسات ثوريّة، وبحالات حبّ كثيفة، إنّما هي ميتافيزيقا للسعادة، وإلاّ فهي لا تستحقّ أيّة لحظة عناء».

من يتابع مسيرة باديو الفلسفية سيجد أن موضوعة الفلسفة وعلاقتها بالواقع والحقيقة تشكل ركناً أساسياً من أركان فلسفته، فهو يرى على الفلسفة عدم التخلي عن مطلب الحقيقة، وما نحتاج إليه اليوم من أجل إعادة السعادة إلى العالم ثانية إنّما هو تحديداً إعادة علاقة الفلسفة بحياة الناس.

يخبرنا باديو أنه لم يكن يتوقع أن يصبح فيلسوفاً في يوم من الأيام ففي شبابه تمنى أن يصبح ممثلاً، لكنه سيعثر في مكتبة أمه على كتاب جان بول سارتر «نظرية الانفعالات» وقد أقنعه هذا الكتاب أن الفلسفة هي الشيء الوحيد الذي يجب أن يثير اهتمامه.

آلان باديو الذي يسير باتجاه عقده التاسع قال لمحرر مجلة لوبان الفرنسية حين سأله عن تأثير الفلسفة على المجتمع في الوقت الحاضر: «تنخرط الفلسفة في التفكير بعصرها عندما تضع في مكان مشترك حالة الإجراءات التي تشترط قيامها. فهذه العناصر العملانية مهما كانت، فإنها تتجه دائماً إلى أن تفكر بالمجموع، فتشكل بممارسة فكرية واحدة جاهزية الثبات الرياضي والشعر، والإبداع السياسي والحب، وبهذا المعنى فإن السؤال الفلسفي الوحيد، بالطبع هو سؤال الحقيقة».

في كتابه «بيان ثانٍ من أجل الفلسفة» يؤكد باديو على نفس المسألة التي أثارها في بيانه الأول من أن الفلسفة مهددة في وجودها نفسه، بعد أن كانت مثلما وصفها هايدغر «مكتوبة على شهادة ميلاد أوروبا والغرب».. يجد آلان باديو أن الفلسفة يراد لها اليوم ألا تخالف السائد، للقضاء على مهمتها الفلسفية، وهو يستشهد بسقراط الذي كان يثير الأسئلة في الأسواق من أجل أن يخالف الآراء السائدة، ومن أجل أن يؤكد أن التفلسف ممكن حتى مع بائع السمك.. غير أن الفلسفة هنا ليست بمعنى «التفلسف الفارغ»، بل

بمعناها الأعمق، وهي المعرفة وطرح تساؤلات حقيقية حول الحياة، والأمر كما يقول باديو هنا لا ينحصر في أروقة الأكاديميين فقط، بل يرتبط بمعارفنا اليومية، وما يواجهه الإنسان في حياته ويستحق أن يطرح حوله الأسئلة التي تبين وضع الإنسان في هذا العالم.

كلما أختلي مع كتاب جديد من كتب الفلسفة، أتذكر مقولة للفيلسوف النمساوي فتغنشتاين يقول فيها: «إن الفلسفة هي معركة ضد تضليل العقل».. هل ستتوقف الفلسفة يوماً عن إدهاشنا، يصر برتراند راسل على تشبيه الفلسفة بالشمس التي قذفت الكثير من العلوم، وتجمدت هذه العلوم لتصبح كواكب، بينما الشمس لم تتوقف عن إرسال أشعتها.

ماذا تفيدنا كتب الفلسفة، نجد الإجابة عند آلان باديو وهو يصر على أن الفيلسوف مفيد: «لأن على عاتقه مهمة مراقبة صباح الحقيقة».

-24-

متاهة فلسفية بين مشجعي هيغل ومريدي ماركس

أعادني كتاب «مراسلات جورج لوكاتش» الذي صدرت منه مؤخراً طبعة جديدة، إلى المرة الأولى التي تعرفت فيها على كتابات هذا الفيلسوف الذي كان يستهويه دوماً الجلوس على كرسي الناقد الأدبي. كان ذلك في نهاية السبعينيات عندما وقع في يدي كتاب صغير الحجم بعنوان «معنى الواقعية المعاصرة» تأليف جورج لوكاتش، كما مكتوب على الغلاف، ترجمة أمين العيوطي.. وأتذكر أن المؤلف لم يثر اهتمامي لقراءة الكتاب، ولكن الغلاف الذي رسمت عليه تخطيطات لوجوه كتّاب كنت مغرماً بهم، الأول برتولد بريشت والثاني وليام فوكنر، أما الثالث فمارسيل بروست، فقد كنت أخشى الاقتراب من روايته الكبيرة «البحث عن الزمن المفقود» التي كانت آنذاك تصدر ترجمتها العربية على أجزاء.. كان كتاب جورج لوكاتش شيئاً غريباً بالنسبة لي فللمرة الأولى أجد نفسي قارئاً من الدرجة العاشرة، فالمفاهيم التي يطرحها والأسماء التي تتقافز من صفحات الكتاب، تثبت بالدليل القاطع أنني ما زلت لم أتبين طريق القراءة الحقيقي، قرأت الكتاب وسجلت بعض الملاحظات ثم ذهبت لأستفسر من أستاذي ثامر مهدي الذي كان يُدرس مادة علم الجمال في أكاديمية الفنون الجميلة، عن لوكاش أو لوكاتش هذا، ومن يعرف ثامر مهدي يدرك جيداً لماذا التجأت إليه، فهو مثقف موسوعي، تراه مبتسماً طوال الوقت يرفع شعار «محو أمية العقل»، وكان شديد الاهتمام بالكتاب، وما إن تجلس إليه حتى تشعر أنك أمام محقق

يريد أن يعرف ماذا تقرأ؟ ولم تنفع معك إلا مرافعة تمنحك امتحان القبول لديه، ما إن حدثته عن الكتاب الذي قرأته، والأسئلة التي دونتها في ورقة وضعتها بين صفحات الكتاب، حتى قال لي وعلى طريقته الخاصة لشرح أفكاره: هذا ناقد أدبي عظيم ومنظر في علم الجمال بدرجة فيلسوف.. كان اعتناقه للماركسية يمثل حلاً للصراع الذي عاشه في فترة شبابه بين عشقه اللامحدود للفيلسوف الألماني هيغل، ورغبته الملحة أن يجعل الأدب والفلسفة في خدمة الناس كما أوصى كارل ماركس.. ولهذا حتى لحظة وفاته عام 1971 لم يجد الحل، حيث تعرض إلى هجوم كبير من جماعة الواقعية الاشتراكية الذين اتهموه بتحريف الماركسية، وأنه اهتم بالذاتية، وأشار لي ثامر مهدي أن لوكاتش كان يقول إن الماركسية الأصلية لا تعني تسليماً أعمى بنتائج بحث ماركس، ولهذا فهو ماركسي هيغلي، أكثر من كونه ماركسياً بلشفياً، سأجانب الحقيقة إن قلت إنني أستوعبت كل ما قاله الأستاذ ثامر مهدي، فأنا ذهبت أستفسر عن معلومات وأسماء في كتاب يتحدث عن الرواية والمسرح، فإذا بي أجد نفسي في متاهة فلسفية أطراف الصراع فيها ينقسمون بين مشجعين لهيغل، ومريدين لماركس، ورغم هذا خرجت من اللقاء بثلاثة كتب أعطاني إياها الأستاذ ثامر على سبيل الإعارة، ومن أجل أن أتعرف بشكل أوسع على منهج جورج لوكاتش سواء كان في النقد الأدبي أو في الموضوع الفلسفي، وكانت الكتب التي لازلت أتذكرها لأنها ساعدتني في فتح مغاليق هذا الفيلسوف هي كتاب «دراسات في الواقعية»، وكتاب «بلزاك والواقعية الفرنسية»، وكتاب «جورج لوكاتش» الذي كتبه الفرنسي هنري أرفون، وفيه يحاول أن يقدم صورة للخطوط الكبرى لفكر الفيلسوف المجري.

في الأيام الأخيرة من حياته وبالتحديد نهاية منتصف شهر أيار من عام 1971، اعترف وهو على سرير المستشفى الذي نقل إليه بعد أن ساءت حالته الصحية أنه عاش طيلة حياته صراعاً عميقاً بين «الفلسفة المثالية، والاتجاه نحو الفلسفة العلمية» وسيخبرنا أن هذا الصراع لم يجد حله النهائي رغم انتمائه إلى الماركسية.

في سيرته الفكرية كثيراً ما اعتبر جورج لوكاتش نفسه نتاج المجتمع

والتاريخ اللذين عاش فيهما. مارس النقد الذاتي لأعماله واعتبر كتابه الأول «فن الرواية» يحمل أفكاراً ساذجة: «لم أعلن مطلقاً أن هذا الكتاب قد خط من قبل شخص غير موهوب، لكنه مازال مجرد مزيج بين أفكار شاب وكاتب مبتدئ». في كل مرحلة من حياته نجده يوجه نقداً لأفكاره ونظرياته التي يشعر بأنه تخطاها.. ولهذا يجد قرَّاء كتبه أو سيرته أنهم أمام مجموعة «لوكاتشات». لوكاتش المفكر المثالي، ولوكاتش الماركسي الثوري، ولوكاتش الذي كان يجد في نفسه القدرة على النهوض بالأيديولوجية الماركسية بعد تشويهها من قبل المرحلة الستالينية، وهناك لوكاتش آخر اتخذ موقفاً حزبياً مسانداً إلى جانب ستالين وبرر ذلك بأنه لم يكن مخطئاً، فقد كان هتلر آنذاك يتقدم، وكان ستالين يحاول أن يوقف المسيرة النازية.. لكن من بين جميع هذه «اللوكاتشات»، يبقى لوكاتش الساعي إلى السير في طريق ماركس، وهو ما دفعه أن يضع عنواناً ثانوياً ليومياته «طريقي إلى ماركس». كان لوكاتش يأمل في أن يكون ماركس عصره يكتب في «التاريخ والوعي الطبقي» -ترجمة حنا الشاعر-: «لنفترض جدلاً أن التحريات الحديثة أظهرت مرة واحدة وللأبد بطلان كل أطروحة من أطروحات ماركس الشخصية، وحتى وإن ترتبت البرهنة على هذا، فكل أفكار ماركس قابلة للتجديد.

«العيش في خطر» كان اختيار لوكاتش في معظم سنوات حياته، في شبابه قرأ عبارة نيتشه: «لكي تجني من الوجود أجمل ما فيه عش في خطر». لم تكن هذه العبارة اختياراً رومانسياً للوكاتش، بل حياة اختار فيها النضال والهجرة والعمل السري والأخطار التي تعرض لها، مما أدى به أن يقف منتصباً أمام نتاج فكري كبير. اعتبره الستالينيون عقائدياً منحرفاً، ووصفه الماركسيون بالمتحذلق الهيغلي، والليبراليون وجدوا فيه خائناً لتراث الفكر الألماني فأطلقوا عليه وصف «بولشفيك غوبلز» وكان يرد قائلاً: «علقت في حلوقهم، فلا هم بقادرين على بلعي، ولا هم بقادرين على بصقي». وقد أثارت شخصية لوكاتش الروائي توماس مان الذي أعطى الراهب اليسوعي في روايته «جبل السحر» بعضاً من صفات لوكاتش، فراهب توماس مان، يحظى باحترام كبير عند رجال الكنيسة، لكنهم في الوقت نفسه يعتبرونه جسماً غريباً على مجتمعهم الكهنوتي.

ولد جورج برنارد بارون لوكاتش في الثالث عشر من نيسان عام 1885 في بودابست لأسرة يهودية غنية، كان أبوه مديراً لأحد البنوك الكبرى في المجر، أراد من ابنه الكبير جورج أن يسير على خطاه في المستقبل، ويدرك أن المال هو «عصب الحياة»، لكن الابن سيقاوم رغبة الأب، ويقرر أن يسلك طريقاً آخر لأنه كما قال في واحد من أحاديثه، يحس في أعماقه منذ صباه المبكر كراهية عميقة للرأسمالية، أما الأم فكانت ربة بيت تعشق القراءة، حاولت أن تنقل هذا العشق إلى أولادها الثلاثة، فوجد لوكاش الطفل نفسه محاطاً بالكتب، في كل مكان، يتذكر أنه كان يمسك بثوب أمه وهي تتمشى في باحة بيتهم الكبير تقرأ بصوت عال إحدى قصص تشيخوف أو فصلاً من رواية لديكنز، وعلى عكس شقيقه وشقيقته، أبدى الصبي جورج اهتماماً بالقراءة. وفي سن التاسعة من عمرة جرب أن يكتب قصة على غرار قصص تشيخوف لكي تقرأها والدته. لكنه بعد ذلك يجد نفسه ميالاً إلى الفلسفة، وسيكتب في يومياته: «حقاً أن الفلسفة هي الحنين. إنها الرغبة أن يكون المرء ببيته في كل مكان، من هنا فإن الفلسفة. كشكل من أشكال الوجود.. هي دوماً دلالة على الانفصال أو دلالة على التفاوت الجوهري بين الأنا والعالم وعلى انعدام التطابق بين الروح والفعل» -جورج لوكاتش، تأليف هنري أرفون، ترجمة عادل العوا-. في بودابست يدخل المدرسة الابتدائية، ويلتحق بالثانوية، لكنه يقرر أن يدرس في إحدى الجامعات الألمانية، في السابعة عشرة من عمره ينضم إلى «نادي الطلبة الاشتراكيين»، لم يكن لوكاتش آنذاك قد تعرف على فكر كارل ماركس جيداً، قرأ بعض كتابات ماركس وأنجلز، اعتبر أن تأثير ماركس الاقتصادي أهم من تأثيره الفلسفي. يقرر السفر إلى برلين للدراسة تحت إشراف «هاينريش ريكرت»، وهناك تعرف على طالب سوف يصبح من أبرز مفكري عصره وهو «ماكس فيبر». كان لوكاش قبل سفره إلى ألمانيا قد نشر عدداً من المقالات والدراسات عن المسرح، حيث نشرت أولى كتاباته في العشرين من شباط عام 1902، كان في السابعة عشرة من عمره حين انجذب بقوة إلى المسرح، والمقال كان عن إحدى مسرحيات هنريك إبسن، وبسبب إعجابه بالكاتب المسرحي النرويجي قرر في شهر تموز من عام 1902 السفر إلى أوسلو للبحث عن إبسن، في أيلول من نفس

لعام يبدأ دراسته الجامعية في كلية الحقوق بجامعة بودابست، عام 1904 يشارك في تأسيس فرقة تاليا المسرحية ويترجم للفرقة مسرحية إبسن «البطة البرية»، ينشر سلسلة من المقالات عن الدراما، تصدر عام 1908 في كتاب ضخم بعنوان «تاريخ تطور الدراما الحديثة» -ترجمة كمال الدين عيد- وفيه يتساءل الشاب البالغ من العمر «23» عاماً: هل هناك دراما حديثة؟ وإذا كانت هناك مثل هذه الدراما، فما أسلوبها؟ شكلها؟ أين مكان الإبداع الأدبي والفني فيها؟ وسيخصص فصلاً كبيراً للحديث عن كاتبه المفضل إبسن الذي يصفه بأنه: «باعث الدراما الاجتماعية الكبيرة التي أفرزت تراجيديا المواطنين».

عام 1910 ينشر كتابه «الروح وأشكالها» وهو الكتاب الذي سيضع أقدام لوكاتش على أول سلم الفلسفة، يصف لويس غولدمان كتاب لوكاتش هذا بأنه يحاول الإجابة على سؤال مهم هو: «تحت أية شروط يمكن للحياة أن تكون صادقة؟»، ويضيف غولدمان أن كتاب لوكاتش يمثل خطوة مهمة في تطور الوجودية الحديثة. بسبب سوء حالة والده الصحية يعود إلى بودابست عام 1909، حيث يسافر مع والده في رحلة علاج إلى فرنسا. في عام 1914 ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى يتفرغ لكتابه «نظرية الرواية» -ترجمه إلى العربية نزيه الشوقي- وفي هذا الكتاب الذي نشرعام 1916 يتخلى عن أفكاره الكانطية، لأنه وجد أنها لا تضع اعتباراً للتاريخ. فالقيم الفلسفية عند أصحاب هذه المدرسة كما يرى لوكاتش كانت متعالية على الزمان والمكان، وفي هذا الكتاب يخطو باتجاه هيغل، وقد بنى لوكاتش نظريته في الرواية على فكرة «البطل الإشكالي» الذي يسقط في التيه حين يلتقي بالعالم، كانت الحرب قد أثرت عليه كثيراً، فوجد نفسه مثل أحد أبطال الروايات يبحث عن قيم أصلية في عالم متدهور. فالعالم يقذف بالإنسان إلى بحث تائه لا أفق له. الكتاب الذي كتبه لوكاتش الذي لم يكن حينها قد بلغ الثلاثين من عمره يكشف لنا عمق الأزمة الفكرية التي كان يعيشها، ويكشف صورة لوكاتش الغريب والمعذب والتائه في دروب الفكر. لكن بعد سنوات سيتخلى لوكاتش عن الأفكار التي طرحها، ويعتبر الكتاب مرحلة من مراحل تطوره الفكري. يأخذ دارسو الأدب على كتاب لوكاتش هذا إصراره على أن دستويفسكي

لم يكتب أعمالاً روائية، وإنما أعمالاً تنتمي إلى الفلسفة وعلم النفس، كما أنه حاول أن يتجاهل روائيين كباراً مثل ستندال. لكن برغم ذلك فإن الفكرة التي طرحها لوكاتش في الكتاب عن تطور الطبيعة، ستكون هي الفكرة التي ستشكل فيما بعد إحدى أفكاره الأساسية عندما كتب موسوعته عن علم الجمال التي يُكمِل أجزاءها الثلاثة في نهاية عام 1914. ظل اليأس والتشاؤم يغلفان فلسفة لوكاتش الجمالية، فقد كانت ظروف الحرب العالمية الأولى تزيد من حالة اليأس، حتى انفجرت ثورة أكتوبر عام 1917 في روسيا، يكتب في إحدى رسائله أن طريقاً ينفتح أمام الجنس البشري للخلاص من البؤس والاستغلال والرأسمالية. يعود إلى بودابست لأداء الخدمة العسكرية، لكنه يسرح من الجيش بعد شهرين، في تشرين من عام 1918 يتم تأسيس الحزب الشيوعي المجري، ينظم لوكاش إلى الحزب، ويصبح عضواً قيادياً في اللجنة المركزية، في 21 من آذار عام 1919 الإعلان عن الجمهورية المجرية الاشتراكية، يصبح لوكاش عضواً بارزاً في قيادة الثورة، غير أن هذه الحكومة لم تستمر طويلاً لتنهار في آب 1919، مما اضطر لوكاتش إلى اللجوء إلى فينا هناك يصدر جريدة بعنوان «الشيوعي» يرأس تحريرها بين عام 1920 و1921، وسوف يتحدث عن تجربته هذه بعد أكثر من أربعين عاماً ليقول إنه ورفاقه، ما كانوا يملكون في ذلك الوقت إلا معرفة ضئيلة بالنظرية اللينينية للثورة.. كان لوكاتش أثناء الثورة قد طالب باندماج الحزب الاشتراكي الديمقراطي المجري مع الحزب الشيوعي مؤكداً أن هدف الحزبين وصول الطبقة العاملة إلى السلطة، ولقد تحقق هذا الأمر في نظره، وطالب بوقف ما أسماه العنف الطبقي غير المبرر، واحتج على اعتقال البرجوازيين وممثلي الحكومة السابقة.

في هذه الفترة يكتب لوكاتش واحداً من أبرز كتبه «التاريخ والوعي الطبقي» الذي نشر عام 1922، فهذا الكتاب لا يزال يعتبر قمة من قمم الفلسفة الماركسية في القرن العشرين، وإن كان لوكاتش قد كتب قبل رحيله وهو يمارس النقد الذاتي لمسيرته الفكرية: «أن هذا الكتاب هو التركيبة الفلسفية لأخطاء السنوات الأولى من تمرسي السياسي». وقد أثار الكتاب الكثير من المناقشات التي لم تخلُ من حملة ضد كاتبه الذي وصف بالتحريفي حيث

أصدر مؤتمر الأممية الثالثة بياناً هاجم فيه لوكاتش وأشار إليه باعتباره من: «أولئك الذين يدعون الإخلاص لروح ماركس، إلا أن محاولته قادته إلى المثالية الفلسفية»، فيما علق الحزب الشيوعي الألماني أن نظرة لوكاتش إلى الحزب الشيوعي ليست هي النظرة الماركسية اللينينية، إنه كتاب لا يصور الحزب بوصفه أكثر أقسام البروليتاريا تقدماً، وإنما يصوره بوصفه تشكيلاً من الصفوة الثورية التي تمثل المثقفين الذين يعتقدون أنهم وحدهم الذين يملكون الحقيقة.

كان كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» قد رسخ قواعد نظرية ماركسية أخرى متأثرة بفلسفات «الذات» الغربية مستلهماً فيها، لا ماركس وحده، وإنما هيغل أيضاً. معيداً الاعتبار للروح الجدلية في الماركسية التي كان ينشدها ماركس في شبابه.

بدأ خلاف لوكاتش مع الحزب الشيوعي منذ عام 1920 عندما كتب عدداً من المقالات بعنوان «في صدد البرلمانية» وقد أثارت اهتمام لينين فوجه لها نقداً قال فيه إن «ماركسية الرفيق جورج لوكاتش، ماركسية لفظية فقط»، وقد لزم لوكاتش الصمت، وظل لسنوات يمتنع عن كتابة أي دراسة سياسية. بعد ضجة «التاريخ والوعي الطبقي» حاول لوكاتش أن يقلل من نتاجه الفلسفي، حيث لم ينشر عام 1924 سوى دراسة واحدة عن لينين، ولكنه يقول عن هذه المرحلة إنها قادته بعيداً عن أفكاره الأولى حول الاشتراكية، بعد وفاة لينين سيدخل الحزب الشيوعي المجري في نزاع بين أعضائه، وقد وجد لوكاتش نفسه يتخذ جانب المجموعة التي كانت تنادي بالستالينية، وبدأ لوكاتش بكتابة التقرير السياسي للحزب الذي سوف يعرض على مؤتمر الحزب عام 1929، وكانت وجهة نظر لوكاتش أن الأوضاع التي تمر بها الأحزاب الشيوعية لا يمكن أن تقودها مباشرة إلى دكتاتورية للبروليتاريا، وأن على هذه الأحزاب أن تجعل من دكتاتورية الطبقات الشعبية وعلى رأسها العمال والفلاحون هدفها المباشر، وبسبب هذا التقرير تعرض لهجمة جديدة حيث وصفه البعض بأنه «انتهازي» ولقب بـ «مصفي الشيوعية».

عام 1930 يزور موسكو، ليعمل في معهد ماركس وأنجلز، وأتاح له ذلك أن يقرأ مخطوطات ماركس التي وضعها عام 1884.. وتحدث لوكاتش بعد

ذلك قائلاً إن قراءة هذه المخطوطات قد طردت من ذهنه وإلى الأبد كل الأفكار المسبقة عن الماركسية، ووجد نفسه يبدأ مرحلة جديدة من حياته الفكرية، وراح يكتب دراسة موسعة عن «العلاقة بين الاقتصاد والديالكتيك» التي طورها فيما بعد وأصدرها بعنوان «هيغل الشاب» عام 1931. في هذه الفترة قرر لوكاتش إقامة «علم جمال ماركسي»، وبناء نظرية في الواقعية، وقد ميزت هذه المرحلة صدور مؤلفات كثيرة في الأدب والفن سعى من خلالها إلى تحقيق الانسجام الإنساني في مواجهة أشكال الاستلاب والاغتراب الروحي، حيث حاول التوفيق بين فلسفة هيغل وأفكار غوته، وقد أصدر خلال هذه السنوات كتباً عديدة أبرزها «غوته وعصره»، «دراسات في الواقعية الأوروبية»، «الواقعية الروسية»، «توماس مان»، «بلزاك والواقعية الفرنسية»، «دراسات في الواقعية» و«الرواية التاريخية»، وكل تلك الأعمال كما هو واضح من عناوينها كانت تهتم بنظرية الأدب، وبقضايا علم الجمال والنقد الأدبي، وقد خاض من خلالها -كما يقول- حرب عصابات ضد النظرة السوفيتية الرسمية المتزمتة للأدب. ولعل الموضوع الرئيسي الذي يجمع هذه الأعمال يتلخص في أن نظرية الرواية كما تتبدى خلال الأعمال الفنية العظيمة، تعكس أزمة العصر خلال السنوات المئة الأخيرة، وتصور التشويه الذي أصاب الحياة الإنسانية تحت وطأة الرأسمالية، ولم يكن لوكاتش يهدف إلى أن يكشف عن التوترات الاجتماعية التي أعلنت عن أهمية الأعمال التي قدمها بلزاك وتولستوي والروائيون الكبار، ولا أن يكشف عن درجة الاحتجاج التي تضمنها هذا التراث الإنساني ضد الرأسمالية فحسب، ولكنه يرمي إلى أن يصوغ على أساسها علاقات هؤلاء الكتاب الكبار مع الإنسانية. مبادئ حكم جمالي موضوعي لا ينظر إلى الفن بوصفه مجرد شهادة تاريخية، ولكنه يبحث فيه عن شخصيته الخاصة خلال تقلبات الحياة.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية يعود إلى بلاده، يشغل عدة مناصب ثقافية وقد أصدر في هذه المرحلة كتابه «وجودية أم ماركسية» -ترجمه إلى العربية جورج طرابيشي- حيث يناقش فيه لوكاتش أزمة الفلسفة الوجودية، متنقلاً من الظاهراتية إلى الوجودية، ويختتم بالحديث عن النظرية اللينينية

في المعرفة ومشكلات الفلسفة الحديثة. يصدر كتابه المهم «تحطيم العقل» -ترجمه إلياس مرقص بأربعة أجزاء-.

أتذكر أنني حصلت على الجزء الأول من الكتاب نهاية السبعينيات، كنت قد قرأت بعض كتب لوكاتش، لكني واجهت مع «تحطيم العقل» نفس المعضلة التي واجهتها مع كتابه «معنى الواقعية المعاصرة»، لم أستطع حينها وأنا أقرأ الغلاف المكتوب عليه عنوان فرعي (الظاهرة الدولية تاريخ ألمانيا شيلينغ) لم أستطع أن أقرر هل هذا الكتاب أدبي أم فلسفي أم يتحدث عن ألمانيا وما جرى فيها، لم يكن اسم شيلينغ غريباً عليَّ، فقد صارعت من قبل كتاب عبد الرحمن بدوي عنه وخرجت مهزوماً. وظلت آثار الهزيمة تلاحقني سنوات، وعندما عدت إلى الكتاب وقد صدر كاملاً بعد سنوات، كنت مندهشاً لدرجة لم أستطع فيها إلا أن اعترف ولو متاخرا أن بعض القراءات تبين لنا شخصية القارئ الذي يخرج مع كل قراءة جديدة بدرس لن ينساه، خلاصته أن كفاءة القراءة تتعزز بشكل كبير كلما منحنا أنفسنا فرصة لندحر القارئ السيئ في داخلنا.

في «تحطيم العقل» يبحث لوكاتش عن جواب لسؤال: إذا كانت الحقيقة يمكن الوصول إليها بوساطة العقل، فلماذا وكيف سادت اللاعقلانية؟ «ولماذا يكون لها في بعض الأحيان قوة لا تربك المفكرين الأفراد فحسب، بل ثقافات بأكملها؟ حيث سعى لربط الصراع بين العقلانية واللاعقلانية بالصراع الطبقي. من خلال أسئلة جوهرية يطرحها الكتاب من عينة: لماذا لم تتحول أوروبا البرجوازية كلها إلى الفاشية؟ وما علاقة محن ألمانيا بموقفها من الثورة الفرنسية؟

العام 1956 سيكون حاسماً في تاريخ بلاده المجر وفي حياته، فبعد صيحات خروشوف في المؤتمر العشرين، وقف لوكاتش في إحدى حلقات الحزب الشيوعي المجري ليعلن أن دوغمائية ستالين أضرت بالماركسية ضرراً بالغاً، بعدها قال في حوار صحفي إن التدخل الإداري البيروقراطي في الفكر الماركسي يجب أن يتوقف، وإن النظام الحزبي ينبغي أن يعاد فيه النظر. بعد التدخل السوفيتي في المجر في الرابع من تشرين الثاني عام 1956 يغادر لوكاتش بلاده ليستقر في رومانيا، ولم يسمح له بالعودة إلا

منتصف عام 1957، ليجد نفسه مطروداً من الحزب الشيوعي ومن الجامعة، وظهرت مقالات تهاجمه في المجر والاتحاد السوفيتي جمعت في كتاب بعنوان «تحريفية لوكاتش»، ولم تتوقف الهجمة ضده حتى عام 1967 حيث أعيدت له عضوية الحزب، لكنه في هذه المرحلة يقرر الابتعاد عن السياسة والتفرغ لأعماله الفكرية التي توجها بكتابين أولهما «الطبيعة الخاصة لعلم الجمال» الذي ظهر عام 1969، والثاني «علم الوجود الاجتماعي» صدر عام 1970 وكان يخطط لإصدار كتاب عن «الأخلاق» قال عنه إنه بصدد كتابة أهم مؤلفاته، لكن الموت لم يمهله طويلاً حيث توفي في الرابع من حزيران عام 1971.

على مدى حياته التي استمرت «86» عاماً ظل جورج لوكاتش شاغلاً للفكر الماركسي الأوروبي، ولم يكن مساره الفكري والفلسفي منفصلاً عن مسار حياته، فالمسافة الفاصلة بين «تاريخ الدراما» 1918 و«تاريخ الوجود الاجتماعي» 1970، تجسد عمراً كاملاً من التحولات والتطورات، بدءاً من الكانطية الجديدة وفلسفة الحياة، ومروراً بالماركسية الهيغلية، والماركسية الصارمة التي طبعت أعماله في الثلاثينيات، إلى اهتمامه بعلم الجمال وتجلياته في الأدب والفن، إلىٰ علم الاجتماع.

في الرابع من حزيران عام 1971 يغادر جورج لوكاتش عالمنا بعد أن ظل على مدى عقود يلاحقه لقب «المؤلف المزعج». في الأيام الأخيرة من حياته وهو يعاني من مرض السرطان، كان فيها جسده الضعيف يبدو ضائعاً في الفراش يردد عبارة تولستوي التي جاءت في روايته موت إيفان إيليتش: «إن الحياة ذات المعنى هي التي تقترن بموت ذي معنى».

-25-

يجب أن نبقى قراء

يصعب عليَّ شرح سبب إصراري على مطاردة الكتب التي يتوجس زبائن المكتبة من الاقتراب منها، والأصعب شرح لماذا أقضي ساعات طويلة في محاولة حل لغز هذه الكتب. حين أسترجع اليوم ذكرياتي أتخيل ذلك الصبي الذي يجلس وبيده الكتاب كأنه يتصارع مع صفحات تدفعه إلى اليأس في بعض الأحيان، إلى أن يعتريه شعور بالإعياء أو الملل. لم أكن أعرف في ذلك الوقت الفرق بين متعة القراءة، وحشو الرأس بكلمات ستطير ما إن أخرج من غرفتي. كانت بعض الكتب ثخينة جداً، صفحات محشوة بسطور مضغوطة، مقاطع سوداء مكدسة الواحد فوق الآخر، وكان صاحب المكتبة عندما يشاهدني أتأبط كتاباً سميكاً، يبتسم وهو يقول لي إن مثل هذه الكتب ستخرب عقلك. أيقنت فيما بعد أن حالتي تشبه بطل رواية سيرفانتس «دون كيخوته» الذي نعرف ما حصل له من جراء كثرة قراءاته عندما كان: «يعذب نفسه في فهم بعض العبارات واستخلاص المعنى من أحشائها» -دون كيخوته، ترجمة عبد الرحمن بدوي-. لقد تحولت القراءة عندي إلى عادة، إن لم أصفها بالهوس. تجعل فرجينيا وولف من القراءة حاجة شبه فيزيولوجية.

كنت آنذاك أضع قائمة بالكتب التي سأقرأها، وقد أخذت هذه القائمة تتضخم بين الحين والآخر نتيجة لكثرة الكتب الجديدة التي تضاف إلى المكتبة. يكتب سارتر أن القراءة: «تتألف من مجموعة فرضيات، من أحلام تليها صحوة»، وكانت أحلامي مرتبطة بالكتب، لكنها أحلام من دون

صحوة. أحلم دائماً أن أقرأ الكتب الصعبة، كل يوم ما إن أدخل المكتبة حتى أذهب باتجاه بعض الكتب التي أمني نفسي بأن أحل ألغازها ذات يوم.

في خضم ذلك وأنا ممتلئ دهشة لأني أمرر أصابعي على رفوف الكتب، سألني صاحب المكتبة: لماذا تطيل النظر إلى بعض عناوين الكتب؟ وجدت نفسي أقول له: لا أعرف.

كنت حقاً لا أعرف لماذا أنا مشدود مثلاً لكتاب ضخم عنوانه «المنطق» مؤلفه جون ديوي، اسمه موجود على عدد من الأغلفة منها «الفن خبرة» و«البحث عن اليقين» وكتاب آخر بعنوان «المدرسة والمجتمع». أقلب كتاب «المنطق» وأنا أدرك أنني أواجه تحدياً مخيفاً مكوناً من أكثر من «800» صفحة. أنتبه لتحذير صاحب المكتبة: هذه الكتب ليست للقارئ العادي. إنها من النوع الذي يجعل رأسك يؤلمك.

في الحادية عشرة من عمره عثر جون ديوي على كتاب تشارلز داروين «أصل الأنواع» الذي أصابه أيضاً بالصداع، ومن المثير أن عمر الكتاب هو نفسه عمر جون ديوي، حيث صدر كتاب داروين في نفس السنة التي ولد فيها جون ديوي. كان الفتى الذي يأمل والده أن يدرس التجارة، قد أثرت الكتب على خياله، حين قرر أن يصبح رحالة يطوف العالم على ظهر سفينة شبيهة بتلك التي تنقل فيها داروين بين البحار والمحيطات. في المدرسة يقرأ أفلاطون وأرسطو، وفي الوقت نفسه يتابع التطور العلمي الذي آمن به وقرر أن يستعين بالمناهج العلمية في تعزيز أفكاره الفلسفية.

ولد جون ديوي في العشرين من تشرين الأول عام 1859 في مدينة برلينجتون مركز ولاية فيرمونت الأمريكية، وهو نفس العام الذي ولد فيه الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون والفيلسوف الألماني إدموند هوسرل، كان ديوي الابن الثالث لعائلة من الطبقة الوسطى، الأب يعمل بقالاً، لكنه كان شغوفاً بقراءة شكسبير وملتون، يسمي جون على اسم شقيقه الذي توفي قبل ولادته بنحو أربعين أسبوعاً، كان الصبي جون عاشقاً للقراءة يذهب مع والدته إلى المكتبة العامة، عمل في شبابه بمهنة بائع صحف ليتمكن من شراء كتب الفلسفة والعلوم، أصرت أمه على أن يكمل أبناؤها تعليمهم

الجامعي، دخل الجامعة في سن السابعة عشرة حيث اختار دراسة الفلسفة، يتفرغ لقراءة أفلاطون ويعترف أن كتاب «الجمهورية» أثر فيه كثيراً، وأن الفلسفة الحقيقية تعود مصادرها إلى أفلاطون. بعد التخرج يلتحق للعمل مدرساً في إحدى مدارس بنسلفانيا، بعدها يقرر الاقتراض من عمه مبلغاً من المال ليتمكن من إكمال دراساته العليا. دخل جامعة «جونز هوبكنز»، وهناك يتعرف على «تشارلز بيرس» أبرز الفلاسفة البراغماتيين، بعد التخرج يعمل ديوي مدرساً في جامعة شيكاغو، وقد تزامنت فترة الدراسات العليا لجون ديوي مع الفترة القصيرة التي قضاها وليام جيمس في جامعة هوبكنز، في ميشغان يتعرف على «إليس تشايمان» التي ستصبح زوجته، وكانت تعمل مدرسة، تقرأ في العلوم والاجتماع، وقد أثرت كثيراً على توجه ديوي حيث شجعته على الاهتمام بالفلسفة المرتبطة بالحياة المعاصرة. في تلك الفترة أعاد تشارلز بيرس إحياء النادي الميتافيزيقي، حيث يصبح ديوي عضواً فيه، في شيكاغو ينشئ جون ديوي مدرسة يحاول أن يطبق فيها منهجه في التربية والتعليم: «أول الأمور في تطور تفكيري أهمية التربية نظرياً وعملياً في نفسي، وبخاصة تربية الصغار، لأنني لم أشعر قط بتفاؤل كبير فيما يخص التعليم العالي إذ بُني هذا التعليم على أسس ضعيفة» -جون ديوي، رسالة في فلسفة التربية المعاصرة، ترجمة إحسان القوصي- وهو يشدد على الحاجة إلى جعل المدرسة مجتمعاً حقيقياً، والعمل على أن يساهم في حياة المجتمع من خلال تدريبه على البحث العقلي. يصدر أول كتبه بعنوان «علم النفس الجديد» عام 1884، بعدها بثلاثة أعوام يصدر كتابه الثاني «علم النفس».

عام 1905 يتم اختياره رئيساً للجمعية الفلسفية الأمريكية، يواصل إصدار مؤلفاته وكان أبرزها الخبرة والطبيعة، البحث عن اليقين، الفردية القديمة والجديدة، الفلسفة والحضارة، الفن كخبرة، تجديد في الفلسفة، وكتابه الرئيسي «المنطق.. نظرية البحث» الذي صدر عام 1938. لم يتوقف نشاط ديوي عند الفلسفة والتربية أو علم النفس، بل كان مهتماً بما يدور حوله في العالم من متغيرات سياسية، فقد دافع عن الديمقراطية وعن حق المرأة في الانتخاب معتبراً حقوق المرأة جزءاً لا يتجزأ من الديمقراطية، وقام بجولات في بعض بلدان العالم مبشراً بمفاهيم الليبرالية السياسية ودورها في إحداث

الثورة الاجتماعية. زار الاتحاد السوفيتي عام 1928 وكتب عدة مقالات عن العمال وحقوقهم وعن الثورة البلشفية مما جعل الصحافة تطلق عليه لقب «ديوي الأحمر» تعرف على تروتسكي وكان يتابع أبحاثه ونشاطه السياسي، وقد ترأس فيما بعد اللجنة التي حققت في الاتهامات التي وجهها الاتحاد السوفيتي لتروتسكي وعندما وجد معارضة من عائلته وبعض المقربين منه كتب: «لقد أمضيت حياتي كلها في البحث عن الحقيقة. إنه لأمر محبط أن البعض في بلادنا أصبحوا يعتقدون أنه لأسباب تتعلق بالنفعية، يجب ترك شعبنا في الظلام. لكن الحقيقة ليست وهماً برجوازياً، إنها المحرك الرئيسي للتقدم البشري».، وعندما سمع تروتسكي أن جون ديوي على استعداد لرئاسة اللجنة، ألقى خطاباً قال فيه: «إذا قررت هذه اللجنة أنني مذنب بالجرائم التي ينسبها ستالين إلي، أتعهد بأن أضع نفسي طواعية في يد جلاد وحدة معالجة الرسومات».

افتتح جون ديوي جلسات اللجنة بالقول: «هذه اللجنة، مثل ملايين كثيرة من عمال المدينة والريف، من اليد والعقل، تؤمن بأنه لا ينبغي إدانة أي شخص دون أن تتاح له فرصة للدفاع عن نفسه... الحقيقة البسيطة أنه يوجد هنا دليل على أن الضمير يطالب بعدم إدانة السيد تروتسكي قبل أن تتاح له الفرصة الكاملة لتقديم أي دليل بحوزته رداً على حكم الإدانة الذي أعيد إلى محكمة لم يكن حاضراً فيها ولا ممثلاً فيها» عقدت اللجنة عدة جلسات بعدها نشرت النتائج التي توصلت إليها في شكل كتاب من 422 صفحة بعنوان «ليس مذنباً».

اهتم جون ديوي في سنواته الأخيرة بموضوعة «التربية» التي لخصها في عدد من النقاط أبرزها:

1. أن التفلسف يجب أن يدور حول التربية باعتبارها تاج الاهتمامات الإنسانية.
2. اعتبار العلم هو التفكير النقدي، والأخلاق هي السلوك العملي. وقد أطلق على منهجه اسم «الأدائية».
3. تخليص علم النفس من النزعات المثالية وتطبيق العلوم على دراسة نفسية الإنسان.

4. تطبيق العلوم ومناهجه على العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصاد واللغة والأدب.

في سنواته الأخيرة تعرض إلى أزمات صحية، وعانى من الالتهاب الرئوي ليتوفى في الأول من حزيران عام 1952.

ربما من حسن حظي وأنا أجازف بقراءة كتاب جون ديوي «المنطق» أن المترجم زكي نجيب محمود قدم للكتاب بأسلوب شيق اتسم بالسهولة واليسر، وكنت أمني النفس لو أن المؤلف سار على منهج المترجم في الكتابة الفلسفية الميسرة، لكن يبدو أن الفيلسوف الأمريكي أراد أن يحذرني من استسهال الدخول إلى عالمه الفلسفي، حيث يكتب في الصفحات الأولى من كتابه أنه: «أمعن في الاصطلاح العلمي، أكثر مما يحتمله القراء». أما النصيحة التي يقدمها لنا نحن القراء، فهي أن نفسر صفحات الكتاب من خلال منهج عقلي. وإذا لم يفهم القارئ فالخطأ كما يقول جون ديوي: «خطئي أنا ولا ذنب له فيه».

في كتاب «المنطق» حاول ديوي أن يعرض منطقاً يساير ويلائم تطور العلم الحديث، ويختلف مع منطق أرسطو ويؤكد زكي نجيب محمود في المقدمة التي كتبها أن هدف جون ديوي من كتابه هو: «تحليل عملية الفكر نفسها، فالأفكار ما طبيعتها وما أصلها؟ وكيف تطورت في عقل الإنسان من أصولها البيولوجية والاجتماعية الأولية البسيطة حتى أصبحتْ ما أصبحتْ؟ وبعبارة أخرى كان المنطق هو أهم ما خلفه لنا هذا الفيلسوف، فكما أن أرسطو قد خلَّف من بعده منطقًا أقامه على أساس المنهج الاستنباطي الرياضي الذي يصوّر طريقة اليونان الأقدمين — وطريقة أهل العصور الوسطى المتديّنة — فقد كان ديوي في عصرنا الحاضر من بين من أقاموا منطقاً جديداً يصور طرائق البحث في العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية» -المنطق، ترجمة زكي نجيب محمود-. وقد أطلق على هذا المنطق اسماً فنياً هو نظرية البحث، قاصداً بكلمة البحث هنا أن ينخرط الإنسان في مسلك عملي يعالج به موقفاً مشكلاً حتى يَنفض إشكاله، حيث يدعونا ديوي إلى أن نؤمن بأن المفاهيم الفلسفية تابعة للظروف الاجتماعية، فهناك أسبقية للواقع الاجتماعي والنفسي على الفكر: «أهم خاصية فكرية للعصر الحاضر هي

يأسه من بلوغ أية فلسفة، فبعد تقدم القرن الماضي أشواطاً بعيدة أصبحنا الآن نحس باهتزاز أركان المعتقدات الفلسفية وانقلابها. إن انهيار الأفكار التقليدية فرصة نرحب بها، فبالإمكان حصول التعاون بين العلم والفن للتأثير في الصناعة والسياسة والدين والحياة المنزلية وعلى العلاقات الإنسانية بوجه عام» -المنطق، ترجمة زكي نجيب محمود-

اشتهر جون ديوي بتأكيد مبدأ الخبرة، مقابل مبدأ التجربة. فالخبرة هي مجموع ما يحصله الإنسان ثمرة تفاعله بالبيئة التي يعيش فيها، وتظل هذه الخبرة تتزايد طبقاً للمبدأ الذي يؤكده جون ديوي وهو «خبرة التواصل»، وقد قدم ديوي معنى الخبرة وصلتها بالإنسان والطبيعة في عدة كتب أهمها «الخبرة والطبيعة» وكتاب الخبرة والتربية -ترجمه إلى العربية محمد رفعت رمضان- وكتاب «الفن خبرة» -ترجمة زكريا إبراهيم- وفي هذا الكتاب يكشف عن طبيعة الفن ومسائل علم الجمال.

في فلسفته البراغماتية يرفض جون ديوي الرجوع إلى سلطة أعلى من سلطة الإنسان نفسه، ومن خبرته التي يكسبها من خلال العمل والتفكير والبحث، وهو الأمر الذي أثار عليه رجال الدين، لأنه ينكر السلطة العليا، والقول بوجود سلطة في عالم السماء.

يقول ديوي في معرض الرد على رجال الدين وأصحاب النظريات اللاهوتية إن البحث فيما وراء الطبيعة، لا فائدة منه، وإن حصر مهمة الفلسفة في ذلك حسب رأيه أحد العوامل الرئيسة التي أوصلت الفلسفة إلى حالتها الراهنة من التأخر والعبث والبعد عن مستلزمات الحياة والمجتمع، ويرى ديوي أن وظيفة الفلسفة كما يروج له العديد من الفلاسفة الطبيعيين أمر لا ضرورة له، إن النظرة العميقة الشاملة للكون والحياة ينبغي أن يعهد بها إلى فلاسفة العلم، لا إلى الفلسفة بشكل مطلق، يعتقد ديوي أن وظيفة الفلسفة هي أن تعالج مشكلات المجتمع معالجة وسيلتها العلم الحديث، وأن مشكلات المجتمع في الوقت الحاضر تختلف عما كانت عليه في الزمن الماضي، ولهذا يجب أن تنطلق فلسفة حديثة تستمد قوتها وديمومتها من روح العصر الذي نعيش فيه، وتأخذ مادتها من طبيعة مشكلاته الفكرية والمادية.

يتميز جون ديوي عن كل من تشارلز بيرس ووليام جيمس في أنه يستعيض عن الدين في مرحلة شبابه بالإيمان بالديمقراطية والتربية المنفتحة، ونراه يتوجس من الدين العقائدي، لأنه مشبع بالأفكار فوق الطبيعية التي تتعارض مع مفهوم الفلسفة التي يتبناها، ولأنه يعتقد أن الدين العقائدي والمنظم خطير من الناحية الأخلاقية: «لم أكن يوماً قادراً على إضفاء أهمية كبرى على الدين بوصفه مشكلة فلسفية» -البراغماتيون الأمريكيون، ترجمة جمال شرف-

لعل من المساهمات البارزة لفلسفة جون ديوي هي فكرة الديمقراطية التي يرى أنها تسير جنباً إلى جنب مع التحقيق، ويؤكد ديوي أن الديمقراطية هي استخدام المنهج التجريبي من أجل حل المشكلات العملية، إنها تطبيق لـ «الذكاء التعاوني» وهي «الفضاء الذي نستطيع فيه أن نقتنع ونُقنع بالعقل». يهتم ديوي بقدرة الإنسان فيما يخص المبادرة والمداولة والمشاورة والتجريب، ويشير إلى أن الديمقراطية هي شرط مسبق لهذه الممارسات العملية في كل مجال من مجالات التحقيق، من الفيزياء إلى السياسة. يتطلب التحقيق أو «المنهج العلمي» تدفق معلومات من دون عوائق وحرية في فرض الفرضيات وانتقادها، وهذا يعني أنه يتطلب دعامة ديمقراطية.

كان ديوي يرى أن المجتمعات الديمقراطية هي الأفضل لأنها مجتمعات مرنة تتجنب المعتقدات الجامدة، وبذلك تكون قادرة على التغيير. وظل ديوي مهتماً بالنظم الجديدة في علم الاجتماع، لأنه يعتقد بقدرتها على حل المشكلات الاجتماعية بعيداً عن التنظير الفلسفي. وظل مصراً على أن الفلسفة إذا لم تعالج مضامين النسبية والذكاء الاصطناعي والرياضيات فإنها في طريقها إلى الانهيار، الأمر الذي دفعه إلى كتابة مقال بعنوان «الانهيار الفلسفي» أكد فيه أن الفلسفة نوع من المرض، يحتاج أطباؤه إلى علاج.

وكفيلسوف براغماتي، يقدم ديوي مفهوماً مختلفاً عن المعرفة الفلسفية باعتبار أن المعرفة هذه يجب أن تسلط الضوء على الأفكار النافعة فقط، والفكرة النافعة، هي التي تجيب على سؤال لدى الإنسان وتحل المشكلة التي تواجهه. ولهذا يرى أن الفلسفة في السنوات الأخيرة لم تعد تقدم حلولاً مثل العلم والنظم الديمقراطية الحديثة، فهي حسب رأيه أصبحت مخصصة فقط للأفكار التي لم تثبت الخبرة نجاحها. عند ديوي، التفكير العلمي فقط

هو الذي يربط مباشرة بين الفكر والعمل ويحاكم الأفكار بحسب قدرتها على الإنتاج.

في كتابه «إعادة البناء في الفلسفة»، يرى ديوي أن الفلسفة ضلّت الطريق حين فصلت الفكر عن التجربة العملية. وهو يرى أن الفلسفة ومناهجها وموضوعاتها لم تعد لها قيمتها النظرية التي يمكن الاستفادة منها في عصرنا الحديث، ويستند ديوي في دعوته لإحلال العلم والديمقراطية والتربية بدلاً من الفلسفة، إلى التغير الذي حدث في مفاهيم العقل والخبرة والمنطق والمجتمع في القرن التاسع عشر، حيث كان يرى أن الفلسفة بمناهجها القديمة أصبحت عائقاً أمام تطور الأفكار، وما لم تؤسس الأفكار الفلسفية على مفهوم الخبرة والتجربة، فإنها تصبح أفكاراً مجردة.

في السنوات من عام 1930 العام الذي تقاعد فيه من الجامعة وحتى لحظة رحيله عن عمر «92» عاماً، كان جون ديوي قد أصبح الشخصية الأبرز في الفلسفة الأمريكية. وحتى بعد أن توقف عن التدريس، لم يتوقف عن أنشطته في الفلسفة والشؤون العامة. ومن الجدير بالذكر أنه كان رئيس لجنة التقصي التي حكمت لمصلحة ليون تروتسكي ضد ستالين.. وخلال هذه السنوات أصبح ديوي نجم الفلسفة البراغماتية رغم أن هذه الفلسفة شهدت في سنوات ديوي الأخيرة تراجعاً، ولم تعد تستقطب الكثير من الفلاسفة.

وصية بورخيس لمكتبة

لا توجد طريقة واحدة لقراءة الكتب التي تشعر انها مملة، لكن هناك سبب رئيسي يجعلنا نسعى للحصول على هذه الكتب وضمها إلى مكتبتنا الشخصية، وتصفحها أو قراءة صفحات منها بين الحين والآخر.. وبالتأكيد لا توجد نصيحة واحدة تعلمنا كيفية قراءة مثل هذه النوعية من الكتب، وسبق للروائية الإنكليزية فرجينيا وولف أن حذرتنا قائلة: «فيما يتعلق بالقراءة فإن النصيحة الوحيدة حقاً التي يمكن أن يسديها شخص لآخر هي إياك أن تأخذ نصيحة أحد» لكن رغم ذلك تجدنا دائماً نسأل هل هذا الكتاب ممتع، وما الفائدة من شراء هذا المجلد؟. في النهاية نحن نقرأ وغايتنا كما شرحها لنا فرانسيس بيكون تقوية النفس وفالقراءة تجعلنا نعيش لذة المتعة. فيما كان الناقد الإنكليزي الشهير صمويل جونسون يصر على أن القراءة تمارس فعل «تطهير العقل من اللغو».

لا يزال حبي للقراءة يدفعني إلى اقتناء الكتب، أبحث في المكتبات عن كل ما هو جديد. فأنا أؤمن أن الكتب توسع رقعة الحياة.. نحن نقرأ لأننا نحتاج إلى المعرفة. لا معرفة أنفسنا والآخرين فقط. بل لكي نعرف الحالة التي تكون عليها الأشياء التي حولنا.

كان بورخيس قد وصف الكون بالمكتبة، واعترف أنه تخيل الجنة على شكل مكتبة، إلا أن مكتبته بالنسبه لزواره مخيبة للآمال، كان الجميع يتوقعون مكاناً مكسواً بالكتب، يردد على زواره مقولة شوبنهاور «إن كثيرين يخلطون بين شراء كتاب وشراء مضمون الكتاب».

عام 1985 طلبت إحدى المجلات من بورخيس أن يختار مجموعة من

الكتب التي سيضمها لمكتبته الخاصة على أن لا تتجاوز مئة كتاب. وصل بورخيس إلى خمس وسبعين عمل فقط قبل وفاته بسرطان الكبدعام 1988.

المثير في اختيارات بورخيس أنها خلت من كتابات شكسبير وتولستوي وجين أوستن، فقد اختار دستويفسكي وهرمان ميلفل وأوسكار وايلد وكان أبرز الكتب في قائمته الذهبية: قصص خوليو كورتاثار. وأمريكا لفرانز كافكا. صحراء التتار للروائي الإيطالي دينو بوزاتي. بعض مسرحيات موريس ميترلنك. المزيفون لأندريه جيد. آلة الزمن لويلز، الشياطين دستويفسكي. مسرحيات يوجين أونيل. قلب الظلام جوزيف كونراد. مقالات أوسكار وايلد. لعبة الكريات الزجاجية هرمان هيسه. أسفار ماركو بولو. نظرية الطبقة المترفة ثورستين فيبلين. ألف ليلة وليلة. كتابات آرنولد بينيت. الميجور بربارة جورج برنادشو. الخوف والرعشة كيركغارد. درس المعلم هنري جيمس. كتب هيردوت عن التاريخ، مول فلاندرز دانييل ديفو. حكايات روديارد كيبلينغ. نصوص جان كوكتو، الأيام الأخيرة لعمانؤيل كانط توماس دي كوينسي. الليالي العربية الجديدة روبرت لويس ستيفنسون. ملحمة كلكامش. رحلات جليفر جوناثان سويفت. الأشعار الكاملة ويليم بليك. قصص إدغار آلن بو. قصص فولتير. تنوع التجربة الدينية ويليام جيمس. كتاب الموتى الفرعوني.

وتعزيزاً لقائمة بورخيس أضع قائمة لكتب ربما ستجدها مملة ومتعبة في القراءة، إلا أن وجودها على رفوف مكتبتك الشخصية مهم جداً.. إنها جزء من تراث الإنسانية الهائل الذي أخرج ملايين الكتب التي ساهمت في تغيير حياتنا.. كتب تكشف لنا كيف تطورت الحياة. يكتب ألبرتو مانغويل: «أنا لا أميل إلى التمييز بين الأدب العظيم، والأدب التافه، لكنني أميز بين النصوص التي تسمح للقارئ بمسائلتها وتلك التي تقدم جميع الإجابات».. عسى أن تكون قائمتي لهذه الكتب تساعد القارئ على أن يجد الإجابات المناسبة.

1- رأس المال كارل ماركس.. ترجمة فالح عبد الجبار.

2- فنومينولوجيا الروح جورج فيلهلم هيغل.. ترجمة ناجي العونلي.

3- العالم إرادة وتمثلا آرثر شوبنهاور..ترجمة سعيد توفيق.

4- مباحث منطقية أدموند هوسرل.. ترجمة موسى وهبة.

5- لعبة الكريات الزجاجية هرمان هيسه.. ترجمة مصطفى ماهر.
6- رجل بلا صفات روبرت موزيل.. ترجمة محمد جديد.
7- طبل الصفيح غونتر عراس.. ترجمة حسين الموزاني.
8- اللامسمى صامويل بيكيت..ترجمة محمد حسين عجة.
9- الانسان ذو البعد الواحد هربرت ماركيوز.. ترجمة جورج طرابيشي.
10- الانسان المتمرد البير كامو.. ترجمة نهاد رضا.
11- الكينونة والعدم جان بول سارتر.. ترجمة نقولا كتيني.
12- الكينونة والزمان مارتن هايدغر.. ترجمة فتحي المسكيني.
13- الاختلاف والتكرار جيل دولوز.. ترجمة وفاء شعبان.
14- الذهانات جاك لاكان.. ترجمة عبد الهادي الفقير.
15- رسالة في اللاهوت والسياسة سبينوزا.
16- منطق ارسطو.. ترجمة عبد الرحمن بدوي.
17- نقد العقل المحض ايمانويل كانط.. ترجمة موسى وهبة.
18- إمّا - أو شذرة حياة - سورن كيركجورد.. ترجمة قحطان جاسم.
19- ديالكتيك الطبيعة لودفيغ انجل.ز. ترجمة توفيق سلوم.
20- مقال في المنهج رينيه ديكارت.. ترجمة محمود الخضيري.
21- المطارحات نيقولا مكيافيللي.. ترجمة احمد الشيباني.
22- اللفياثان توماس هوبز.. ترجمة ديانا حرب.
23- روح الشرائع مونتسكيو.. ترجمة عادل زعيتر.
24- الفردوس المفقود جون ميلتون ترجمة محمد عناني.
25- الكوميديا الالهية دانتي.. ترجمة حسن عثمان.
26- تحقيقات فلسفية لودفيك فتغنشتاين.. ترجمة عبد الرزاق بنور.
27- اصل الاخلاق وفصلها نيتشه.. ترجمة حسن قبيسي.
28- المرئي واللامرئي موريس ميرلوبونتي ترجمة عبد العزيز العيادي.
29- س/ ز رولان بارت.. نرجمة محمد بن الرافة.
30- منطق البحث العلمي كارل بوبر.. ترجمة محمد البغدادي.
31- تكوين العقل العلمي غاستون باشلار.. ترجمة خليل احمد خليل.
32- بنية الثورات العلمية توماس كون.. ترجمة شوقي جلال.

33- مظرية في العدالة جون رولز.. ترجمة ليلى الطويل.
34- المنطق جون ديوي.. ترجمة زكي نجيب محمود.
35- الزمان الوجودي عبد الرحمن بدوي.
36- اميل او التربية جان جاك روسو.. ترجمة عادل زعيتر.
37- تدهور الحضارة الغربية ازوفالد شبنجلر.. ترجمة احمد الشيباني.
38- تحطيم العقل جورد لوكاش.. ترجمو إلياس مرقص.
39- الكلمات والأشياء ميشيل فوكو.. ترجمة مطاع صفدي.
40- تهافت التهافت ابن رشد.. تحقيق سليمان دنيا.
41- المحاورات الثلاث باركلي.. ترجمة يحيى عويدي.
42- الأرض اليباب ت.س. إليوت.. ترجمة فاضل السلطاني.
43- نظرية الفعل التواصلي يورغن هبرماس.. ترجمة فتحي المسكيني.
44- نظرية المعرفة لينين.. ترجمة يوسف حلاق.
45- ثروة الامم آدم سميث.. ترجمة وليد شحادة.
46- دكتور فاوستوس توماس مان.. ترجمة محمد جديد.
47- القصر فرانز كافكا.. ترجمة مصطفى ماهر.
48- الجنس الآخر سيمون دي بوفوار.. ترجمة سحر سعيد.
49- انفعالات ناتالي ساروت.. ترجمة جلال العشري.
50- طريق فلاندر كلود سيمون ترجمة باسيل فوزي.
51- الكلية واللامتناهي إيمانويل ليفناس.. ترجمة عبد العزيز بومسهولي.
52- نقد العقل الكلبي بيتر سلوتردايك:.. ترجمة ترجمة ناجي العونلي.
53- أصل الأنواع تشارلز داروين.. ترجمة اسماعيل مظهر.
54- تفسير الأحلام سيجموند فرويد.. ترجمة مصطفى صفوان.
55- بيان ثان للفلسفة آلان بادیو.. ترجمة فتحي المسكيني.
56- الشارع الرئيسي سنكر لويس.. ترجمة امينة السعيد.
57- الاشارات والتنبيهات ابن سينا.. ترجمة سليمان دينا.
58- البؤساء باجزائها الخمسة فكتور هيغو.. ترجمة منير بعلبكي.
59- الدون الهادئ شولوخوف.. ترجمة علي الشوك وغانم حمدون.

60- بول اوستر 1،2،3،4.. ترجمة احمد.م.احمد.
61- الالياذة هوميروس.. ترجمة احمد عثمان.
62- بوليسيس جيمس جويس.. نرجمة صلاح نيازي.
63- نور من آب وليم فوكنر.. ترجمة عطا عبد الوهاب.
64- السيدة دالاواي فرجينيا وولف.. ترجمة عطا عبد الوهاب.
65- البراجماتية وليم جيمس.. ترجمة محمد علي العريان.
66- البناء المنطقي للعالم رودلوف كارناب.. ترجمة توفيق تيبس.
67- فلسفة الحضارة البرت أشفيتسر.. ترجمة عبد الرحمن بدوي.
68- النسبية البرت اينشتاين.. ترجمة رمسيس شحادة.
69- الذات عينها كاخر بول ريكور.. ترجمة جورج زيناتي.
70- الجماعات الدينية ماكس فيبر.. ترجمة جورج كتورة.
71- في الحكم المدني جون لوك.. ترجمة ماجد فخري.
72- غوتفريد فيلهلم لايبنتزابحاث في الفهم الانساني.. ترجمة احمد فؤاد كامل.
73- براديغما جديدة الان تورين.. ترجمة جورج سليمان.
74- تحقيق في الذهن البشري ديفيد هيوم.. ترجمة محمد محجوب.
75- الكلام او الموت.. نرجمة مصطفى حجازي.
76- في الثورة حنه ارندت.. ترجمة عطا عبد الوهاب.
77- النفعية جون ستيوارت ميل.. ترجمة سعد شاهري.
78- المنهج ادغار موران.. ترجمة جمال شحيذ.
79- البحث عن الومن المفقود مارسيل بروست.. ترجمة الياس بديوي.
80- الجمهورية افلاطون.. ترجمة فؤاد زكريا.
81- الفكر البري كلود ليفي ستراوس.. ترجمة نظير جاهل.
82- الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية فرنان برودل.. ترجمة مصطفى ماهر.
83- برتراند رسل اصول الرياضيات.. ترجمة محمد مرسي نور.
84- من لاعزاء لهم كازو إيشيجورو.. ترجمة طاهر لبيب.

85- الغصن الذهبي جيمس فريزر.. ترجمة سلوى عبد القادر.
86- مسخ الكائنات اوفيد.. ترجمة ثروت عكاشة.
87- اعترافات اوغسطين.. ترجمة ابراهيم الغرابي.
88- الانياذة فيرجل.. ترجمة عبد المعطي شعراوي.
89- اضمحلال الامبراطورية الرومانية ادورد جيبون.. ترجمة محمد علي ابو درة.
90- مثنوي جلال الدين الرومي.. ترجمة ابراهيم الدسوقي.
91- الفتوحات المكية ابن عربي.. تحقيق عثمان يحيى.
92- تاريخ البشرية ارنولد توينبي.. ترجمة نقولا زيادة.
93- المقدمة ابن خلدون.. تحقيق علي عبد الواحد موافي.
94- التطور الخلاق هنري برجسون.. ترجمة محمد محمود قاسم.
95- رسالة الغفران أبو العلاء المعري.. تحقيق عائشة عبد الرحمن.
96- في عزاء الفلسفة بوثيوس.. ترجمة عادل مصطفى.
97- ملحمة كلكامش.. ترجمة طه باقر.
98- حوار حول النظامين الرئيسيين للكون.. ترجمة محمد اسعد عبد الرؤوف.
99- الابطال توماس كارليل.. ترجمة محمد السباعي.
100- يوتوبيا توماي مور.. ترجمة انجيل بطرس سمعان.

الفهرس

المقدمة: الانتصار على الكتب التي أصابتنا بالملل.....7
1- كتاب اكتشفت معه أنني أبله 11
2- شقاءُ الإنسان من دون العقل..... 19
3- عندما تعيش مع كتاب تخاف منه..... 27
4- عزيزي تولستوي.. ماذا فعلت بقارئ مراهق؟..... 35
5- إن كلَّ ما يعرفة الإنسان.. يمكن قوله في ثلاث كلمات 45
6- عندما أنقذني آدم سميث من حيرتي 53
7- عندما قررت ذات يوم أن أتناول الغداء على مائدة آل برونتي.... 63
8- قل لي بماذا تحلم أقل لك من أنت 73
9- حوار في ظهيرة ساخنة بطله ويليام فوكنر 81
10- كيف تقرأ البحث عن الزمن المفقود؟..... 91
11- جاك دريدا ساخراً: «أرجوكم.. اقرأوني»..... 101
12- الكتب المملة التي ألهمت ماركيز 111
13- الروائي الذي قرّر أن يُشغل النقاد «300» عام 119
14- حيرتي مع سارتر من الوجود إلى العدم..... 127
15- من أين نبدأ مع فيرجينيا وولف؟ 133
16- كيف تتعلم من الأفكار التي لا تعجبك 141

17- كتب بلا ضفاف 147
18- لماذا أصدع رأسي بمعارك الرفاق؟ 155
19- هل يمكن أن نضع العالم في قشرة جوز؟ 163
20- لكن كتبك باللغة الألمانية يا سيدي!.....173
21- رحلة فكرية في عالم العقل وأوهامه 181
22- أيها القارئ العزيز: هل أنت براغماتي؟ 189
23- هل يمكن أن نقرأ الفلسفة مثلما نقرأ الروايات.....197
24- متاهة فلسفية بين مشجعي هيغل ومريدي ماركس 205
25- يجب أن نبقى قراء.....215
وصية بورخيس لمكتبة 223

مكتبة نوميديا

هل هناك كتب مملة؟ بالتأكيد هناك الكثير ما زالوا يجدون القراءة مملة ولا يملكون القدرة على إنهاء الكتاب، كما أن هناك من ينظر إلى القراءة على أنها عمل روتيني، ومثل هذه النوعية من القراءة ستنتهي بنا إلى أن نصبح قراء سيئين.

يشير مارسيل بروست إلى أن الكتب القديمة تحث على الحنين إلى الماضي، لأن بعض الذكريات تضيع في ظل ظروف الحياة اليومية، لكننا سنستعيدها في الكتب التي قرأناها خال تلك السنوات: «إنها التقاويم الوحيدة التي احتفظنا بها، للأيام التي انقضت» ، وعلى حد تعبير حنا أرندت «أن القراءة تحاول إحياء حياة نرغب في إحيائها» .

والآن دعونا نتساءل: كيف يمكن للحروف السوداء الصغيرة على صفحة بيضاء أن تنتج كل هذه التموجات الهائلة في القلب والعقل والروح؟ لماذا نفقد أنفسنا في الكتب؟ رأى غاليليو أن القراءة وسيلة للوصول إلى قوى خارقة. بعد خمسمئة عام، أشاد نظيره عالم الفلك الأمريكي كارل ساغان بالكتب باعتبارها «دليلاً على أن البشر بإمكانهم عمل السحر» .